

قصة الخيال العلمي العربية الحديثة جنسا أدبيا
إبداعيا -مقاربة نقدية مع إشارة خاصة إلى أعمال
الكاتب السوري طالب عمران

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

إعداد:
أسلم ك.

تحت إشراف
الأستاذ د. محيي الدين كوتي أ. ب.

الأستاذ
قسم اللغة العربية
جامعة كاليكوت



جامعة كاليكوت

كيرالا، الهند

2022

المحتويات

١	المقدمة
١٠	الباب الأول: قصة الخيال العلمي : مباحث تمهيدية
١١	الفصل الأول: قصة الخيال العلمي مفهومها وأهميتها
٢٠	الفصل الثاني: جذور قصة الخيال العلمي في الآداب القديمة
٢٩	الفصل الثالث: قصة الخيال العلمي في الآداب العالمية الحديثة
٤١	الباب الثاني: قصة الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث
٤٢	الفصل الأول: قصة الخيال العلمي في العالم العربي الحديث
٤٩	الفصل الثاني: نبذات لأهم الأعمال العربية في الخيال العلمي
٥٤	الفصل الثالث: موقف العالم العربي من قصة الخيال العلمي
٦٢	الباب الثالث: طالب عمران ومساهماته في قصة الخيال العلمي
٦٣	الفصل الأول: طالب عمران: حياته وآثاره
٦٩	الفصل الثاني: نبذات قصص الخيال العلمي لطالب عمران
٨٩	الفصل الثالث: الموضوعات في قصص الخيال العلمي لطالب عمران
٨٩	المبحث الأول: غزو الفضاء
١٣١	المبحث الثاني: الظواهر الخارقة المدهشة
١٧٣	المبحث الثالث: البحث عن الخلود والشباب الدائم
١٨٩	المبحث الرابع: البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض
٢٠٠	المبحث الخامس: حضارات العوالم الأخرى
٢١٧	المبحث السادس: كائنات العوالم الأخرى
٢٢١	الفصل الرابع: خصائص أدب الخيال العلمي عند طالب عمران
٢٣٩	الخاتمة
٢٤٨	قائمة المصادر والمراجع

المقدمة

بسم الله الذي خلق الإنسان وعلمه ما لم يعلم. والحمد للذي أبدع الكون وأودع فيه العجائب والآيات العظام. والثناء للذي علم البشر البيان وفضّله على كثير من خلقه الجسام. والصلاة والسلام على أفصح من نطق باللسان وعلى آله وصحبه الكرام.

القصة جنس أدبي لا غنى عنه بالنسبة لحياة الإنسان الثقافية. وهي عريقة الجذور نشأة وممتينة القامة تأصيلاً وكثيرة الفروع تطوراً. لعل بداية القصة لدى القدماء بالمرويات التي يرويها الإنسان شفها عن أخبار الماضين بغية تسلية السامعين وإمتاعهم من جانب وتزويدهم بالعبرات والعظات من جانب أخرى، كما هي الحال في شأن ما يحكيه الأجداد والجدات للأحفاد. وبالتالي تطور الأدب القصصي مع تطور نمط الحياة وتوسع آفاق تفكير البشر وأخيلتهم.

قصة الخيال العلمي (Science Fiction) هي نوع خاص من أنواع الأدب القصصي تبلور وتطور مع نضوج التفكير العلمي لدى الإنسان وتساؤلاته عن عجائب الكون اللامتناهية المحيطة به وتخيلاته عن جوانبها الغامضة واستشرافاته عن مستقبل العالم. وهي كنوع فني يعتمد على الخيال يتخيل فيه المؤلف عالماً خيالياً جديداً بناء على النظريات/ الفرضيات العلمية.

فلقصة الخيال العلمي لدى الغرب عناية كبيرة لا يستهان بها. هناك أعمال تعتبر ككلاسيكات العالم كتبت على أيدي كتّاب الخيال العلمي من مختلف الجنسيات. فمنهم على سبيل المثال لا الحصر، جول فيرن الفرنسي صاحب روايات 'من الأرض إلى القمر' و'حول العالم في ثمانين يوم' و'عشرون ألف فرسخ تحت الماء'، وهربرت جورج ويلز الإنجليزي صاحب الأعمال الشهيرة من أمثال 'آلة الزمن' و'حرب العوالم' و'جزيرة الدكتور مورو' و'آرثر سي كلارك الإنجليزي وهو من أصحاب أكثر الكتب مبيعاً على مستوى العالم، اشتهر بروايته 'أوديسا الفضاء' و'اسحاق عظيموف الروسي الأمريكي وهو من أكثر الكتاب غزارة، وكذلك ماري شيلي الإنجليزية صاحبة 'فرانكشتاين'.

ماذا عن حالة قصة الخيال العلمي في الأدب العربي ؟ هل هناك حضور ونشاط عربي معتبر في هذا المجال؟... تساؤلات تطرقت ذهن الباحث كطويلب علم يتطلع إلى ما هو جديد. قد أدرك بعد بحث مبدئي يسير أن في الأدب العربي الحديث كتاب موهوبون اهتموا بكتابة قصة الخيال العلمي ومنهم من يخصصون بهذا الفن. وصدرت من أقلامهم قصص وروايات الخيال العلمي تستحق القراءة والدراسة حولها. ومن هؤلاء الكُتّاب توفيق الحكيم المصري صاحب 'رحلة إلى الغد' و'سنة مليون' ومصطفى محمود المصري صاحب رواية 'العنكبوت' ونهاد شريف المصري صاحب 'قاهر الزمن' وروايات ومجموعات قصصية أخرى ومحمد عبد السلام البقالي المغربي صاحب 'الطوفان الأزرق' وطالب عمران السوري صاحب 'الأزمان المظلمة' و'البعد الخامس' و'أحزان السندباد' وغيرها الكثير من القصص والروايات في الخيال العلمي.

مشكلة البحث

فهذا البحث المعنون "قصة الخيال العلمي العربية الحديثة جنسا أدبيا إبداعيا: مقارنة نقدية مع إشارة خاصة إلى أعمال الكاتب السوري طالب عمران" يدرس بالتفصيل حضور قصة الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث ومدى نجاحها جنسا أدبيا إبداعيا، مع تركيز خاص على مؤلفات الخيال العلمي للكاتب السوري الدكتور طالب عمران.

تحليل العنوان

عنوان هذه الرسالة كما سبقت الإشارة إليه "قصة الخيال العلمي العربية الحديثة جنسا أدبيا إبداعيا: مقارنة نقدية مع إشارة خاصة إلى أعمال الكاتب السوري طالب عمران".

أما كلمة 'قصة' بمعنى Fiction في الإنجليزية، جمعها قصص. هي سرد واقعي أو خيالي لأفعال/ أحداث، يقصد به إثارة الاهتمام والامتناع أو تثقيف السامعين أو

القراء. والباحث يقصد بالقصة هنا الأدب القصصي بمفهومه الواسع بما فيه القصة القصيرة والرواية. وكلمة الخيال بمعنى Imagination وهو "إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء أثناء غيابها، قوة باطنية قادرة على الخلق والابتكار نتصور الأشياء ونتمثلها" وكلمة 'العلمي' نسبة إلى العلم بمعنى Science يقصد به دراسة العالم المادي والطبيعي من خلال التجارب والمشاهدات والملاحظات والتي يمكن اختبارها والتحقق منها عن طريق المزيد من البحث. والمصطلح 'قصة الخيال العلمي' يستعمل في العربية بمعنى Science Fiction. وأما المصطلح 'العربية الحديثة' نسبة إلى 'الأدب العربي الحديث' يراد به كما هو معروف الأدب العربية التي كتبت بعد النهضة العربية إثر حملة نابليون على الشرق العربي عام 1798. والمصطلح 'جنس أدبي' يعني Literary Genre. هو تصنيف الإبداعات الأدبية حسب مجموعة من المعايير كالمضمون والأسلوب. ومن الأجناس الأدبية -على سبيل المثال - القصة والشعر والمقالة إلخ. وكلمة 'مقاربة' الواردة في العنوان تعني النظر إلى الموضوع وتحليله لمعرفة أوجهه. وكلمة 'نقدية' نسبة إلى النقد الأدبي. فالباحث يهدف إلى القيام بدراسة تحليلية نقدية حول قصص الخيال العلمي العربية المكتوبة في العصر الحديث ومدى نجاحها جنسًا أدبيًا إبداعيًا. وأما تعبير 'مع إشارة خاصة إلى...' فيريد به الباحث أن يأخذ أعمال الكاتب السوري الدكتور طالب عمران عينة لتحليل خاص.

الدراسات السابقة

قد وجد الباحث أن ما يلي من الدراسات المتعلقة بالخيال العلمي العربي قد سبقت بحثه هذا:

- عزة غنام، الإبداع الفني في قصص الخيال العلمي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988م
- د. طالب عمران، في العلم والخيال العلمي، المركز الثقافي العربي، 1989م
- محمد عزام، خيال بلا حدود، دار الفكر، دمشق، 2000م

- يوسف الشاروني، الخيال العلمي في الأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م
- محمد عبد الله الياسين، الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث في ضوء الدراسات المقارنة، جامعة البعث، سوريا، 2015م

الطريق الى هذا الموضوع :

كان تخصص الباحث في مرحلة البكالوريا 'الرياضية'. عندما يعود بذاكرته الى تلك السنوات الثلاثة التي قضاها في ذلك الموضوع يشعر بشيء من الضجر و الملل. حقا إنّه ملّ بتلقين نظرياته و قواعده الجافة ، و يظن أنه كان من العجب أن استطاع اقتحام تلك العقبة بنجاح. ولهذا السبب نفسه عزم تبديل تخصصه للماجستير. ما كان يعيد تفكيره في اختياره 'اللغة العربية و آدابها' موضوعا لتخصصه ، لأن لديه شغف شديد وحب جمّ و شيء من علاقة انفعالية معها منذ نعومة أظفاره. و بعدما التحق للماجستير إن أوّلما واجهه من مشكلات ، هي تلك التساؤلات التي تطلب منه أن يفسّر لماذا وثب من مجال العلم الى مجال الأدب حيث أنهما مجالان مختلفان بينهما بعد ما بين الخافقين. وطبعاً كان عليه أن يكتشف بجواب قاطع يروي غليل المتسائلين و غليله ايّاه نفسه. فالبحت عن حلقة الوصل الذي يجتمع فيه العلم مع الأدب، أصبح منذ وقتذاك شغله الشاغل ؛ حتى في نهاية المطاف وصل الباحث الى 'قصة الخيال العلمي'. فطفق يتصفح في إنترنت هل توجد في العربية أعمال من هذا الجنس الأدبي، رواية أو أقصوصة . فأول ما صادف من هذا الجنس هو رواية 'العنكبوت' للكاتب المصري مصطفى محمود. كانت هذه الرواية بالنسبة للباحث تجربة قرائية متميزة ، وجد فيها نوعاً من حس سينمائي شائق، و شدّه اليها أسلوبها السلس الساحر من البداية الى النهاية ، حتى أمكنه اتمام قراءتها في جلسة واحدة تستغرق أقل من ساعتين.

واصل الباحث بحثه عن أعمال أخرى في الخيال العلمي العربي، بواسطة الإنترنت. فانهالت اليه جمّ وافر من الروايات و القصص في أدب النوع ألّفت على أيدي أدباء

من مختلف الجنسيات، بداية من 'البعد الخامس' للكاتب السوري طالب عمران و'الأزمان المظلمة' لنفس الكاتب و'الطوفان الأزرق' لأحمد عبد السلام البقالي المغربي وغيرها من الكتب. وقرأها جميعا و استمتع بها.

فمن الطبيعي لما أتحت له الفرصة للقيام بالبحث الجامعي لم يعد له أن يفكر ثانيا في اختيار هذا الموضوع مجالا لبحثه.

أهمية موضوع البحث

الدراسة حول قصة الخيال العلمي ذات أهمية بالغة، من حيث أنها تعتبر حلقة وصل بين العلم والأدب وتمثل جدلية العلاقة فيما بينهما رغم ما يقال و يعتقد أنهما شيئان متضادان. و اعتبارا أن الساحة الأدبية العربية حافلة بالابداعات القيمة في أدب النوع فمن الضروري القيام بالدراسة الشاملة، خصوصا في سياق ندرة البحث الأكاديمي في هذا المجال.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

- دراسة عامة عن مفهوم قصة الخيال العلمي.
- دراسة تاريخ نشأة قصة الخيال العلمي وتطورها ومكانتها في الآداب العالمية.
- دراسة تفصيلية عن أدب الخيال العلمي العربي حول نشأته وتطوره وعن الأدباء ومؤلفاتهم.
- اختبار مدى نجاح قصة الخيال العلمي العربي جنسا أدبيا إبداعيا.
- قراءة تحليلية لمؤلفات الخيال العلمي للدكتور طالب عمران.
- تحليل مواضيع مصورة في قصص الخيال العلمي لطالب عمران
- البحث عن خصائص فنية ومضمونية لمؤلفات طالب عمران في الخيال العلمي

منهج البحث

اعتمد الباحث على المنهج التحليلي في معالجته لموضوع بحثه. التزم في بحثه هذا ما يلي من الخطوات :

- قراءة عامة عن مفهوم أدب الخيال العلمي العالمي.
- قراءة الأعمال العربية رواية وأقصوصة للأدباء المعاصرين من مختلف الجنسيات.
- دراسة قصص الخيال العلمي للدكتور طالب عمران مع تركيز خاص.
- قراءة المصادر الثانوية من دراسات و أبحاث حول الخيال العلمي العربي. و يذكر الباحث بهذا الصدد مجلدات 'مجلة الخيال العلمي' تصدرها وزارة الثقافة السورية التي ساعدته بتسليط الضوء على نواحي متنوعة لهذا الموضوع.
- كتابة رسالة بحثية

ويكون البحث في مجمله موضوعيا وعلميا، وتندرج في الدراسة المواد المتوقّرة لدى الباحث من قصص الخيال العلمي العربي، والكتب النقدية حولها، والدراسات التي نشرت في الجرائد والمجلات، والمعلومات والمنشورات الواردة في مواقع الإنترنت الرسمية الموثوق بها، وغيرها من المراجع المتعلقة بهذا البحث.

خطة البحث

تحتوي هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وتليها قائمة المصادر والمراجع، وفي كل باب من أبواب البحث فصول شتى حسب الحاجة، ويتسع فصل في الباب الثالث إلى ستة مباحث يختص كل واحد منها بموضوع من موضوعات الخيال العلمي في قصص طالب عمران.

الباب الأول المعنون "قصة الخيال العلمي: مباحث تمهيدية" يتضمن ثلاثة فصول. والفصل الأول عنوانه : قصة الخيال العلمي مفهومها وخصائصها. يناقش الباحث

في هذا الفصل دلالة المصطلح 'قصة الخيال العلمي' وتعريفها وخصائصها وبيان عن أقسامها وأهميتها وأهدافها. والفصل الثاني من هذا الباب عنوانه : جذور قصة الخيال العلمي في الآداب القديمة. يدرس فيه الباحث تاريخ بداية قصة الخيال العلمي. ويناقش ثلاث فرضيات عن أصل الخيال العلمي وهي الأصل الديني والأصل الأسطوري الأصل الطوبائي وكذلك يبحث عن عناصر الخيال العلمي في الآثار الأدبية القديمة من أمثال ألف ليلة وليلة، وملحمة جلجميش، القصة الحقيقية للقياوس السميساطي. والفصل الثالث المعنون 'قصة الخيال العلمي في الآداب العالمية الحديثة' يناقش بالتفصيل حضور أدب الخيال العلمي في الأدب الفرنسي وفي الأدب الإنجليزي وفي الأدب الأمريكي وفي الأدب الروسي وكذلك يسلط الضوء على حضور الخيال العلمي في لغة مالايالم واللغات الهندية الأخرى.

والباب الثاني عنوانه الباحث ب 'قصة الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث'. وفيه ثلاثة فصول. وأولها 'قصة الخيال العلمي في العالم العربي الحديث' ويناقش فيها مساهمات كل من توفيق الحكيم، ومصطفى محمود، ويوسف السباعي، ونهاد شريف، وطالب عمران، ودياب عيد، وأحمد عبد السلام البقالي في تأسيس وتطوير قصة الخيال العلمي العربي جنسا أدبيا. والفصل الثاني من هذا الباب يتضمن نبذا لأهم الأعمال العربية في الخيال العلمي - 'رحلة إلى الغد' لتوفيق الحكيم ورواية 'العنكبوت' لمصطفى محمود ورواية 'قاهر الزمن' لنهاد شريف ورواية 'الطوفان الأزرق' لأحمد عبد السلام البقالي. وثالث الفصول من هذا الباب يناقش موقف العالم العربي من قصة الخيال العلمي قراءة ونقدا واهتماما. ويرد الباحث فيه ما جرى بين الروائي العربي العملاق نجيب محفوظ وكاتب الخيال العلمي من المغرب أحمد عبد السلام البقالي حول أدبية قصة الخيال العلمي كما ناقش عن الحركات البارزة والندوات/الأنشطة المعقودة في مجال الخيال العلمي.

والباب الثالث المعنون 'الدكتور طالب عمران ومساهماته في قصة الخيال العلمي' يتضمن أربعة فصول. والأول منها: 'طالب عمران: حياته وآثاره' ويبين فيه

الباحث لمحة من سيرة حياة الدكتور طالب عمران ومؤلفاته والجوائز التي حصل عليها، كما يبين علاقة الأديب بالهند وانعكاسات حياته بالهند في أعماله الأدبية. وفصله الثاني أتى فيه الباحث بنبذ لأهم قصص الخيال العلمي لطالب عمران من أمثال الأزمان المظلمة، ورجل من القارة المفقودة، وعوالم من الأمساخ، والنفق، وفضاء واسع كالحلم، والأصابع السحرية، وفي كوكب شبيه بالأرض، والبحث عن عوالم أخرى، وثقب في جدار الزمن، وليس في القمر فقراء، وحمورية البحر، وأمومة لا تعرف اليأس، ورواد الكوكب الأحمر، ومثلث الأسرار. والفصل الثالث يناقش عن الموضوعات المهمة الواردة في قصص الخيال العلمي لطالب عمران. وتم ترتيب مضمون هذا الفصل في أربعة مباحث يختص كل منها بموضوع من موضوعات واردة في قصص الخيال العلمي لطالب عمران. وهي كما يلي

المبحث الأول: غزو الفضاء (من الأرض إلى الكون، من الكون إلى الأرض)

المبحث الثاني: الظواهر الخارقة المدهشة (الحاسة السادسة، النبأ، الاستبصار بالأحلام، التنويم المغناطيسي، الروح، العلم في مواجهة الخرافة)

المبحث الثالث: البحث عن الخلود والشباب الدائم (الاستنساخ البشري، زراعة الاعضاء البشرية، هندسة الوراثة)

المبحث الرابع: البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض (البحث عن القارة المفقودة، البحث عن الحضارات القديمة)

المبحث الخامس: حضارات العوالم الأخرى (الاتصال بالحضارات غير الأرضية، اللقاء بكائنات الحضارات غير الأرضية)

المبحث السادس: كائنات العوالم الأخرى

والفصل الرابع والأخير يناقش خصائص قصص الخيال العلمي لطالب عمران. وفيه نقاش مستفيض عن خصيقتين مضمونيتين مهمتين وهما : التنبأ العلمي ونسبية الزمان والمكان وكذلك عن خصائص البناء الفني لأعمال عمران الأدبية.

الشكر والتقدير

أخيرا لا يفوت الباحث أن يرفع أصدق آيات الشكر والامتنان إلى جميع من عاونه وسانده في إتمام هذا البحث، إنه "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"، ويخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور محيي الدين كوتي أ. ب. ، مصدر الإلهام والتشجيع وصاحب النصيحة والفضيلة وينبوع الحب والكرم، والذي لولا إشرافه وإحاحه لما تمّ هذا العمل. وكذلك إلى بقية الأساتذة والزملاء والأقارب الذين أمدّوا إلى الباحث يد المساعدة والمساعدة. جزاهم الله جميعا أحسن الجزاء.

الباب الأول

قصة الخيال العلمي : مباحث تمهيدية

- الفصل الأول: قصة الخيال العلمي مفهومها وأهميتها
- الفصل الثاني: جذور قصة الخيال العلمي في الآداب القديمة
- الفصل الثالث: قصة الخيال العلمي في الآداب العالمية الحديثة

الفصل الأول

قصة الخيال العلمي مفهومها و أهميتها

إنّ الحضارة الراهنة هي حضارة علمية قبل كل شيء. وقد قفز الإنسان قفزات ملحوظة في مجالات مختلفة للعلوم والتكنولوجيا. وإنّ التقدمات والتطورات المتحققة خلال العقود الأخيرة لا يمكن حصرها، حيث أصبحت البشرية تمتلك الآن العديد من الأدوات والوسائل العلمية اللازمة لتغيير العالم وتسخيره. وفي وسعنا القول بدون أدنى شك بأن جميع هذه التغييرات والتطورات يكمن وراءها نوع من الأخيذة المبدعة تنطلق من أجمل الرؤى العلمية وأبداعها. الخيال هو القوة الساحرة التي رافقت تطور البشرية دافعا وملهما. إنه حافز يحرك أحاسيس الأدياء ووقود ينير ملكة إبداع العلماء. وفي عبارات أخرى أن الخيال هو قاسم مشترك في كل من التفكير العلمي والتفكير الأدبي لدى الإنسان. ومن ثم كان تشابك العلم مع الأدب ومسايرتهما في سبيل مواكبة الحضارة الإنسانية . فتولد جنس أدبي جديد ابنا شرعيا للعصر العلمي الذي نعيشه ، فهو 'قصة الخيال العلمي'.

دلالة المصطلح :

قصة الخيال العلمي هي ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Science Fiction). ويعني "القصة أو الرواية التي تعالج بكيفية خيالية أحداث أو مواقف أو مجتمعات علمية محتملة الوقوع انطلاقا من حقائق أو فرضيات علمية معروفة"¹.

يترجم المصطلح هكذا بدلا من أن يترجم 'قصة علمية' (حيث هذا هو الترجمة المباشرة : قصة = fiction ، علم = Science) لأجل تمييز هذا المصطلح من Science story (القصة العلمية) التي تتناول حدثا علميا ثبتت صحته و تسرد في قالب قصصي.

¹ سمر روجي الفيصل، أدب الأطفال وثقافتهم : قراءة نقدية – دراسة ، ص 46

'قصة الخيال العلمي' هو مصطلح مركب من ثلاث كلمات : القصة والخيال والعلم. ومن أجل جعل دلالة المصطلح أكثر وضوحاً ، تحتاج هذه الكلمات إلى تحليل مفصل.

1. الخيال :

الخيال لغة هو "الظن أو الوهم"².

إذا ما قيل عن شخص ما : "هو شخص خيالي" .

يقصد بهذا القول إحدى المعنيين :

- الأول إيجابي يفيد "بأن هذا الشخص يتصور أموراً غير مألوفة"،
- والثاني سلبي يفيد "بأنه بعيد عن الواقع".

يمكننا الاستنتاج من هاتين المعنيين المستعملين سمتين مهمتين للخيال هما:

- التصور

- والارتفاع فوق الواقع

أما التصور – أي إنشاء الصورة – فهو سمة من سمات الخيال ، إذ لا خيال بدون إنشاء ولا تركيب. وأما الارتفاع فوق الواقع فسمة أخرى من سماته، لأن نقل الواقع كما هو لا يعد خيالاً بل يعد مجرد استعادة.

والخيال يكاد يكون لازمة من لوازم الأدب شعراً كان أو نثراً. إذ ليس هناك أدب دون خيال. كما أن الخيال يقوم بتركيب الحوادث والشخصيات والمواقف في الأعمال القصصية، ففي الشعر هناك خيال شعري يصنع الصور الشعرية.

هذا الخيال الأدبي يتم بمراحل ثلاثة كما يرى الباحث :

² لويس معلوف، المنجد في اللغة، الطبعة التاسعة عشر، المطبعة كاثوليكية بيروت، ص 202

- أحدها تداعي المعاني والأفكار والعناصر التي سبق إدراكها وفهمها بوسيلة التذكر

- والثاني هو الانتخاب منها ما يناسب الغرض الأدبي

- والثالث هو تأليف هذه العناصر المنتخبة في تركيب مجازي جديد.

فالخيال كما يقول الناقد سمر روجي الفيصل هو "قوة معرفية تركيبية جديدة يملكها الناس كلهم على تفاوت بينهم في درجاتها تبعا لاختلاف تركيب أدمغتهم. هذه القوة العقلية مرتبطة بالقوى العقلية الأخرى كالإدراك والتذكر . ولكن ارتباطها بها ليس حتميا، إذ يمكن لها الاستقلال بذاتها وارتداد عوالم وحوادث لم يؤد إليها التذكر ولم يدركها الإنسان من قبل . والحرية عماد هذه القوة وركنها المكين ، وبواسطتها يخلق في الزمان والمكان. وكذلك الارتفاع فوق الواقع سمة رئيسية في الخيال كما سبقت الإشارة إليها. ولكن لا يعني أن الخيال منفصل عن الواقع ، بل يعني لا خيال اذا لم تصنع من العناصر المستمدة من الواقع صورة جديدة ليس لها شبيه في هذا الواقع ولكن الانسان يفهمها ويصدقها ويتفاعل معها ويتأثر بها"³.

2. القصة:

القصة هي ترجمة للمصطلح fiction وتحتوي على القصة القصيرة/الأقصوصة والرواية. وهي لا بد أن يكون الخيال مكونا من مكوناتها الرئيسية. وفي مجال القصة هناك ثلاث درجات من قوة الخيال: الأول درجة ضعيفة والثاني متوسطة يخلق الخيال بواسطتهما حرا في حدود الممكن، والثالث درجة جامحة يخلق خارج حدود الممكن والمعقول ويدخل حقل الخرافة. فيدعى حينئذ الخيال الخرافي (fantasy). ومن الجدير بالذكر أن الخيال في قصص الخيال العلمي لا يخرج عن هذه الدرجة التي تجول في الممكن عقليا، بل إن هذا الأمر هو معيار رئيسي يستطيع الباحث الاستناد إليه في التفريق بين الخيال العلمي وبين الخيال الخرافي . ولأمر نفسه علاقة بواقعية

³ سمر روجي الفيصل، قصص الخيال العلمي – دراسة، منتديات نور الأدب <http://nooreladab.com>

القصة ولا واقعيتهما. فحين يبقى الخيال في حدود الممكن عقليا لا تخرج القصة عن الواقعية.

3. العلم:

العلم هو المعرفة المنظمة التي تدور حول موضوع معيّن، وتقوم على منهج مقرر، وتؤدي إلى نتائج وقوانين متطابقة. ويطلق لفظ 'العلم' على العلوم الطبيعية التي تحتاج إلى مشاهدة واختبار، سواء كانت أساسية كالكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات، أم تطبيقية كالطب والهندسة والزراعة. وهذه اللفظة جديدة نسبيا لم تكتب لها السيادة قبل بداية القرن التاسع عشر على الرغم من الارهاصات الأولى التي ترجع الى القرن السادس عشر. ومهما يكن أمر العلم فإن الهدف منه هو فهم العالم وتعديله

وتذليله لخدمة الإنسان.

قصة الخيال العلمي : تعريفها

لقصة الخيال العلمي هناك العديد من التعاريف التي طرحها عدد من الناقدين والدارسين . لعل أهمها وأدقها هو ما طرحه الباحث الألماني 'الدكتور . ي. هنجر' و يقول فيه : " انّ قصة الخيال العلمي اصطلاح يطلق على ذلك النوع من الأدب القصصي الذي يعالج بكيفية خيالية مدروسة استجابة الإنسان لكافة ما يحيطه من تقدم وتطور في العلوم وتقنياتها"⁴.

طبيعة قصص الخيال العلمي :

قصة الخيال العلمي أدب وليست علما، هذه طبيعتها الرئيسية . ذلك أن كاتب هذه القصص لا يقدم لقرائه كتابا علميا بغية تغذيتهم بما يضمه من معارف علمية نظرية أو تطبيقية، بل يقدم لهم قصة أو رواية بغية إمتاعهم. ومن خلال هذا الإمتاع يزودهم

⁴ راجع مجلة الخيال العلمي- العدد السابع ص :23

بالمعارف العلمية. فعلى الكاتب أن يقوم بإعلاء الجانب الفني والتمسك به بما يعنيه من قدرة على رسم حوادث ومجتمعات تنفع القارئ وتمتعه وتأثر فيه. فإذا خسر فيه الكاتب تجافت كتاباته عن طبيعتها الفنية، وهذا التجافي يجعلها خطابا تقريريا أو وعظيا أو شيئا آخر يعوق تحقيق وظيفتها. أن توفر هذه الطبيعة تحتاج الى الموهبة القصصية وإلى الخبرة في الصوغ القصصي والمران عليه.

بيد أن الطبيعة الأدبية ليست خالصة في قصص الخيال العلمي بل هي مقيدة بالمضمون العلمي الذي يضمه الخطاب الأدبي . ومن ثم يحتاج القاص الموهوب ذو الخبرة و المران الى معرفة علمية غزيرة متماسكة دقيقة. ذلك أنه يتنبؤ بالمكتشفات والمخترعات العلمية التي يبدعها خياله. ولا بد من أن تستند نبوءاته الى الإنجازات العلمية في الحاضر لتبدو منطقية في التفكير العلمي ولتبتعد عن الخرافة.

وهذا يعني أن موهبة القاص وحدها لا تنفع في هذا اللون القصصي ، كما أن المعرفة العلمية لا تكفي وحدها فيه، بل يجب اجتماع الموهبة الأدبية والمعرفة العلمية في كاتب قصص الخيال العلمي ليتمكن من تقديم نصوص تجسد دلالات المصطلح دون أي خلل فيها.

هناك من يرى نوعا من التعارض بين اعتماد العلم على الحقائق الموضوعية والملاحظة والتجريب وانطلاق الخيال من الأحلام والأمانى والفضول الذهني الى حوادث ومجتمعات ليس لها شبيهه في الواقع. ولكن هذا التعارض تعارض شكلي وليس جوهريا، لأن الخيال يكمن وراء كل الاختراعات والاكتشافات العلمية كما أنه يكمن وراء الأعمال الفنية. في كلتي الحالتين الخيال يتميز بالقفز فوق الواقع ويرسم عوالم جديدة.

ومن الملاحظ أن قصة الخيال العلمي مهما تعلّق بالعلم فهي لا تستطيع التحرر من كونها في الأصل قصة ، بمعنى أنه لا بد من توفر عناصر القصة ابتداء من الحكاية والحادثة والشخصية والحبكة والصراع وغيرها. وإن هذه القصص إذا جاز أن تتعلق بالعلم التجريبي أو التطبيقي فلا يجوز أن تتحرر من العلم الانساني . فإنّ تعلق القصة

بالعلم التطبيقي وحده يفقدها صلتها بالإنسان من حيث هو كائن اجتماعي يأمل ويتألم ويعمل ويجرب ويشق طريق حياته بكل معطياتها.

أقسام الخيال العلمي

والخيال العلمي ينقسم الى أربعة أقسام رئيسية:

1 الاستشراف المستقبلي (الطوباوي – يوتوبيا / الكوابسي – دياستوبيا)

القصص/ الروايات المستقبلية هي نوع من أنواع القصص الخيال العلمي. وتصور هذه القصص شكل الحياة التي تكون في المستقبل وتكتشف من مآلات الفعل الإنساني في المستقبل في كافة مجالات الحياة والكون. وهذا النوع على قسمين. فالأول الطوباوية/ اليوتوبيا التي تصور فيها الكاتب العالم المثالي الذي يسود فيه الخير والعدل والسلام، والثاني الكوابسية/الديستوبيا والتي تصور فيها الكاتب العالم يملأ فيه الشر والظلم والفساد.

2 العوالم البديلة.

هذا النوع من الخيال العلمي تهتمّ بالبحث عن وجود حياة في كواكب أخرى وتصور فيها الأحداث المتخيلة محتملة الوقوع في أماكن الكون المتخيلة.

3 التاريخ البديل (يوكرونيا) (Alternative History)

هو فرع من الخيال العلمي يحتوي على أحداث تاريخية تقع بشكل مختلف عن الواقع، ويخمن فيه الكاتب كيفية مجرى التاريخ فيما لو تغيرت نتيجة حدث تاريخي معين.

4 غزو الفضاء (أوبيرا الفضاء) Space Opera

هو نوع من أنواع القصص الخيال العلمي تركز أحداثها حول حرب الفضاء والمغامرات المتعلقة بها. وتقع هذه الأحداث غالبا في الفضاء الخارجي وتكون في أكثر الأحيان على شكل صراعات بين قوى كونية تستخدم أسلحة وتقنيات متطورة.

أهمية الخيال العلمي و أهدافه

أدب الخيال العلمي هو نوع من المزج بين الأدب والعلم؛ فالأول قائم على الخيال والثاني قائم على التجربة واستقراء الواقع والانتهاى الى قوانين محددة ، أو هو نوع من التوفيق بين النشاط الخيالي والنشاط العلمي للانسان.

إنه الأدب الذي يخترق باطن الأرض ويغوص في أعماق البحار و يهزم المسافات بين الكواكب والنجوم في أنحاء الكون اللانهائية ويصل الفرد بماضيه وحاضره ومستقبله بل ويطلعه في تحد على ما يحيطه من غيبيات وظواهر مبهمة مثل الأحلام والتنبأ والرؤية عن بعد. وهذا الجنس الأدبي على الرغم من تنوع توجيهاته وتميز موضوعاته هو أحد أهم الوسائل المعينة للعقل على فهم العالم واستشراف المجهول منه وزيادة وعيه بذاته وبموقعه التاريخي والحضاري.

والتوقع والاحتمال أو مانطلق عليه "الحلم العلمي" هو جوهر الكتابة في مجالات هذا الأدب الذي يتنبأ بما هو آت ليحدّرنا منه أو ليزيد جرعة الأمل في مستقبل مشرق نقضي فيه على مشاكلنا و عثراتنا ونحلّ فيه معضلات حياتنا أو ليسخر من عجزنا وضعفنا وحيرتنا أمام عناصر الكون اللامتناهية وأسراره المتراكمة والتي كلما توصلنا لحلّ العديد منها فوجأنا أنّنا لم نلمس غير القشور وإنّما تبقى من أبواب مغلقة يحتاج دهوراً من البحث والفحص والدراسة.

ومن أهداف قصص الخيال العلمي :

- التنبأ عن أخطار التقدم العلمي و التقني في مجالات القتل و الدمار و الإبادة، و مشكلات تلوث البيئة و انتشار الآلة و ازدياد البطالة و انتشار الأمراض .
- و مناقشة موضوعات حيوية. على سبيل المثال - الجديد في الطب و العلاج و تعمير الصحارى الرملية واستغلال ثروات البحار والمحيطات، ومشكلة الطاقة ومشكلة الطعام وما مدى إمكانية استعمار الكواكب القريبة ومن ثم استغلالها لفائدة البشر.

- أن تثير القضايا بالغة الطرافة مثل ("هل توجد مخلوقات غيرنا بأنحاء الكون؟ ؛ وهل سيسيطر الانسان الآلي على صانعه البشري؟)
- و لعل من أهم أهدافه دفع الشعب العامي الى الاهتمام بالعلم والتقنية والأخذ بمنجزاتها وتفهم أسرارها و بث الوعي العلمي فيما بينهم.

أدب الخيال العلمي يشرح العلوم ويبسطها و يحث الملتقي على معايشة الأجواء العلمية؛ وبينما يحبب في العلوم فهو يحارب انحرافاتا ويكشف أخطار سوء استخداماتها.

هو قد ساهم مساهمة فعّالة في استمرار وتطور حضارتنا وأمامه ميدان مفتوح على مصراعيه لمزيد من تلك المساهمة.

فأدب الخيال العلمي هو أساس من الأسس المعروفة الوطيدة التي تساعد على تكوين العلماء وتشحذ طاقاتهم وتوجههم الى لحظات إبداعهم.

يبدو أنّ الخيال العلمي سبق العلم في ميادين عديدة . وعندنا غواصة جول فيرن⁵ التي جال و صال بها إلى أعماق البحر و رحلة ه.ج.ويلز⁶ التي قادت أبطاله للهبوط و السير على سطح القمر. والصندوق الذي ابتكره جورج ميليز⁷ لرؤية الأشياء عن بعد قبل اختراع تلفزيون بثمانين عاما، وقنبلة آتويل التي تبني بلدا بأكمله ، وقد تنبأ بأهوالها قبل اكتشاف القنبلة الذرية بخمسين عاما. ومن ذلك ما تخيله آرثر كلارك⁸

⁵ الكاتب الفرنسي جول فيرن Jules Verne الأب المؤسس لقصة الخيال العلمي، وقد كتب أول أعماله «خمسة أسابيع في منطاد» في فرنسا (1863)، ثم أتبعها بروايته «رحلة إلى جوف الأرض Journey to the Center of the Earth (1864)» وبعدها كتب روايته «من الأرض إلى القمر» (1865) التي تخيل فيها رحلة إلى القمر. ولكن هذا الخيال من الرواية تحقق بعد قرن وبالتحديد في 20 تموز 1969 إذ هبط أول إنسان على القمر.

⁶ يعد الكاتب الإنكليزي هربرت جورج ويلز H.G.Wells شكسبير الخيال العلمي، كما وصفه النقاد. وقد ولد ويلز في بروملي وهي ضاحية من ضواحي لندن عام 1866 وكتب أول رواياته العلمية الخيالية «آلة الزمن» The Time Machine عام 1895 وتعد أعظم روايات الخيال العلمي على الإطلاق

⁷ George Melies هو كاتب الخيال العلمي من فرنسا، و من أعماله : A Trip to the Moon , The Impossible Voyage

⁸ Arthur Clark هو كاتب انكليزي مشهور في الخيال العلمي و من أعماله 'رمال المريخ' Sands of Mars

من تواصل عبر الأقمار الصناعية منذ عام 1945 . و في عام 1946 تخيل اسحاق عظيموف⁹ فكرة الانسان الآلي¹⁰ قبل أن يصبح الإنسان الآلي حقيقة في الحياة اليومية. وفي عام 1988 اكتشف س.ج.شريه¹¹ امكانية الاستنساخ¹² قبل عشر سنوات من ولادة نعجة 'دولي'. وعشرات غيرها من أفكار وتصورات وتنبؤات كتاب الخيال العلمي ، قد أدت فيما بعد الى توجيه العلماء الى كشوفات نجني ثمارها اليوم. هكذا أن الخيال العلمي يفتح أبواب الاستكشاف.

كذلك فإن أدب الخيال العلمي هو أول من يتصدى لثورات العلم الكبرى ، تلك التي غيرت حياة الناس وقلبت كثيرا من الموازين الفكرية والاقتصادية والاجتماعية . كما حدث في القرن التاسع عشر حين قامت الثورة الصناعية الكبرى وذلك بالانتقال من العمل اليدوي الى العمل الآلي، وكذا قيام الثورة الذرية في الأربعينيات من القرن العشرين حين تم تحطيم الذرة ومعرفة أسرارها. فلما بلغنا الربع الأخير من القرن العشرين اندلع ما عرف بثورة الإلكترونيات والمعلومات.

والآن ان كتاب الخيال العلمي يستعدون و يتحفزون لمواكبة أخطر ثورتين علميتين يشهدهما القرن الحالي هما: 'ثورة الذكاء الاصطناعي' و'ثورة هندسة الوراثة' خاصة بعد اكتمال اكتشاف وضع الجينوم البشري ونجاح أشكال عدة للاستنساخ. وهما ثورتان قد تقلبان كافة مفاهيمنا عن الحياة وعن الوجود وعن شكل الأشياء على كوكبنا الجميل.

وفي هذا السياق من الأجدر أن نذكر قول القائل "العلم والأدب زوجان خائنات ولكن لا شئ في الكون يفوقهما جمالا حين يتفقان".¹³

⁹ يحتل إسحق عظيموف Isaac Asimov مكانة وثيقة بين كتاب الخيال العلمي لخياله الواسع ومعرفته العلمية الممتازة. وقد ولد في روسية عام 1920 وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الجنسية الأمريكية. ومن أعماله 'كهوف الفولاذ' Caves of Steel Robert¹⁰

¹¹ CJ Cherry هي كاتبة أمريكية في الخيال العلمي، و من أعمالها: Downbelow Station (1981), Cyteen(1988), Alliance-Union universe.

¹² Clonning

¹³ مجلة الخيال العلمي العدد الأول ، ص 54

الفصل الثاني

جذور قصة الخيال العلمي في الآداب القديمة

قصة الخيال العلمي جنس أدبي حديث عرفت بواكيره في الغرب منذ بداية القرن التاسع عشر. هو تعبير عن طموح الإنسان لتجاوز الزمان و المكان و عن قدرته على التنبأ و أمانيه في السيطرة على الطبيعة و قهر حالات الفقد و التخلف و ميله إلى التحول و التبديل و تطلعه لنيل الأمنيات صعبة المنال بواسطة الخيال الذي أنتج ما انتمى بداية إلى عالم المعجزات و انتحى نهاية إلى دنيا المنجزات. فإذا اعترفنا بهذا المفهوم للخيال العلمي الذي يرى فيه حالات وجدانية و تصورات وهمية، أساسها الجنوح و مآلها صلاح الإنسان والتعبير عن قدراته، الكامنة بدء و المنكشفة نهاية ، في امتلاك الكون باكتشاف قوانينه الخبيثة و تسخير عناصره النافرة و قهر ظروفه المستبدة المتحكمة؛ علينا أن نعترف أيضا أنّ بذور هذا الجنس الأدبي أو أنماطه المبكرة كانت موجودة منذ زمن سحيق، في الآداب القديمة، تمثلها الحكايات والأساطير والملاحم.

اختلف المؤرخون في وجهات نظرهم حول جذور هذا النوع من الأدب أو بدايته الحقيقية. ويمكن إجمال الآراء في ذلك الى ثلاثة: فالرأي الأول يقول بالأصل الديني لأدب الخيال العلمي والرأي الثاني يدّعي بالأصل الأسطوري والفتناري والثالث يقول بالأصل الطوبائي.

1. الأصل الديني:

فالذين يقولون بالجذر الديني لأدب النوع كثيرا ما يعودون إلى مصادر وكتب دينية تشبه نصوصها مع ما يرد عادة في قصص الخيال العلمي من وصف مدهش أو حدث رهيب. فقد يأخذ الناقد قطعة من كتاب ديني ليقارب بينه وبين قصة الخيال العلمي. ومن هذه الكتب مثلا كتاب 'الموتى' الفرعوني الذي يصف رحلة الإنسان الى الآخرة و'أي. تشانج' أو ما يعرف بكتاب التنبؤات الصيني . وأكثر ما يعتمد عليه النقاد في

هذا الباب هو سفر خرقيال من العهد القديم ووصفه لمركبة الرب، حيث يشتبه هذا النص بما يكتبه أدباء الخيال العلمي عن الأبطال الطائرة أو غزو الغرباء للأرض . ولم يقتصر الأمر في هذا الشأن على التوراة فقط، بل تعداه الى القرآن، حيث رأى محمد نجيب التلاوي في محاولة له لتأصيل أدب الخيال العلمي عربياً أن حكاية أهل الكهف سفر في الزمان وطوفان نوح يمثل فناء البشرية، أما الإسراء والمعراج فهو غزو الفضاء.

و لكن مثل هذه المقاربات غير مقبولة - في رأي الباحث - من حيث أنها لا تحتفظ للمصادر الدينية قدسيته وإكرامها، فلا يمكننا الموافقة في جعل القصص القرآنية مجرد حكايات خيالية.

2. الأصل الأسطوري:

القائل بهذا الرأي يعود بأدب الخيال العلمي الى قرون قديمة ، ليتخذ من الأسطورة بذرة لأدب النوع. فهي إن كانت تؤدي أغراضاً روحية واجتماعية، فإنها بالمقابل تعد نمطاً علمياً من التفكير كما يذهب الى ذلك نهاد شريف. "إن جذور الخيال العلمي أو لوقنا أنماطه المبكرة إنما كانت نوعاً من الأساطير ، على أن هذه الأساطير لم تكن مجرد خيالات وأوهام ، وإنما عدت محاولات جادة من المجتمعات الانسانية القديمة تفسر بها وتقيس عليها ظواهر الحياة و الطبيعة والكون أي أن الأسطورة كانت نمطاً من التفكير العلمي لدى الإنسان القديم أدت اليه عوامل الرهبة عن المجهول الى جانب النزعة الملحة الى المعرفة".¹⁴

فيقول صلاح معاطي بهذا الصدد : "ترجع اصول الخيال العلمي الى العصور القديمة . فإذا عدنا بأذهاننا الى الماضي البعيد لاكتشفنا أن ما نطلق عليه اسم 'الخيال العلمي' تمتد جذوره الأولى الى الأساطير والفلكلور القديمة... على سبيل المثال أن أشعة ليزر التي تزخر بها روايات الخيال العلمي نجدها في جميع الأساطير القديمة على شكل

¹⁴ نهاد شريف ، عطاء العربي لأدب الخيال العلمي، مجلة الخيال العلمي العدد الثاني عشر، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ص 7

آلهة تطلق البرق و وحوش تومض عيونها بأشعة غريبة تحرق كل من يتعرض لها...¹⁵

و قد تفاوت القائلون بالأصل الأسطوري لأدب النوع في عودتهم الى الماضي. فمنهم من عاد الى أسطورة 'جلجميش'¹⁶ و تساؤلاته عن مصير الحياة و الموت و بعضهم الى حكايات 'الف ليلة و ليلة'. و كثير منهم جعلوا من لوسيان الإغريقي في 'القصة الحقيقية' (أو 'التاريخ الصحيح' أو 'مغامرة طويلة') نقطة البداية. كل الشعوب لديها كم هائل من أساطيرها القديمة التي كان ينسجها الانسان عن مخلوقات قادرة على التحول و التجسد ، وهي تحاكي البشر و تختلط بهم و تشاركهم في مغامراتهم الساحرة .

في هذه الأساطير نجد كما هائلا من العناصر لما نسميه الآن بمصطلح الخيال العلمي. وعلى سبيل المثال 'الخيماء' نجد الإشارة عنها في أكثر من الأسطورة. الخيماء هي شكل بدائي من أشكال الكيمياء يمتزج فيه العلم بالسحر و الفلسفة، يهدف إطالة عمر الإنسان و تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة. و 'آلة الزمن' هي مصطلح شائع في كتابات الخيال العلمي الحديثة، و ليست إلا صياغة جديدة لعقيدة التناسخ التي تقول بأن الأرواح تنتقل من جسد لجسد و من عصر الى عصر.

و نجد تجليات من تجليات أدب الخيال العلمي في غير كتاب من الكتب العربية . وقد ورد في كتاب 'الكامل' للمبرد نص من تكاذيب العرب جاء فيه: "تكاذب أعرابيان. فقال أحدهما خرجت مرة على فرس لي، فإذا أنا بظلمة شديدة، فيممتها حتى وصلت اليها. فإذا قطعة من الليل لم تنتبه. فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها فانجابت. فقال الآخر : قد رميت ظبيا مرة بسهم ، فعدل الظبي يمنا فعدل السهم خلفه فتياسر

¹⁵ صلاح معاطي، تجربتي مع أدب الخيال العلمي، مجلة الخيال العلمي العدد الأول، زوارة الثقافة السورية، دمشق، ص 149

¹⁶ Epic of Gilgamesh ملحمة مشهورة عالميا تبين قصة رحلة البطل جلجميش الى حيث جده 'أتونيشتم' عند فم النهر، هناك من يرى هذه الرحلة حقيقة لا خيالا فهي تمثل خطوة من خطوات اكتشاف أمريكا تمت قبل كريستفاس كولامبس

الطبي، فتياسر السهم خلفه ثم علا الطبي فعلا السهم خلفه فانحدر فانحدر السهم عليه حتى أخذه.¹⁷

فانجياب الظلمة الذي حققه الفارس الأول ، في الأكذوبة الأولى يجسد حلم الإنسان في الغلبة على العتمة والظلام وحلم تحقق باختراع الكهرباء في القرن العشرين، و إنّ فرس هذا الفارس كان صنوا للمصباح الكهربائي.

فقتل الطبي بسهم الفارس، في الأكذوبة الأولى، يجسد حلم الإنسان في تحقيق الإصابة للهدف بدقة في الصيد والحرب معا. و هو حلم تحقق باختراع الصواريخ الحرارية التي تطلق نحو الهدف. فسهم الفارس الثاني هو صنو للصاروخ الحراري.

فركوب البساط السحري ، الذي نجده في السير الشعبية ، يمثل تجسيدا لطموح الإنسان في تسهيل انتقاله من مكان إلى مكان،. بيد أنّ أحلام البشر في اختراق المسافات وتبديل الأمكنة يقتصر على الانتقال من هنا الى هناك، بل تجاوزت ذلك الى الحلم بالانتقال من هناك الى هنا، فإن يثبت الإنسان في مكانه و تأتي اليه الأمكنة الأخرى، فيعرف مايدور فيها . وقد تمثل هذا الطموح بواسطة ما يسمى بصندوق التواجد. فيمكننا أن نرى هذا الصندوق نظيرا خياليا للتلفاز.

هكذا أن بعض الصور التكنولوجية المحققة اليوم، وجدت على نحو من الأنحاء، في الأساطير المنبثقة عن أحلام الناس ومخاوفهم وطموحاتهم.

3. الأصل الطوبائي :

تصور الطوبائيات عادة المدينة أو المجتمع المثالي الذي علم به الفنّان و يرى أنّه المكان الذي يحقق فيه آماله و يكون منزها من كل الأحوال السيئة المشوهة للعالم الواقعي الذي يعيش فيه. فالمدينة الفاضلة بهذا المعنى تمنح مواطنيها كافة أسباب السعادة والعيش الرغيد عن طريق الشرائع والقوانين التي يسنّها مؤلف المدينة الفاضلة.

ومن أشهر الكتابات القديمة في هذا المجال كتاب 'الجمهورية' للفيلسوف الإغريقي الشهير أفلاطون، حيث قرر على لسان سقراط مبادئ الجمهورية الفاضلة الكاملة

¹⁷ محمد بن يزيد المبرد، كتاب الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2013، ج:2، ص: 148

وحدّد شرائعها التي تكفل لها القوة والسعادة. ومع أنّ أرسطو قد سبق أفلاطون إلى وصف الجمهورية الفاضلة في مقالات له في كتاب 'السياسة'، فإنّ عمل أفلاطون كان الأبرز والأشهر لأنّ جمهوريته كانت متكاملة من النواحي السياسية والاجتماعية والتربوية والدينية.

أمّا في التراث العربي فكان أبو نصر محمد الفارابي قد عرض في كتابه 'آراء أهل المدينة الفاضلة' للشروط التي ينبغي أن تقوم عليها الدولة حتّى تحظى بسعادة الدارين، وتطرق إلى الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الحاكم الكامل. ولم يغفل الفارابي أهمية انتهاج الرعاية للسنة التي تقودهم إلى مدراج الفلاح. كما قدّم ابن طفيل في 'حي بن يقظان' أنموذجا مختلفا من الطوبائية التي تتناول الفرد المثالي بعيدا عن الدساتير السياسية والحياة الاجتماعية، إذ أن الكتاب وضع لغاية دينية فلسفية ذات مسحة صوفية.

وقد جعل الناقد محمد نجيب التلاوي من هذين الأثرين العظيمين نقطة البداية لانطلاقة أدب الخيال العلمي في أدبنا العربي في تناوله للمدن الخيالية الفاضلة. فقال: "إنّ رسم المجتمع المثالي القائم على المنظور الإسلامي فكرة نبتت في تراثنا العربي عند الفارابي في مدينته الفاضلة وابن طفيل في 'حي بن يقظان' و امتدت عند الأدباء في عصرنا الحديث، حيث تشكلت في قوالب الخيال العلمي عند توفيق الحكيم في 'سنة مليون' و صبري موسى في 'السيد من حقل السبانج'.¹⁸

ولكن في الحقيقة ان الطوبائيات العربية الحديثة المشار إليها قد استمدت أغلب موضوعاتها وأفكارها من طوبائيات أجنبية حديثة.

وأما في الغرب فقد كان الكاتب والسياسي الانجليزي توماس مور من أشهر الخلفاء لأفلاطون لتأكيد مبدأ الشيوعية في يوتوبيا. ثم تلاه سلسلة من المبدعين الغربيين في هذا المجال مثل فرنسس بيكن في 'أتلانتس الجديدة'. الطوبائيات الغربية الحديثة كانت قريبة نسبيا من الطوبائيات القديمة في الطرح و الأسلوب. إلا أنها بدأ تنفصل عنها تدريجيا حتى استقلت عنها بنفسها في القرن التاسع عشر مستفيدة من الثورة

¹⁸ محمد نجيب التلاوي، قصص الخيال العلمي في الأدب العربي، دار المتنبّي، لبنان، 1990، ص: 41

الصناعية الأوربية. وأما الروائيون العرب المحدثون فقد تناولوا موضوع المدينة الفاضلة بأسلوب حديث متأثرين في ذلك بزملائهم الغربيين.

الأعمال المبكرة في الخيال العلمي :

1. ملحمة جلجميش

هي قصة بطل اسمه جلجميش ، ثلثته من الآلهة و ثلثه من البشر. و قد طمح للغلبة على الفناء بعد ما عاين موت صديقه 'انكيديو' لذا ارتحل إلى مكان يدعى 'فم الأنهار' حيث قيل له أن جده 'أتونبشتوم' يملك العشبة التي تورث الخلود، و لا موت للمرء بعد أن يتناولها. ولكن هذا البطل ذا القدرات الخارقة، الذي حصل على تلك العشبة، غلبه النعاس ذات لحظة. فسرقت منها الحية تلك العشبة. وعندئذ ينس من الخلود الجسدي مستنتجا أن الخلود وهم من الأوهام. الشأن الذي يثبت أن الخيال العلمي الذي تنتمي إليه تلك الملحمة يناوش الفلسفة و يتصل بتاريخ العلم. و هناك من يرى هذه النقلة حقيقة لا خيالاً ؛ فهي تمثل خطوة من خطوات اكتشاف أمريكا تمت قبل 'كريستفاس كولمبس' بقرون عديدة.

2. القصة الحقيقية :

هو كتاب كتبها لوقيانوس السميساطي¹⁹ و فيه يتحدث عن رحلة له مع عدد من الأصدقاء الى المحيط الهسبري أو الأطلسي، وكيف دفعت بهم العواصف خلال 79 يوماً الى جزيرة الكرمة البشرية، ثم صعدوا الى القمر و حاربوا أهل الشمس، وأقاموا بطن الحوت و تزودوا بالماء من جزيرة الأجبان و هذه أحداث وقع تناسخها في بعض المصادر العربية مثل ألف ليلة و ليلة و'فريدة الغرائب' لابن الوردي و'عجائب المخلوقات' للقزويني، وسيرة سيف بن ذي يزن .

¹⁹ هو لوقيانوس السميساطي ، الأديب السوري الذي ولد و تربى في سميساط في منطقة الفرات الاعلى . و عاش في ظل سيطرة الامبراطورية الرومانية على المنطقة، عاش ما بين 125 – 192 ميلادية.

3. ألف ليلة و ليلة :

إن أدب الخيال العلمي منذ بدايته الأولى و حتى يومنا الحالي، إنما هو تعبير عن الأحلام البشرية ومخاوفها من المجهول وبعدهن من التقدم العلمي في شتى صورته. وفي كتاب ألف ليلة و ليلة عديد من الأمثلة لهذه الأحلام والمخاوف... في حكايات الجن والعفاريت والحسان الطائر والبساط السحري وبلورة الرؤيا وطاقية الإخفاء و مصباح علاء الدين... و ما يشمل عليه ذلك كله من خوارق وتحد للمؤلف في الطبيعة. و أيضا كوصف لكثير من التراكيب شبه الكيمائية لمحاليل تجلب الحب أو تولد الكره ، و أخرى تؤدي الى الموت الظاهري ... وهكذا. و في قصة عبد الله البحري و عبد الله البري - و هي من قصص ألف ليلة و ليلة - نجد وصفا أخاذا لمملكة البحار ... وما يزخر به قاع البحر من مخلوقات وعجائب. فيها اقتراب لا بأس به من حقائق علمية عرفناها مؤخرا لما كان مجهولا آنذاك عن قاع البحر وعن أعماقه ومستوياته الحافلة بالأسرار.

رواد الخيال العلمي الأوائل :

1. لوقيانوس السوري:

هو لوقيانوس الشميشاطي ، الأديب السوري. ولد و تربى في شميشاط في منطقة الفرات الأعلى . وعاش في ظل سيطرة الامبراطورية الرومانية على المنطقة. عاش ما بين 125- 192 م . أسند اليه في السنوات الأخيرة من عمره منصب المستشار القضائي للوالي الروماني في مصر. و بقي في هذا المنصب حتى مماته. ترك عشر مؤلفات ، فضلا عن كتابه 'القصة الحقيقية' الذي يصف فيه رحلة الى القمر و كتاب رسائل من زحل، الّذان جعلاه من رواد الخيال العلمي في التاريخ.

2. أبو نصر محمد الفارابي :

هو فيلسوف عربي كتب في القرن الحادي عشر الميلادي، مؤلفه العظيم 'آراء أهل المدينة الفاضلة'. وهو فلسفة رفيعة صوّربها دولة مثلى تحقّق السعادة والرفاهية لشعبها وتمحو الشرور بينهم. والمؤلف يقوم أساسا على علم ومنطق سليمان.

3. أبو بكر محمد بن طفيل :

الفيلسوف والطبيب والفلكي والأديب والشاعر العربي والمفكر الموسوعي. ألف في القرن الثاني عشر الميلادي كتابه 'رسالة حي بن يقضان' وهي قصة فلسفية لحياة غلام أَرْضَعته ظبية وعاش وحيدا في جزيرة نائية وظلّ ينتقل في تدرج عبر سلّم المعرفة حتى اهتدى بذكائه وخطرته ودقّة ملاحظته إلى الإيمان بالله مصدر الوجود كلّهُ.

4. توماس مور :

محام و مفكر إنجليزي كتب مؤلّفه 'يوتوبيا' وعاش في القرن السادس عشر، متوليا أرفع المناصب حتى أصبح كبيرا لأمناء الملك هنري الثامن. لكن رفضه الاعتراف بشرعية زواج الملك من آن بولين أدّى الى اعدامه.

5. بوهانس كيبلر:

فلكي ألماني ألف في القرن السابع عشر 'سومونيون' : هي قصة رحلة الى القمر، تعد أكثر ذكاء في وصف القمر.

6. فرنسيس بيكون :

فيلسوف إنجليزي كتب في القرن السابع عشر قصته 'أطلانتس الجديدة' و تحدث فيها عن مجتمع قارة أطلانتس الغارقة.

7. روبرت بالتوك :

روائي إنجليزي كتب في القرن الثامن عشر الميلادي روايته 'بيتر ويلكنز' وقام فيها برحلة إلى أعماق أحد الكهوف والانتقال من خلاله الى عالم باطن الأرض الحافل بأناسه الطائرين

8. نيل كلیم :

مفكر نرويجي كتب في القرن الثامن عشر روايته 'رحلة نيل الى عالم ما تحت الأرض' والتي نالت شهرة واسعة وطبعت أكثر من 60 طبعة وترجمت إلى 13 لغة. وقد وصف فيها عالم جوف كوكبنا الأرض بكائناته الشبيهة بالبشر وحيواناته وطبيعته القاسية رغم جمالها.

9. دانيال ديفو:

كاتب انجليزي أَلّف في القرن الثامن عشر قصة روبنسن كروزو، وقد جاءت ومثلها
قصص طرزان على نمط رسالة حي بن يقضان لابن طفيل.

الفصل الثالث

قصة الخيال العلمي في الأدب العالمية الحديثة

إنّ بذور قصة الخيال العلمي قد وجدت قديماً في الحكايات الشعبية، والخرافات العجيبة، واليوتوبيات الخيالية، والروايات السوداء، - كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق - إلا أن اللذين يُعدان مؤسسي قصة الخيال العلمي - كجنس أدبي بمفهومه الحديث- هما الفرنسي: جول فيرن²⁰، والإنكليزي هـ. ج. ويلز²¹.

ويبدأ الباحث بعرض نشأة هذا النوع الأدبي الجديد في آداب العالمية الحديثة - في كل من فرنسا، وإنكلترا، ثم الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي. ويليه بيان موجز عن حضور قصة الخيال العلمي في اللغات الهندية.

قصة الخيال العلمي في الأدب الفرنسي:

على الرغم من أن بذور هذا النوع الأدبي قد ظهرت في الأدب الفرنسي، قبل 'جول فيرن'، لدى 'روسيني'²² الذي وضع رواية 'كزيبهوس'²³ عام 1888، ووضع فيها تدخلات من خارج الكرة الأرضية، ثم وضع روايته: موت الأرض (1912)، والقوة الغامضة (1912)، وهما من الخيال العلمي، وتحدثان عن اختفاء الإنسان، وحلول الحديديين المغناطيسيين محله، فإن جول فيرن (1828 - 1905) يُعد رائد أدب الخيال العلمي الفرنسي، فقد أعاد إلى الأذهان أساطير قديمة مثل (قارة الأطلنطيس) المفقودة تحت مياه المحيطات، كما كتب عن حلم الإنسان في الطيران، مستفيداً ما توصل إليه العلم في عصره، فأصدر عام (1863) رواية (خمسة أسابيع في منطاد)، وهي أولى الرحلات العلمية الخارقة، وفي العام التالي وضع روايته (من الأرض إلى القمر)،

²⁰ جول غابرييل فيرن (Jules Verne) (1828 - 1905)، روائي فرنسي، وشاعر، وكاتب

سرحي اشتهر بروايات المغامرة وله الأثر العميق في أدب الخيال العلمي.

²¹ هربرت جورج ويلز H. G. Wells (1866 - 1946)، روائي وكاتب قصص قصيرة بريطاني. من أشهر أعماله آلة الزمن، الرجل الخفي، جزيرة الدكتور مورو، حرب العوالم وأوائل الرجال على القمر.

²² ج. أنش روسيني، (J.H. Rosny) (1856-1940)، كاتب فرنسي

²³ Les Xipéhuz

ثم (عشرون ألف فرسخ تحت الماء)، فـ (الجزيرة العجيبة)، فـ (حول العالم في ثمانين يوماً)، فـ (يوميات صحفي أمريكي في عام 2890)

في روايته (من الأرض إلى القمر) يصف فيرن مغامرة في الفضاء قام بها نفر من أعضاء نادي (بالتييمور) الاجتماعي. ومعظمهم من الضباط المتقاعدين الذين ضاقوا بالسلام واشتاقوا إلى الحرب، فامتطى ثلاثة منهم قذيفة انطلقت بهم إلى المجهول، وانتهت الرواية عند هذا الحد.

وجديده - آنذاك - هو أنه جعل الرحلة إلى القمر بوساطة قذيفة مدفع عملاق، انطلقت من الأرض إلى القمر، متأثراً في ذلك بأحداث الحرب الأهلية الأمريكية، ولم تكن الصواريخ والمركبات الفضائية قد عرفت بعد.

وعندما تساءل قراء (فيرن) عن مصير القذيفة التي أطلقها نحو القمر، قام الكاتب باستكمال أحداثها في رواية أخرى مستقلة أسماها (حول القمر) 1870 أشار فيها إلى أن القذيفة قد دخلت منطقة انعدام الوزن، فانحرفت الكبسولة بسبب ذلك عن مسارها، وبدلاً من أن تهبط فوق سطح القمر، فإن قمراً آخر قام بجذبها إليه، ولكنها استطاعت التخلص من جاذبيته بصعوبة، فعادت إلى الأرض، وسقطت في المحيط الهادي، وانتشلتها إحدى السفن التابعة للأسطول الأمريكي. وعندما فتح البحارة الكبسولة وجدوا ملاحى الفضاء يلعبون الورق.

وأهمية (فيرن) لا تقتصر على تخيل مركبة الفضاء التي ستهبط على سطح القمر فقط، وإنما في تخيل إمكان اختراع الإنسان لطائرات الهليكوبتر، واكتشاف الغواصات للقطين الشمالي والجنوبي، وللمناطيد، وري الصحراء، وبناء ناطحات السحاب، والتلفزيون، وكل ما نراه اليوم ولم يكن معروفاً في عصره.²⁴

وفي روايته (عشرون ألف فرسخ تحت البحار) يخترع العالم (فلتون Fulton) عام 1800 غواصة امتلكها الكاتب (نيمو)، وهو أحد العلماء الذين جعلوا البحار

²⁴ ميشيل ت كلا، كائنات العوالم الأخرى، القاهرة، دار الهلال للطباعة، 1975، ص 53

مساكنهم، فاعتزلوا العالم بشروره، وعاشوا في هذه الغواصة التي لا تطفو على سطح الماء إلا من أجل التزود بالأكسجين، أو لمهاجمة السفن العابرة.

وقد حطمت الغواصة سفينة العالم (أروناكس) الذي ظنها وحشاً بحرياً، فإذا هي جسم حديدي، وتتعدّد صداقة بين (نيمو) والعالم (أروناكس)، ويقومان برحلة تحت البحار، بواسطة الغواصة التي تبحر بهما إلى المحيط الهادي، فالبحر الأحمر عن طريق قناة السويس التي افتتحت حديثاً، فالمحيط الهندي، حيث اكتشف (نيمو) وجود قارة (الاطلنطيد) الغارقة تحت البحار، ووجدوا عملاقاً بشرياً يقود قطعاً من الثدييات، فرجع (أكسل) بذاكرته إلى ملايين السنين، قبل ظهور الإنسان والكائنات الحية. ثم تظهر الثدييات، فالطيور، فالزواحف، فالأسماك والقشريات والحيوانات الرخوة، ثم ترتفع النباتات والأشجار إلى أطوال عملاقة وتمر القرون وكأنها سنون.

ولكن النباتات تختفي، وتصبح الصخور لينة، وتتصهر المواد الصلبة، وتتحوّل إلى سوائل، تحت وطأة الحرارة الشديدة، وتندفع السوائل التي تغلي إلى سطح الأرض وكأنها سائل البراكين، ويحيط البحار بالكرة الأرضية التي تتحوّل تدريجياً إلى كتلة من الغاز بحجم الشمس وفي مثل تألقها !!.

وقد استكمل (فيرن) رحلة الكابتن (نيمو) في رواية تالية دعاها (الجزيرة العجيبة) روى فيها قصة هروب مجموعة من المساجين السياسيين خلال الحرب الأهلية، بواسطة منطاد، تحطم بهم فوق إحدى جزر المحيط الهادي، فأقاموا فيها، وعاشوا حياة بدائية أشبه بحياة روبرنسون كروزو، واستطاعوا خلق الحضارة من جديد.

ثم ظهر (نيمو) أميراً هندياً يقاوم الاستعمار الانكليزي للهند، وينتقم من الانكليز بتدمير سفنهم العائمة في البحار والمحيطات بواسطة غواصته.

وفي روايته (حول العالم في ثمانين يوماً) يصف (فيرن) رحلة قام بها (فوج) (Fogg) نتيجة رهان بين أعضاء نادي الإصلاح الذي كان (فوج) ينتمي إليه، حول إمكانية

الطواف حول العالم في ثمانين يوماً. وقد كانت الفكرة مستحيلة آنذاك، قبل اختراع الطائرات، وتطور السكك الحديدية ووسائل النقل البرية.

وقد راهن (فوج) على أنه يستطيع القيام بهذه الرحلة خلال المدة المحددة، مقابل مبلغ ضخم من المال، وكثرت المراهنات على نجاحه وإخفاقه، حتى لقد تكونت شركة مالية أصدرت أسهما للبيع سميت (أسهم رحلة حول العالم في ثمانين يوماً)، وكانت قيمة السهم شلناً واحداً، فإذا نجح (فوج) أصبح لحامل السهم الحق في إعادته إلى الشركة مقابل جنيه كامل، وإذا أخفق فإن السهم يفقد قيمته المالية.

ويغادر (فوج) لندن عام (1872) إلى باريس، فالسويس، فيومباي، فهونغ كونغ، فيوكوهاما، فسان فرانسيسكو، عائداً إلى لندن، بعد واحد وثمانين يوماً، بعد مغامرات عديدة عنيفة فائزا بالمبلغ المالي الضخم، وبمركز اجتماعي مرموق، وبامرأة جميلة كان قد التقاها أثناء رحلته الشاقة.

وفي روايته (يوميات صحفي أمريكي عام 2890) يصف (جول فيرن) شوارع مدينة نيويورك وقد اتسعت ليبلغ عرضها أكثر من مئة ياردة، وارتفاع مبانيها أكثر من ألف قدم، وأصبح الناس يتحكمون بالطقس، ويزرعون الخضار في القطب الشمالي، وتعلن الحوانيت عن بضائعها بعبارات مكتوبة على السحب.

و(البطل) في هذه الرواية صحفي يعمل في صحيفة توزع يومياً ثمانين مليون نسخة، ويبعث مراسلوها أخبارهم بالتليفزيون، ويمكن للجالسين في بيوتهم أن يشاهدوا كل أحداث العالم.

وقد تحققت هذه النبوءات اليوم، بعد مئة عام، فارتفعت ناطحات السحاب في نيويورك إلى أكثر من مائة طابق، وزرع الناس في العالم الخضار في غير أوانها، في بيوت بلاستيكية، وبوساطة (التليفاكس) يبعث الصحفي والتاجر مايريدان من صور وأخبار إلى جميع أنحاء العالم، فتصل في لحظات، ويشاهد المرء، وهو مضطجع على أريكته في بيته كل أخبار العالم بوساطة التليفزيون.

وهكذا أسس جول فيرن لهذا النوع من أدب الخيال العلمي في الأدب الفرنسي الحديث.

قصة الخيال العلمي في الأدب الإنجليزي:

يعد هيربرت جورج ويلز مؤسس أدب الخيال العلمي في الأدب الانكليزي الحديث، على الرغم من أن بذور هذا النوع الأدبي ظهرت في الأدب الانكليزي لدى 'جوناثان سويفت'،²⁵ (1667 - 1745) الكاتب الانكليزي الساخر الذي أبدع أشهر كتبه على الإطلاق: 'رحلات غوليفر'،²⁶ (1726) فترجمت إلى معظم لغات العالم.

كما وضعت ماري شيللي²⁷ أشهر شخصية رعب في القرن العشرين 'فرانكنشتاين' عام 1918، ووضع ألدوس هكسلي²⁸ روايته 'عالم جديد وشجاع'. كذلك كان آرثر كلارك²⁹ قد تفوق في دراسة العلوم، ونجح في صنع هاتف آلي يعمل بالضوء بدلاً من السلك، وقدم أبحاثاً عن إنشاء محطات في الفضاء الخارجي، وبناء الأقمار الصناعية للاتصالات والبث الإذاعي، فذاعت شهرته كباحث جاد وكاتب مبدع في أدب الخيال العلمي. ومن أشهر رواياته: (الممر) التي تحولت إلى فيلم سينمائي بعنوان (أوديسا الفضاء 2001)، وبعد عشرة أعوام قدم تكملة لهذه الرواية باسم (أوديسا الفضاء 2010) تحولت أيضا إلى فيلم سينمائي، ثم (أوديسا الفضاء 2061) التي تحولت أيضا إلى فيلم سينمائي، وله روايات: رمال المريخ، وجزر في السماء، والجانب الآخر من السماء، وتقدير عن الكوكب 3، وحكايات العوالم العشرة. وكلها في غزو الفضاء، والكواكب الأخرى.

²⁵ جوناثان سويفت (Jonathan Swift) ، (1667 - 1745) مؤلف كتيبات سياسية أنجلو- إيرلندي هجاء (لحزب الأحرار البريطاني أولاً، ثم لحزب المحافظين)، وشاعر ورجل دين، أصبح لاحقاً عميداً لكاتدرائية سانت باتريك، دبلن.

²⁶ Gulliver's Travels

²⁷ ماري وولستونكرافت شيلي Mary Shelley (1797 - 1851) هي الكاتبة الإنجليزية مبدعة شخصية فرانكنشتاين

²⁸ ألدوس هكسلي (Aldous Huxley) (1894 - 1963) هو كاتب إنجليزي اشتهر بكتابة الروايات والقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام.

²⁹ السير آرثر تشارلز كلارك (Arthur C. Clarke) (1917 - 2008)، كاتب خيال علمي بريطاني وكاتب علمي ومستقبلي، مخترع ومستكشف للبحار، ومضيف لسلسلة تلفزيونية.

كذلك وضع كونان دويل³⁰ مبتدع شخصية 'شرلوك هولمز' مفتش البوليس السري الذي يكتشف أخطر الجرائم، رواية 'العالم المفقود' (1912) التي أعاد فيها اكتشاف قارة 'الأطلنطيد' المغمورة مياه المحيطات، و'الحزام المسموم' (1913) التي تشهد تهديد سكان الأرض من قبل كائنات العوالم الأخرى. كذلك وضع جورج أورويل³¹ رواية (1984) في عام (1998) وفيها يصف استبداد الدولة الديكتاتورية التي تحصي على المواطن حركاته وأنفاسه، من خلال كاميرات مراقبة مبنوثة ترصده في كل مكان : في الشارع، والبيت، والعمل، وحتى في دورات المياه.

وأما ويلز فقد وضع عدداً كبيراً من روايات أدب الخيال العلمي: آلة الزمن (1890)، وجزيرة الدكتور مورو (1898)، وحرب العوالم (1898) وشكل الأشياء القادمة، وأوائل الرجال على سطح القمر (1901) ... إلخ.

وتصور روايته 'أول إنسان على سطح القمر' نزول رجلين فوق سطح القمر، مع نهاية القرن التاسع . وقد قتل 'البطل' كثيراً من كائنات القمر على الرغم من أن لهم حضارتهم المتقدمة في جوف القمر، وعلى شواطئ بحاره.

ويفتقد الرائدان (كافور، وبدفورد) مركبتهما الفضائية، وعندما يعثر عليها (بدفورد) يمتطيها ويعود إلى الأرض، تاركاً (كافور) الذي يحاول أن يتعلم لغة سكان أهل القمر، ويبعث بإشارات لاسلكية إلى سكان الأرض، يعلمهم فيها أن أهل القمر يعيشون حياة أكثر رقياً وتطوراً من حياة سكان الأرض، فعالم القمر قائم على نظام دقيق هو أقرب إلى يوتوبيا (جمهورية أفلاطون): فهناك طبقة العلماء والمتقنين وعلى رأسها (المتقف الأعظم)، وهناك طبقة العمال (أيدي الإله) والشرطة، وطبقة اجتماعية دنيا.

³⁰ السير آرثر إغناطيوس كونان دويل A C Doyle 1859 - 1930 طبيب اسكتلندي وكاتب مشهور بتأليفه لقصص المحقق شرلوك هولمز التي تعد معلماً بارزاً في الأدب البوليسي، وأيضاً بابتكاره لشخصية البروفيسور تشالنجر وإشاعته قضية باخرة ماري سليست الغامضة. كتاباته كانت غزيرة تضمنت قصص الفنتازيا وقصص الخيال العلمي والمسرحيات، وروايات رومانسية وواقعية وتاريخية.

³¹ إريك آرثر بلير Eric Arthur Blair هو الاسم الحقيقي لجورج أورويل (George Orwell) (1903 - 1950) وهو الاسم المستعار له والذي اشتهر. هو صحفي وروائي بريطاني

أما روايته 'آلة الزمن' فتروي حكاية رجل استطاع أن يخترع جهازاً يتمكن بواسطته من الرحيل عبر الزمن، في الماضي والمستقبل، فينتقل من القرن التاسع عشر الذي يعيش فيه إلى عام 2701 ليرى العالم وقد انقسم إلى نوعين: الأول يسمى (Eloi) يعيش فوق سطح الأرض، والثاني (Morlocks) ويعيش تحت سطح الأرض نهاراً، فإذا حلّ الليل خرجوا إلى سطحها لافتراس النوع الأول.

ولم يقتصر نشاط الخيال العلمي عند 'ويلز' على غزو الكواكب ومركبات الفضاء، وإنما امتد إلى الحقل البيولوجي أيضاً، ففي روايته 'جزيرة الدكتور مونرو' يقيم الدكتور 'مونرو' في جزيرة معزولة، يضع فيها قانونه بنفسه، ويطبقه على مجموعة من المخلوقات المشوهة، والحيوانات المفترسة التي ليس عليها سوى الطاعة العمياء لأوامره، وقد كانت هذه المخلوقات في الأصل - أناساً أصحاء، حولهم الدكتور (مونرو) إلى مجموعة من الكائنات الممسوخة التي تتحرك وتفكر بأسلوب الحيوانات، وإن أنكرت عن نفسها هذه الصفات.

وهكذا يعيش الدكتور (مونرو) في جزيرته المنعزلة، كما كان يعيش 'فرانكنشتاين' في قصره البعيد، ليمارس فيه إجراء التغييرات على البشر.

ولكن البشر الممسوخين يثورون في النهاية على وضعهم غير الإنساني، فيقتلون الدكتور 'مونرو'، ويطلقون الحيوانات المتوحشة التي تفتك بهم.

قصة الخيال العلمي في الأدب الأمريكي:

لعل بذور الخيال العلمي الأمريكي وجدت في الروايات السوداء وروايات الرعب والأشباح التي كتبها إدغار آلن بو³² الذي جعل أحداثها تجري في الخرائب والقلع القديمة، والأماكن المهجورة.

³² إدغار آلن بو (Edgar Allan Poe) (1809 - 1849) وهو ناقد أدبي أمريكي مؤلف، وشاعر، ومحرر، ويعتبر جزءاً من الحركة الرومانسية الأمريكية.

أما رواية الخيال العلمي الحقيقية فلعل 'إدوارد بيلامي'،³³ هو واضعها في الأدب الأمريكي الحديث، وعلى الخصوص في روايته 'نظرة إلى الوراثة' (1888) التي يصف فيها العالم كما تخيله عام (2000)، ثم جاء الكاتب الأمريكي 'إلمر رايس'،³⁴ فاهتم بجانب آخر من الخيال العلمي هو العقول الإلكترونية 'الرابوط'، حيث وضع رواية 'الآلة الحاسبة' عام (1923).

أما رائد أدب الخيال العلمي في الأدب الأمريكي بحق فهو 'إدغار رايس بوروز'،³⁵ مبتدع شخصية 'طرزان'، وقد اختص بأدب غزو الكواكب والفضاء، فوضع رواياته: تحت قمر المريخ (1912)، وهي مغامرات مريخية يقوم بها كائن بشري واحد، يعيش ويموت ميات عديدة، ويتلون بتقمصات مختلفة، ولكنه يعيش إلى ما لانهاية. وأميرة المريخ (1917). والعقل الموجه في المريخ (1928). وقراصنة الزهرة (1939).

بيد أن العصر الذهبي لرواية الخيال العلمي الأمريكية هو عقد الثلاثينيات، حيث تحولت مجلة 'القصص الصاعقة' المؤسسة عام (1930) إلى 'الخيال العلمي الصاعق' عام (1937)، واستلم إدارتها 'جون كامبل' الأصغر فأحدث فيها ثورة حقيقية، حيث ألزم كتاب الرواية العلمية بالثبات على الحدود الفاصلة بين العلم والأدب، وكانت النتيجة أن تفيد مؤلفو الرويات العلمية بالواقعية، فوصفوا صواريخ، وأسلحة نووية، وحاسبات إلكترونية تتشابه كثيرا مع ما أصبحت عليه فيما بعد، خلال أقل من عشر سنوات، فالخيال العلمي في الأربعينيات أصبح حقيقة واقعة في الخمسينيات.

³³ إدوارد بيلامي (1850 – 1898) (Edward Bellamy) هو كاتب وروائي أمريكي اشتراكي .

مشهور بروايته 'نظرة إلى الوراثة'

³⁴ إلمر رايس Elmer Rice 1892 – 1967 . هو كاتب، مسرحي، وكاتب سيناريو من الولايات المتحدة

الأمريكية ولد في مدينة نيويورك

³⁵ إدغار رايس بوروز Edgar Rice Burroughs 1875 – 1950، كاتب أميركي، مبتكر

شخصية طرزان

وقد حرص نجاح مجلة 'كامبل' مجلتين أخريين تعملان في الحقل نفسه هما: 'المجرة'، و 'فانتازيا'، كما شهدت الخمسينيات ازدهار أدب الخيال العلمي، وكان 'راي براد بوري'³⁶ و'كليفور د سيماك'³⁷ مطلقى صيحات الإنذار والخوف من الحرب النووية، والفساد الأخلاقي والروحي الذي أشاعه المجتمع الصناعي، بغض النظر عن شكل النظام السياسي فيه. وقد وضع 'براد بوري' رواياته: رحلة المليون عام (1946)، ويوميات من كوكب المريخ (1946)، وفهرنهايت 451 (1954)، والوقائع المريخية، ولوريلة القادمة من الضباب الأحمر إلخ.

في 'الوقائع المريخية' يدين 'براد بوري' الحضارة العاجزة عن المحافظة على الذوق الجمالي لدى البشر، فقد حطمت الدعاية كل عفوية في هذه المدن التي تشبه بيوت النمل، وجعلت الناس مسيرين بشكل آلي، وقد فاقت الآلات الشيطانية كل قوة مبدعة لدى الإنسان، وازدادت فتكاً بالقيم والعلاقات الإنسانية، وسيطرت على كل من يعارضها، حتى على خالقها، ولذلك ينبغي العودة إلى الحالة السابقة على الآلة، الحضارة الرعوية حيث يقترن الفقر المادي بالفضيلة.

وهكذا يرد 'براد بوري' وغيره سبب الفساد إلى التطور المفجع في العلم، ليس لأن العلم سيء بحد ذاته، وإنما لأنه يسكر الإنسان، فلا يستطيع التوفيق بين قدراته الشخصية والصبغة العلمية ذات النزعة النفعية.

والواقع أن 'براد بوري' يعد مؤسس أدب الخيال العلمي في الأدب الأمريكي، فقد وضع أكثر من عشرين رواية ومجموعة قصصية، ويمتاز أدبه بقدره فائقة على بناء الحدث الدرامي، وخلق الرعب والتوتر في أحداث قصصه، والتحليل الدقيق للعقل البشري، كما يتميز أسلوبه بالحيوية، والشاعرية، والخيال، واستخدام الرموز، والصراع بين الخير والشر هو محور معظم رواياته، ومن رموز الخير عنده:

³⁶ راييموند دوغلاس «راي» برادبري (Ray Bradbury) (1920 - 2012) أديب وكاتب سيناريو أمريكي. كتب في مجالات متنوعة من الأدب، مثل الفانتازيا والخيال العلمي والرعب والغموض.
³⁷ كليفور دونايد سيماك (Clifford D. Simak) ، (1904 - 1988) كان كاتباً خيال علمي أمريكي

الشمس، والماء، والنار، والابتسامة، ... إلخ و كلها مصدر للحياة، ومن رموز الشر عنده: الليل، والظلام، والوحوش إلخ.

في روايته 'فهرنهايت 451' يصور 'براد بوري' مأساة المثقفين في أمريكا، في ظل الإرهاب المكارثي في الخمسينيات، فيجعل أحداث روايته تدور في المستقبل، حيث يتخيل الحرب العالمية الثالثة، وقد غيرت وجه العالم، فنشأت مدن جديدة ذات قوانين جديدة، تقضي بتحريم ثقافة الكلمة المكتوبة، والاكتفاء بمشاهدة التليفزيون ثقافة عامة، ووسيلة للتسلية والترفيه. والقانون الجديد يرى قراءة الكتب مفسدة للعقول، يجب منعها، لأنها تجعل البشر تعساء، لذلك حاربوا رجال الفكر والأدب والقراء، وتمت تصفيتهم بأشكال شتى، من قبل السلطات الحاكمة التي هي عبارة عن رجال الإطفاء المنتشرين في كل أنحاء المدينة يبحثون عن الكتب من أجل إحراقها عند درجة 451 فهرنهايت.

4- قصة الخيال العلمي في الأدب الروسي:

لعل أدب الخيال العلمي السوفييتي بدأ قبل ثورة (1918)، فقد كتب ك. تسيلوكوفسكي³⁸ في عام (1895) عن مغامرات مستكشف الفضاء. وكتب أ. بوغدانوف³⁹ في عام (1913) عن مريخين اشتراكيين.

ثم شهدت العشرينيات من القرن العشرين تفتح الخيال العلمي السوفييتي، وتمتع التيار الموروث عن جول فيرن، والمتعلق بالرحلات الغربية، بتشجيع السلطات، حيث اشتهر أ. بوغدانوف باسم (جول فيرن الروسي).

ولكن الهيمنة التي رافقت الستالينية كبحت جماح هذا التفتح، وخنقت كل تخيل. وعندما فرض 'جدانوف' على الأدباء معالجة أية موضوعات إلا ما يرتبط بالخطط الخمسية للدولة، والتطبيق لمنجزاتها، خنق كل الإبداعات الممكنة، فلم يتح لها أن ترى النور،

³⁸ قسطنطين تسيلوكوفسكي Konstantin Tsiolkovsky (1857-1953) عالم روسي وسوفييتي ومصمم

في مجال الأيروديناميكا وهندسة الصواريخ والطائرات والمناطيد.

³⁹ فيزيائي وطبيب وفيلسوف وكاتب خيال علمي روسي اشتراكي ديمقراطي

وكان على الأعمال الإبداعية أن تهاجر إلى الغرب الأوروبي والأمريكي للتنمتع بكامل حريتها، وليحتضنها الغرب على أنها النماذج الهاربة من قمع الدولة المستبدة، وهكذا هاجر من جملة من هاجر من العلماء والأدباء 'يوجين زامياتين' (1889 - 1937) وهو مهندس معماري روسي، غادر روسيا إلى باريس حيث عاش فيها حتى توفي، ووضع روايته الشهيرة (نحن) يصف فيها مجتمع دولته الاستبدادية، منطلقاً من واقع الاتحاد السوفييتي آنذاك.

وقد أسهم كتاب بعض الجمهوريات في هذا النوع الأدبي، مثل البولندي 'ستانيسلاف ليم' الذي ولد عام (1921)، ووضع أكثر من عشرين رواية في أدب الخيال العلمي، منها: حضور المستقبل، والزمن غير الضائع، والتحقيق، وسولاريس، وغزاة الفضاء، وضيغ في الفضاء، وسوبر مان ... إلخ.

كما وضع الكاتب التشيكي كارل سايبيك (1890 - 1938) الذي كان أول من أدخل كلمة (الرابوط) إلى عالم الأدب، وهي كلمة تعني بالتشيكية: العمل.

وضع روايات: حرب السمادل (1935)، وصنع المطلق (1922) و كراكاتيت (1924)، ومسرحيات: الرابوط، و رابوط روسوم العالمي (R . u . R) وفيها يحذر من أن يحل (الرابوط) أو الإنسان الآلي محل الإنسان البشري، فيسلبه مكانه، وتكتسب هذه الكائنات الآلية بالتدريج روحاً، فتثور ضد البشر، وتهلكهم.

ولكن هذه الكائنات الآلية تهلك بدورها أيضاً، لأنها لا تعرف طريقة صنعها، ولهذا اتجه بعض أدباء الخيال العلمي إلى أنسنتها، وذلك بتحويلها إلى بشر يملكون العواطف الإنسانية، وبهذا وضع سايبيك الأمل في أنسنة الآلة .

حضور الخيال العلمي في الأدب الملايالي والآداب الهندية الأخرى

إنّ قصة الخيال العلمي لها حضور ولو كان ضئيلاً في الآداب الهندية. كانت بداية كتابة الخيال العلمي في الهند على يد الأديب البنغالي 'جغدانندا روي' بروايته

المعنونة 'رحلة إلى كوكب الزهرة'. وصدرت في عام 1879م.⁴⁰ ومن أبرز كتاب الخيال العلمي في الهند الكاتب الأسامي 'دينيش تشندرا غوسوامي'،⁴¹ و الكاتب الهندي 'دورغا براساد قاتري'،⁴² والأديب الماراتي 'جاينانت نارليكار'،⁴³. أما الأدب الملايالي فأول القصص الخيال العلمي فيه قصة 'دواراكا'،⁴⁴ التي كتبها 'كتجي رامن وينغاييل'،⁴⁵ (1893م). وكتب الأديب الملايالي الشهير في. كي. ن.⁴⁶ قصتين من الخيال العلمي. وهما: 'أوتوميشن'،⁴⁷ (1997م) و'غوروتواكرشنام'،⁴⁸ (1997م). وبإمكاننا اعتبار قصة 'نكشتر كونجو'،⁴⁹ لتوماس جوساف، وقصة 'هوموسابيام'،⁵⁰ لويشاكهن، وقصة 'منترا فادم'،⁵¹ لذكريا خيالاً علمياً. ولدى الكاتب الملايالي الشهير سي. رادهاكريشنان⁵² اهتمام كبير بالعلم والخيال العلمي. وأعماله من أمثال 'مريجكا'،⁵³ و'سبندا مابنكلي نندي'،⁵⁴ تعد من الخيال العلمي. ولعل الكتاب 'مارامودرا'،⁵⁵ للكاتب إ. ب. شريكومار أول رواية الخيال العلمي في لغة ملايالا. ورواية الخيال العلمي 'أيس 196°C'،⁵⁶ التي كتبها 'ج. آر. إندوغوبان'، عمل رائع في نوعها. يعالج فيها الكاتب تكنولوجيا النانو وكريونيكس.⁵⁷

⁴⁰ *Shukra Bhraman (Travels to Venus)* by Jagadananda Roy

⁴¹ Dr. Dinesh Chandra Goswami is an Assamese writer and winner of the Sahitya Akademi's Bal Sahitya Puraskar for 2014

⁴² Durga Prasad Khatri, a Hindi Fiction writer

⁴³ Jayant Vishnu Narlikar (born 19 July 1938) is an

Indian astrophysicist and emeritus professor at the Inter-University Centre for Astronomy and Astrophysics (IUCAA)

⁴⁴ Read as 'Dwaaraka'

⁴⁵ Read as 'Kunchi Raman Vengayil'

⁴⁶ Vadakkke Koottala Narayanankutty Nair (VKN), a famous Malayalam author

⁴⁷ Automation

⁴⁸ Read as 'Guruthwakarshanam' (Gravity)

⁴⁹ Read as 'Nakhathrakkunchu'

⁵⁰ 'Homosapium', a Malayalam Science fiction by Vaishakhan

⁵¹ 'Manthradadam' written by Zakariya

⁵² C. Radhakrishnan is a writer and film director in Malayalam

⁵³ Read as 'Mareechika' (Mirage)

⁵⁴ Read as 'Spandana-maapinikale Nandi' (Thank you Stethoscope)

⁵⁵ 'Maaraamudra' by Shreekumar

⁵⁶ 'Ice 196°C', Novel by G.R. Indugopan

⁵⁷ Dr. Archana A.K. , 'Shastra Novel Malayalathil – Charithram, Vikasam Parinamam', Kerala Bhasha Institute

الباب الثاني

قصة الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث

- الفصل الأول: قصة الخيال العلمي في العالم العربي الحديث
- الفصل الثاني: نبذات لأهم الأعمال العربية في الخيال العلمي
- الفصل الثالث: موقف العالم العربي من قصة الخيال العلمي قراءة ونقدا
واهتماما

الفصل الأول

قصة الخيال العلمي في العالم العربي الحديث

في معرض الحديث عن جذور أدب الخيال العلمي قد ذكر الباحث - في الباب الأول - عن مساهمات العرب القدامى في تأصيل هذا الجنس الأدبي في الادب العالمي. وفي هذا الفصل نحاول أن نستعرض مساهمات الذين ولجوا هذا النوع من الأدب في العالم العربي الحديث، حيث هناك جيل من الكتاب الموهوبين و المتخصصين عكفوا في هذا المجال من الكتابة .

نشأ هذا النوع الجديد في الأدب العربي المعاصر حديثاً، وذلك في منتصف الخمسينيات، بعدما بدأ الإنسان يتطلع إلى الكواكب الأخرى، ويرسل إليها المركبات الفضائية التي توجت بنزول أول إنسان على سطح القمر. وكان الأدباء المصريون سباقين إلى معالجة هذا النوع الأدبي الجديد، أمثال توفيق الحكيم، ويوسف السباعي، وقتحي غانم، ومصطفى محمود، وأنيس منصور، ونهاد شريف، ويوسف عز الدين، ومحمد الحديدي، وإيهاب الأزهري..

ثم انتشر هذا النوع الأدبي في معظم الأقطار العربية : ففي سورية: طالب عمران، و دياب عيد ... وفي العراق : موفق ويس محمود، وعلي كريم كاظم.... وفي المغرب: أحمد عبد السلام البقالي، وأحمد أفزارن ...

ولعل توفيق الحكيم (1898 - 1987) أول من اهتم بأدب الخيال العلمي في الأدب العربي المعاصر، وكان مبعث هذا الاهتمام دخول الإنسان عالم الفضاء في الخمسينيات، والتنافس الشديد بين المعسكرين: الاشتراكي والرأسمالي في عسكرة الفضاء وحرب النجوم، واكتشاف الفضاء، فأطلق الاتحاد السوفييتي أول صاروخ إلى الفضاء عام (1961) و بداخله 'غاغارين'، وأنزل الأمريكان أول مركبة فضائية على سطح القمر عام (1969) و بداخلها: 'أرمسترونج' و'أالدرين'، حيث تجولا على سطحه، وجلبا عينات من صخوره و تراهبه للدراسة والبحث، بالإضافة إلى

اطلاع 'الحكيم' على هذا اللون الأدبي الجديد، ورغبته الدائمة في مجاراة عصره، وإيثاره التجديد في الأشكال والمضامين.

وقد وضع الحكيم قصصاً ومسرحيات علمية، منها قصة 'في سنة مليون'، وقصة 'الاختراع العجيب'، وهما في مجموعته القصصية 'أرني الله' (1953)، كما نشر مسرحيات 'رحلة إلى الغد' (1958)، و 'تقرير قمري' (1972)، و 'شاعر على القمر' (1972).

وفي مجال البحث عن الخلود وضع الحكيم مسرحية 'لوعرف الشباب' (1950) وهي قصة طبيب مصري مختص بالبيولوجيا، أجرى أبحاثاً انتهت به إلى أن تركيبنا الأدمي ما دام قائماً على خلايا حية، فهولا يمكن أن يستهلك، بل يتجدد كلما أمكن تحديد الخلايا، وبفضل ذلك استطاع أن يكتشف سر تحديد الخلايا الهرمة، وذلك عن طريق حقن تعيد الشباب للأرانب الهرمة، ثم أجرى تجاربه على البشر فعاد 'الباشا' الهرم شاباً، ولم تتعرف عليه زوجته وابنته.

ولكنه عانى من التضاد بين جسمه وعقله، في جسمه شاب، وعقله هر م. عاش تجارب و استوعب خبرات، ولهذا طالب طبيبه بأن يعيده شيخاً كما كان: "إنك أعطيتني الجسم الفني، ولم تعطي النفس الفتية الجديدة التي تبصر الحياة جديدة، وترى كل معنى من معانيها كتاباً لم يفتح بعد: الحب، المجد، الغد... زالت جدتها، وضاعت فرصتها، ما قيمة الشباب إذن؟ إنه بالنسبة إلى نفسي الهرمة دار غريبة".⁵⁸

وفي قصته 'في سنة مليون' يتنبأ الحكيم . مستقبل البشرية: فالناس في سنة مليون خالدون. وقد اختفت الحروب والأمراض و التناسل، ولم تعد هنالك حاجة للتناسل ما دام البشر خالدين، لا يموتون ولا يعرفون الشيخوخة. ولم يصل الإنسان إلى هذه الحالة إلا بعد حصوله على القنبلة الذرية التي دمرت العالم القديم، وأقامت على أنقاضه بشرية جديدة، بوساطة العلم الذي أحال العالم إلى 'جنة' أرضية، تنعدم فيها

⁵⁸ توفيق الحكيم، 'لو عرف الشباب'، مكتبة مصر، القاهرة، 1994، ص: 112

الحاجة إلى الليل للراحة، أو النهار للعمل، فقد أغناهم الضوء الصناعي الدائم عن الشمس، وأغنتهم الأغذية الكيماوية عن النوم، فأصبحوا حركة دائمة مستمرة، وانعدمت الفوارق بين الجنسين: الذكر والأنثى بانتهاء التناسل، وأصبح الناس يعيشون تحت سطح الأرض، حيث أعمالهم، لأن الحروب الذرية والكيماوية التي دمرت أسلافهم مسحت وجه الأرض وخربته، وأصبح غذاء الإنسان الجديد من الغازات التي تستمد عناصرها من الجو، لذلك ضمرت معدته، واختفت أسنانه وجهازه الهضمي، فإذا هو رأس يفكر، وأنف يستنشق، وأطراف ضعيفة لقلة الاستعمال (العضو الذي لا يستعمل يضم). وكذلك زال الحب بسبب زوال التناسل، وزال الشعر والفن والعاطفة، وحل اتصال الأفكار محل اتصال القلوب، حيث تنتقل الأفكار من رأس إلى رأس وهم جلوس في صمت.

لقد شغل الحكيم بمستقبل الإنسان على هذه الأرض، ففي قصته 'الاختراع العجيب' اعتمد الحكيم على فكرة قصة 'آلة الزمن' لويلز، حيث يتم اختراع جهاز يري الإنسان مستقبله، فإذا أدار مفتاحاً ثانياً أراه مستقبله بعد خمس سنين، فإذا أدار مفتاحاً ثالثاً أراه ما يحدث معه بعد عشر سنوات ... وهكذا.

والمفارقة أن كل من رأى مستقبله انتحر، مما جعلهم يحظرون استعماله على العموم، وقد أرجع الحكيم سبب انتحارهم إلى أنهم، بعد أن عرفوا مستقبلهم، لم تعد لديهم رغبة في أن يعيشوا حياتهم مرة ثانية، فسئموا الحياة المملة، ورجبوا في الانتحار.

وقد شارك مصطفى محمود من مواليد عام 1921 في هذا الموضوع البيولوجي في روايته 'العنكبوت' (1964)، التي تعتمد على فكرة 'تناسخ الأرواح' إلا أن الكاتب طوّرها إلى الرغبة في معرفة ماضي البشر في حياتهم السابقة.

كما شارك يوسف السباعي (1917 - 1978) الذي عرف بقصصه الاجتماعية والغرامية، فوضع روايته 'لست وحدك' (1970) وفيها تطلع المركبة الفضائية إلى كوكب المريخ، وعلى متنها ستة أشخاص.

ويعود الكاتب إلى ماضي هؤلاء الأشخاص عن طريق الاسترجاع (أو الفلاش باك)، حيث يستغرق بيان ماضيهم النصف الأول من الرواية، ويبدأ النصف الثاني من الرواية حين تتعطل المركبة الفضائية، فيحاول طاقمها من مكانهم في الفضاء السيطرة على سكان الكوكب، وعندما يتضح لهم أن سكان هذا الكوكب هم شجر لا بشر، تتولد لديهم فكرة تحويل الشجر إلى بشر.

وهنا يدخل الكاتب عمق التجربة، فتحويل الشجر إلى بشر يجعل صاحب التحويل يبدو كلي القدرة، كإله، أي أن الإنسان هو الذي يصبح إلهاً على هؤلاء البشر الذين صنعهم، ومنحهم شهوة الطعام من أجل البقاء، وشهوة الجنس من أجل التكاثر، وشهوة الطموح من أجل التطور، وحين يتحول الشجر إلى بشر يبدأ التواضع والخضوع من أجل اللقمة والجنس والتميز عن القطيع.

وفي هذه الحال لا بد من 'نبي' يهدي الضالين، ويوقف الحروب والخصومات، فاختار 'الرواد'، من مكنهم في سفينتهم الفضائية، وهم يشرفون على 'رعيتهم'، أحد الرعية ليقوم بدور 'الهادي' الذي يبصر قومه بالخطأ والصواب، ويدعوهم إلى الخير، وينهاهم عن الشر. ولكن النتيجة أن تحولت عملية الهداية إلى معركة لأن دعوة 'المختار' أثارت دعوة مضادة. وحين مات 'المختار' أصبح موضوع تقديس أتباعه، وعاد العالم إلى فوضاه، وتحولت الرعية إلى قلة مستغلة وكثرة مستعبدة.

حدث هذا كله والمركبة في عطل مؤقت خارج الكوكب المجاور. وعندما نجح أحدهم في تشغيلها، قرر الجميع العودة إلى الأرض بدلاً من الهبوط على الكوكب، بعد أن أعادوا البشر إلى شجريتهم.⁵⁹

ولعل الكاتب المصري الوحيد الذي تخصص في أدب الخيال العلمي فلم يكتب في غيره من الأنواع الأدبية، هو نهاد شريف، من مواليد عام (1932) وأستاذ التاريخ، وقد وضع أكثر من عشر روايات ومجموعات قصصية عن (الخيال العلمي).

⁵⁹ يوسف السباعي، لست وحدك، مكتبة مصر، القاهرة، 1970

في قصته (رقم 4 يأمركم) كائنات عاقلة على كوكب المريخ، أكثر تقدماً من الإنسان، تعيش في باطن سطح المريخ، لشدة برودة سطحه، ولانفجار الكوكب رقم (5) الذي عرض سطح المريخ لآلاف الشهب والقذائف والأحجار التي تساقطت عليه .

أما سبب انفجار الكوكب رقم (5) فهو حرب صاعقة نشبت بين مخلوقاته، تم فيها تفجير ملايين القنابل الهيدروجينية التي حسمت الحرب خلال (24) ساعة لغير صالح أحد الطرفين المتنازعين. ومن هنا فإن هذه الكائنات العاقلة في الكوكب رقم 4 تحذر أهل الأرض، عن طريق هواتف داخلية، من مخزون الأسلحة النووية كي لا تكون نهايتهم كما كانت نهاية سكان الكوكب رقم (5).⁶⁰

وفي قصته (البداية الآن) رسالة من أحد الكواكب إلى سكان الأرض الذين يلعبون بالعلم لعبة سيئة، ويستخدمون منجزاته في غير طريق الخير، ويطلقون المارد الذري الذي فيه هلاك أهل الأرض وهلاك غيرهم من سكان الكون، ولهذا فإن رسل السلام وحراس الأمن في المجرة سوف ينطلقون ليسكن كل واحد منهم في جسد بشري، ومن خلال هذا الدخول سيقومون بتأدية رسالتهم في الخير والنماء والسلام.

والواقع أن موضوعين رئيسيين من أدب الخيال العلمي يشغلان نهاد شريف هما: غزو الكواكب الذي خصص له ربع نتاجه تقريباً، والبيولوجيا التي استأثرت وحدها بثلاثة أرباع إنتاجه الإبداعي، وفيها يعالج الكاتب المستقبل البيولوجي للإنسان، ومحاولاته في الاحتفاظ بشبابه، وإطالة العمر عن طريق التبريد، أو عن طريق 'إكسير الحياة'، ففي قصته 'بالإجماع' يصور ما وصلت إليه الحضارة العلمية الأرضية من تقدم علمي في المجال البيولوجي حيث استطاع البشر إطالة أعمارهم عن طريق تبريد أجسامهم لمدة زمنية يختارونها، فقد يبرد أحدهم جسمه مدة خمسين عاماً أو مئة أو مئتين، يتوقف في أثناءها عمل أجهزة الجسم وتدخل في سبات، فإذا حانت لحظة إيقاظ الجسم عادت أجهزته إلى العمل مرة ثانية.

⁶⁰ نهاد شريف، رقم 4 يأمركم، دار أخبار اليوم، 1974

أما في سورية فلا نعرف حتى نهاية القرن العشرين سوى كاتبين اهتمتا بهذا الجانب الإبداعي في الأدب هما: الدكتور طالب عمران الذي خصص جهوده كلها لهذا المجال، دراسة، ورواية، وقصة قصيرة، ومسلسلات تلفزيونية، وأحاديث إذاعية والكاتب السوري الثاني هو: دياب عيد الذي وضع رواية واحدة في هذا اللون الأدبي الجديد هي (نداء الكوكب الأخضر). ثم أفلح عنها إلى كتابة المسلسلات التلفزيونية التي أعطته شهرة ومالاً أكثر.

في روايته 'نداء الكوكب الأخضر' تبدأ الأحداث في عام (2016) حيث يصل سكان الكرة الأرضية إلى مستوى عال من الحضارة والرقى، يجعلهم ينبذون الحروب، ويحولون صناعة الأسلحة إلى صناعة المواد الغذائية والدوائية، ويؤسسون مركزاً للاتصالات الفلكية. ويستقبل هذا المركز رسالة فضائية، يفسرها العقل الإلكتروني، فإذا هي رسالة استنجد من كوكب نجم الخريف 'ستيفاني' التابع لمجموعة 'قنطورس'، وقد كانت العالمة الفرنسية 'ستيفاني' اكتشفته عام 1994، وهو يبعد عن الأرض بمقدار (7 - 8) سنوات ضوئية.

إذن فهذه الرسالة الكونية تدل على أن ثمة كائنات عاقلة في مكان ما من الكون، وأنها بلغت من العلم والتطور درجة جعلتها قادرة على إرسال رسالة لاسلكية.

واستجابة لهذه الرسالة فقد تم تجهيز سفينة فضائية بالوقود النووي والسلاح الليزري، واختار العقل الإلكتروني أربعة رواد ليقوموا بالرحلة وهم: ملاح كوني، و مهندس، وطبيبة، وعالم أحياء.

وتتطلق المركبة لتحط على سطح الكوكب الأخضر بسلام، وحين يرغب الرواد في إرسال رسالة إلى الأرض، لإعلام قاعدتهم، يجدون أن هذه الرسالة لن تصل قبل تسع سنوات، وأن مركبتهم نفسها سوف تصل الأرض، في رحلة العودة، قبل أن تكون الرسالة قد وصلت، لأن سرعة سفينتهم أكبر من سرعة الضوء!!

وقد وجد الرواد عالم 'الكوكب الأخضر' منقسماً إلى عالمين : بدائي ما تزال تغطيه الغابات والأشجار، وتعيش فيه الديناصورات و الحيوانات الزاحفة التي تعود إلى عهود ما قبل التاريخ، وهو يشبه العالم الأرضي الذي انقرض منذ أربع مئة مليون سنة، وعالم تحضرت كائناته ، ووصلت إلى اختراع الطائرات والمركبات الفضائية وإرسال الرسائل اللاسلكية إلى أعماق الكون.

وقد استقبل رواد الفضاء بالترحيب في كلا العالمين: فالبدائيون أعجبوا بهم، وأقاموا علاقات جنسية مع رائدة الفضاء. والمتمدنون حملوهم في طائراتهم، وجعلوهم - أيضاً- يقيمون علاقات جنسية مع فتياتهم، ولكن الطرفين أحجما عن طلب المعونة من خارج الكوكب قائلين: "دعونا نحل مشاكلنا بأنفسنا".

وتعود 'مركبة السلام رقم 1' إلى كوكب الأرض، وبداخلها روادها الأربعة، ولكن بعد أن حلت 'بالما' محل 'إيزا' التي آثرت البقاء في الكوكب الأخضر مع حبيبها 'فيمال'، كما آثرت 'بالما' مغادرة كوكبها الأخضر إلى الأرض مع حبيبها 'قيس'.⁶¹ والدرس الذي يعطينا إياه الكاتب هو أن التطور العلمي لن يؤدي إلى سعادة البشرية، ما لم يوجه في سبيل الخير والمحبة والسلام، وهو نفس المبدأ الذي خصص له الدكتور طالب عمران أدبه العلمي.

وأما في المغرب فلعل أحمد عبد السلام البقالي من مواليد (1930) هو أول من كتب في (أدب الخيال العلمي في المغرب، وذلك في روايته (الطوفان الأزرق) (1976) التي تروي قصة اختطاف الدكتور 'نادر' العالم الأنثروبولوجي، كما اختفى قبله الدكتور 'هالين' الخبير السويدي في هيئة الأمم المتحدة في مكافحة الإشعاع والحائز على جائزة نوبل.

⁶¹ دياب عيد، نداء الكوكب الأخضر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986

الفصل الثاني

نبذات لأهم الأعمال العربية في الخيال العلمي

رحلة إلى الغد - توفيق الحكيم

'رحلة إلى الغد' مسرحية خيال علمي كتبها توفيق الحكيم. والتي تعتبر من الأعمال العربية المبكرة كتبت في مجال الخيال العلمي. وفي هذه المسرحية تعد الهيئة العلمية صاروخاً لإطلاقه إلى الكواكب البعيدة، ولكنها بحاجة إلى إنسان يقبل هذه المغامرة القاتلة، فتتفق مع اثنين من المحكوم عليهم بالإعدام، على أن يقوما بهذه المغامرة، فإن عادا سالمين ألغى حكم الإعدام عنهما، وإلا فهما ميتان على كل حال.

وينطلق بهما الصاروخ، فيقطع الاتصال بينهما وبين علماء الأرض، ويبدو أن حياتهما الجديدة داخل الصاروخ المنطلق، ويتكشف لهما أن انقطاعهما عن الأرض والناس قد غير كثيراً من مفاهيمهما، فلم يعد للقتل والجريمة من معنى لديهما، وكذلك الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والقانون... كلها أصبحت دون معنى، وصارت للموت دلالة أخرى غير الدلالة المعروفة على الأرض.

وبقوة جذب أحد الكواكب للصاروخ يتم اصطدامه بسطح الكوكب، فيصابان بجروح و ينزفان كثيراً من الدماء، ولكنهما يشعران بنشاط هائل. وعلى الرغم من أنهما فقدوا رداً بهما الخاصين بالتكييف، فإنهما لم يشعرا بالبرد أو الحر، فالجو ملائم لهما تماماً والسماء صافية، والجبال مدبية كالمسلات، ثم يكتشفان أن نبضهما معطل، وأن قلوبهما متوقفان وأنهما لا يتنفسان، ولكنهما يعيشان، في كوكب معدني مشع بالكهرباء، وأن كلا منهما يعرف ما سينطق به الآخر قبل أن يتفوه به، ثم تراءى لهما أن طاقتهم الحيوية التي كانا يكتسبانها بالدورة الدموية والأكسجين قد صارا يكتسبانها من الخارج، من الإشعاعات الكهربائية، وبذلك صارا كبطاريتين مشحونتين بالكهرباء بصورة آلية، وعندها لم تعد بهما حاجة إلى الطعام والشراب، أو النوم أو الموت، فقد أصبحت حياتهما خالدة.

ولكنهما يبتئسان من مثل هذه الحياة التي ليس فيها مجال للعمل والكسب، على الرغم من أنهما مايكادان يتذكرا أن جزء من ماضيها حتى يظهر لهما ماثلاً أمامهما.

وعندما يحاولان إصلاح الصاروخ المعطوب، وينجحان في ذلك، يعودان إلى الأرض، فإذا الفترة التي قضاها في الفضاء تعادل ثلاث مئة سنة وتسعاً في الحساب الزمني الأرضي، ومن ثم فإن الحياة على الأرض تغيرت كثيراً عما عرفها من قبل: فالقهوة مثلاً لم تعد تصنع، بل تصب من صنوبر خاص إلى جانب صنوبر الماء، يفتح المرء حين يشاء، والبن لم يعد من حبات النبات المعروف، وإنما أصبح يصنع من مركبات كيميائية، وهناك صنابير للحساء، واللبن والغاز والقهوة... إلخ في كل بيت، مجاناً، لأن الدولة تكفلت بكل ذلك، ولهذا لم تعد هنالك حاجة للنقود، فألغيت، وتوافرت للمرء العناية الصحية فطال عمره، وأصبح متوسط عمر الإنسان مئة وخمسين سنة.

غير أن مثل هذه الحياة المرفهة خلقت مشكلة جديدة هي البطالة، بعد أن قامت الآلة بعمل الإنسان: فكل شيء يدار بالأزرار من الإدارات المحلية والمركزية، وتغيرت حتى الأفكار في رأس الإنسان، عن طريق الآلات المشعة التي تسلط على المخ.⁶²

و"الحكيم" في هذا الخيال العلمي إنما يضع تصوراً عن عالم المستقبل، وما يمكن أن يحدث فيه من منجزات علمية تزيد في رفاهية الإنسان، ولكنها – بالمقابل – تزيد من التحكم فيه.

العنكبوت – مصطفى محمود

'العنكبوت' رواية في الخيال العلمي كتبها الكاتب المصري مصطفى محمود. تتمحور أحداث الرواية حول المخ البشري وحول قدرة الإنسان لإدراك المعرفة.

⁶² توفيق الحكيم، رحلة إلى الغد، مكتبة مصر، القاهرة، 1998

ويفترض الكاتب أنه لا بد من وسيلة يستطيع بها الإنسان أن يتجول في ماضيه، من خلال الإكسير السحري الذي هو أشبه بآلة الزمن لدى ويلز، وإذا كانت آلة الزمن تريك المستقبل، فإن الإكسير السحري يري الشخص ماضيه في حيواته السابقة.

ويمزج الكاتب أسلوبه الروائي بعنصر التشويق البوليسي، فيجعل بطله يختفي عن أعين الشرطة، ويوهم ضحاياه بأنه يعالجهم، ولكنه في الواقع يجري عليهم تجارب إكسیره العجيب، عن طريق حقنهم في الوريد، ثم الانتظار مدة عشر دقائق لتصل المادة المحقونة في الدم إلى الجسم الصنوبري في المخ، ويبدأ تأثيرها. ثم يسلط على الجسم الصنوبري إشعاعاً ذا ذبذبة عالية التردد، فما يلبث إنسان التجربة أن يدخل في نوبة تشنج فغيبوبة، فنوم، حيث يتكلم باسم شخصية عاشت في حقبة سابقة، وربما في بلد آخر، وبلغة لا يعرفها صاحبها في يقظته.⁶³

قاهر الزمن – نهاد شريف

الكاتب المصري نهاد شريف هو من القلائل الذين أفردوا جهودهم في مجال قصة الخيال العلمي. وله إسهامات عديدة فيه، قصة قصيرة ورواية – كما سبقت الإشارة إلى ذلك. تلفت هذه القصص والروايات النظر بسعة خيال الكاتب و مدى فهمه الدقيق لتطور العلوم و قدرتها على تغيير مجرى حياة انسان الغد. وقد كتب قصصها بأسلوب أدبي رشيق غلبت عليه الشاعرية و تدور معظمها عن صراع إنسان المستقبل مع القوى الكونية التي تسكن الكواكب البعيدة، و مع القوى التي تهدد حياته على الأرض، وهي المرض و الموت و الشيخوخة.

وفي روايته 'قاهر الزمن' تجري الأحداث حول موضوع بيولوجي، فيتحدث عن السبات الطويل الذي سوف يمكن الإنسان عن طريقه عبور أزمنة مختلفة، بعد حفظ جسمه في أجهزة تبريد خاصة، وعن طريق هذا السبات يمكن معالجة بعض الأمراض المستعصية كالسرطان، والالتهابات الحادة، والقروح الباطنية، والالتهابات

⁶³ مصطفى محمود، العنكبوت، دار المعرف، القاهرة، 1965

الجلدية، وسوف يمكن تغيير المجرم إلى رجل مسالم، (وهي فكرة سبق لتوماس مور أن عالجه في 'يوتوبياه' كما عالجه ويلز). وسوف يمكن نقل الأعضاء البشرية للمرضى كالأذرع والأمخاخ والقلوب، وسيكون متوسط عمر الإنسان مئة وخمسين عاماً، وسيكون التعليم بوساطة موجات وذبذبات لاسلكية تخاطب العقل الباطن، وتشحنه بالمعلومات الحديثة، وسوف تلغي الامتحانات، وسيتم تعليم الإنسان في أربع سنوات فقط من حياته، ينال بعدها شهادة الدكتوراه، وهذا كله سيحصل في عام (2051) حسب ما يرى الكاتب.⁶⁴

وهذه الرواية كأعمال الكاتب الأخرى يظهر فيها امكانات متميزة في هذا الفن العجيب الذي رصد من خلاله عالم المستقبل الحافل بالمفاجآت العلمية ليثبت أولى ركائز هذا النوع النادر من الكتابة ، بعيدا عن الغيبيات و المفاهيم الرجعية . ومحاولاته بلا شك محاولات جادة لتطوير الثقافة العلمية عند العرب ، بنوع جديد من الكتابة العلمية العربية المتفوقة أسلوبا و محتوى.

الطوفان الأزرق – أحمد عبد السلام البقالي المغربي

هذه الرواية للكاتب المغربي أحمد عبد السلام البقالي تدور وقائعها في شمال إفريقيا، حيث أنشأ مجموعة من العلماء مدينة مثالية مختفية في قلب الصحراء بمنأى من العالم الذي يشهد صراعات مخيفة و حروبا مدمرة . كان التخوف شديدا من اندلاع حرب نووية تقضي على البشرية جمعاء ، فوقع اختيارهم على جبل في جوف واد شاسع بالصحراء ، أطلقوا عليه اسم جبل الجودي.

كان الهدف هو بناء مجتمع فاضل يحافظ على تاريخ الانسان ، و يسعى الى تطوير مستوى التقدم العلمي و التقني ففاقوا بقية العالم تطورا.

قام العلماء بتخزين ذاكرة البشرية في عقل الكتروني أطلقوا عليه اسم معاذ، الا أن الاعتماد على الذكاء الإصطناعي كاد يؤدي الى كارثة كبرى ، تتمثل في ابادة كل

⁶⁴ نهاد شريف، قاهر الزمن، دار الهلال، مصر، 1972

متساكن الأرض ، لاعادة مجتمع انساني على أسس جديدة، اذ سيطرت الآلة على جبل الجودي ، مما أحال المكان الى الجحيم لا حرية فيه للإنسان.⁶⁵

الرواية مميزة من حيث أنها تنتقل بنا من عالم طوباوي الى عالم كوابسي، فساهم ذلك في ابراز البعد الانساني للكاتب، معبرا عن هموم الانسان المعاصر.

⁶⁵ أحمد عبد السلام البقالي، الطوفان الأزرق، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976

الفصل الثالث

موقف العالم العربي من قصة الخيال العلمي قراءة ونقدا واهتماما

هذا الفصل يحاول أن يتعرف على مفهوم الخيال العلمي في الفكر العربي و كيفية تلقي النقاد العرب لهذا النوع من الأدب الذي فتح فضاءات جديدة للإبداع. و قد يكون توفيق الحكيم أول من خصص بعض الصفحات عن ضرورة أدب جديد يهتم باستشراف المستقبل، حيث يقول : "إن من واجب الكاتب أحيانا حينما يفتح عينا على الماضي الغائر و الحاضر المستقر أن يفتح العين الأخرى على المستقبل الآخذ..."⁶⁶ . كان الحكيم يتطلع الى أدب الاستشراف الذي يسائل المستقبل و يحاول تصور عوالم الغد .

الكتابة عن المستقبل بدت بادرة جديدة لفتح باب التجديد في الأدب، غير أن هذه البادرة لم تحض بالكثير من القبول في الأوساط النقدية ، خاصة بعد شيوع عبارة الخيال العلمي، اذ اعتبر شكلا من أشكال تغريب الأدب. لعل أهم النقاشات التي أثرت حول هذا الموضوع ترجع الى سنة 1976م عند ظهور رواية 'الطوفان الأزرق' للكاتب المغربي أحمد عبد السلام البقالي الذي صنف روايته هذه ضمن أدب الخيال العلمي. و كانت تلك الشرارة أوقدت جدلا حادا بين النقاد العرب. و من هؤلاء نجد نجيب محفوظ الذي كان رائد الكتابة الواقعية . و قد صرح في مجلة 'المجلة' أن أدب الخيال العلمي يفتقر الى العمق و هو خاو ولا جدوى منه. حيث يقول : " انه من الصعب اعتبار هذا النوع أدبا جادا، لأن الأدب الجاد في نظري يقدم تجربة انسانية حية ، أما أدب الخيال العلمي فهو يتخيل أشياء علمية ، ويتخيل تأثيرها في الانسان في المستقبل . فإذا تحققت لم يعد للعمل الأدبي قيمة و اذا لم تتحقق فقد بقيت خيالا في

⁶⁶ د. محمد ياسين، أدب الخيال العلمي في مصر وسوريا، مجلة الخيال العلمي، العدد العاشر، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2009

خيال، لذا من النادر أن أقرأ هذا الأدب أو أستمع به لأنه يشغلني بانفعالات و توقعات ثم يقدم الحل و هو مجرد كلام فارغ لا نعرف ان كان سيتحقق أم لا...⁶⁷

فاجأ هذا الموقف القراء ، خاصة بالنظر الى مكانة نجيب محفوظ في الوسط الأدبي، و هو ما من شأنه أن يؤثر سلبا على هذا الأدب الناشئ في البلدان العربية . لذلك رد عبد السلام البقالي على هذا الموقف في مقال بعنوان "لا يا أستاذ نجيب، أدب الخيال العلمي ليس كلاما فارغا".

أدرج هذا الحوار بين الرجلين في مقدمة الطبعة الثانية من رواية 'الطوفان الأزرق' التي طبعت في تونس عام 1986، و هذا جزء من اجابة الكاتب : " انّ الغاء مجال رائع للإبداع الانساني بهذه السهولة ، و الحد من انطلاق خيال الانسان المجنح الذي ميزه الله به عن سائر الكائنات لهو ظلم كبير من أديب كبير كان أولى به أن يشجع على ارتياد ذلك المجال ، و لا بدّ ان أخانا الكبير لم يطلع على روائع أدب الخيال العلمي أو لم يقرأ إلا أرداه . و لو أنه قرأ ما كتبه 'جول فيرن' و 'ه.ج. ويلز' و 'أوروبيل' و 'اسحاق أسيموف' و 'كلارك' و غيرهم من الكتاب الذين ارتفعوا بهذا الأدب الى مستوى الفنون الرفيعة لغير رأيه تماما. و القضايا التي يعالجها الخيال العلمي من أشرف قضايا الانسانية و أنبلها ، فهو الذي دق خطر الحروب العالمية ، و التلويث الصناعي و الجوي و البحري و الذري ، و سيطرة الآلة على الانسان ..."⁶⁸

ان الموقف الرافض للخيال العلمي لم يثن البعض من مواصلة الكتابة في هذا النمط من الأدب ، بل دفع بالبعض الآخر الى تقريب هذا المفهوم من الناس. ففي سنة 1984 كتب 'مدحت جيار' مقالا في مجلة 'فصول' عنوانه "جدلية الحداثة في روايات الخيال العلمي" تعرض فيه لمسألة الحداثة في اللغة و الأدب العربيين . وهو مقال

⁶⁷ أحمد عبد السلام البقالي، الطوفان الأزرق- مقدمة الطبعة الثانية للرواية، الدار التونسية للنشر، تونس،

1986

⁶⁸ نفس المصدر

على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنه يقدم أدب الخيال العلمي على أنه جزء لا يتجزأ من الادب العربي "69.

يقول الجيار : "نشير منذ البداية الى أن هذا النوع من الخيال العلمي ليس رواية منفصلة عن سياق فن الرواية العربية ، بل هو استمرار له ، يأخذ تقنياته و أدواته و يغير العناصر المشكلة . "70 صنف هذا الناقد أدب الخيال العلمي في خانة الحداثة ، و اعتبر أن لكل عصر نمطا من الكتابة ، و أن الانتقال من عصر الى عصر يصحبه انتقال من نمط في الكتابة الى آخر ، و يؤكد على أن التغيير طبيعي، و أن أدب الخيال العلمي هو أدب الحداثة و المعاصرة .

يسانده في هذا الرأي صبري موسى الذي اعتبر أن ثورة 1950 جلبت معها تجديدا في أساليب الكتابة الأدبية، كانت بمثابة رد فعل ضد التيار الرومانسي. فأدب الخيال العلمي حسب رأيه ، كان أكثر قربا من هموم الإنسان المعاصر. و يرى الجيار أن هناك أربعة عوامل تصاحب الحداثة وجدها في أدب الخيال العلمي. و هي:

- تجريب استراتيجيات جديدة في الكتابة ، و هو شئ يدفع الكاتب الى الابداع.
- تجاوز المواضيع الكلاسيكية و ادخال ثورة في الفن.
- خلق وعي جديد.
- استشراف بعض مظاهر المستقبل انطلاقا من الواقع.

و يذهب مدحت الجيار الى ضرورة أن يكتسب الخيال العلمي العربي أدواته اللسانية الخاصة به ، و يكون سجلا من التعابير الخاصة به ، وهكذا يتجدد و يجدد اللغة.⁷¹

لا يخفى ما في هذه المقاربة من ثراء، فهي تنبهنا الى ان النقد العربي يتوجب عليه ان يكون أكثر وعيا بمواضيع هذا النوع من الأدب. و هذا رأي ستأيده عزة غنام في

⁶⁹ كوثر عباد، 'أدب الخيال العلمي في المغرب العربي'، مجلة الخيال العلمي، وزارة الثقافة السورية، دمشق، العدد الثاني عشر، 2010، ص 15

⁷⁰ نفس المصدر

⁷¹ نفس المصدر

أول دراسة أكاديمية عربية لأدب الخيال العلمي صدرت عن جامعة عين الشمس بمصر بعنوان : "الابداع الفني في قصص الخيال العلمي"

قامت صاحبة هذه الدراسة بجرد لمشاهير كتاب الخيال العلمي في الغرب ، ثم درست عينات من أدب الخيال العلمي العربي دون أن تعرف بماهيته ، غير أنها نجحت في ابراز أن هذا النوع من الأدب يفتح لمساءلات بارزة ، لها علاقة بعالمنا اليوم ، و بما سينجز عنه من تطورات و انحرافات. يبقى الخيال العلمي ، حسب هذه الدراسة لا يزال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام الجدي من طرف النقاد. إذ أن الدراسات الخاصة بأدب الخيال العلمي ، تحديدا في الميدان الأكاديمي ، تكاد تكون منعدمة ، فأغلب ما كتب عن الخيال العلمي ظهر في شكل مقالات في بعض المجلات مثل 'العربي' التي تنشر من حين لآخر مقالات عن الخيال العلمي العربي و الأجنبي، مركزة على عدم اهتمام النقد العربي بهذا النوع من الكتابة . فهي المجلة الوحيدة تقريبا التي عالجت الموضوع من جوانبه المختلفة العلمية و الأدبية و التاريخية و السياسية . و قد نشرت العديد من روايات الخيال العلمي، و من محاورات مع مؤلفيها مثل نهاد شريف و صبري موسى . نجد في العدد 535 مقالا مهما للنقاد أحمد أبي زيد عنوانه: " الخيال العلمي و علم المستقبل". تساءل فيه عن أهمية إدراج هذا الأدب في البرامج التعليمية. يقول الناقد: " بات من الضروري أن تقوم السياسات التعليمية العربية بتوجيه الطلاب نحو قراءة الأعمال الأدبية ذات الخيال العلمي لدفعهم الى الخلق و الابداع و التفكير الجاد . اهتمت دور النشر و الهيئات العلمية الغربية بإصدار مجلات متخصصة في الخيال العلمي سواء في شكل قصص أم مقالات تخاطب كل الأعمار. و هذه المسألة لا نعطيها في عالمنا العربي ما تستحقه من عناية في وضع سياستنا التعليمية و قد يكون ذلك أحد أسباب التخلف في مجال الكشف و الإبداع و الاختراع".⁷²

و في نفس الاتجاه نجد أن صفات سلامة تؤكد بدورها على أن أدب الخيال العلمي العربي يستحق اهتماما أكثر في الأوساط الثقافية العربية ، و تلح على ضرورة إدراجه

⁷² أحمد أبو زيد ، الخيال العلمي و علم المستقبل – (مجلة 'العربي' العدد 535) راجع مجلة الخيال العلمي العدد 12 ص 16

في المناهج التعليمية في المدارس و الجامعات. و لقد نشرت هذه الكاتبة مقالا بعنوان "تدريس الخيال العلمي ضرورة مستقبلية و ليست رفاهة". و فيه دافعت عن هذا التوجه ، فقالت : " لقد أصبح من الضروري الاهتمام بأدب الخيال العلمي في عالمنا العربي ، إذ يجب على كافة مؤسسات المجتمع التعليمية و الثقافية و الإعلامية أن تعطي أهمية كبرى للخيال، حيث يجب التأكيد من خلال مناهج الدراسة على عمق العلاقة بين العلم و الخيال العلمي ، من خلال إدراج هذا الفن الراقى من الأدب في المناهج الدراسية في المدارس و الجامعات للوقوف على روائع هذا الأدب."⁷³

من الواضح إذن ، أن الاهتمام بأدب الخيال العلمي بدأ يعرف انتشارا يتزايد مع مر الايام على الساحة الادبية العربية ، و لم يعد بالإمكان تغييبه، غير أن هذا كله ليس بكاف للنهوض بهذا الأدب ، و إنما يجب ، بالإضافة إلى الاهتمام به من حيث هو ظاهرة أدبية خالصة ، الاهتمام بما يقدمه من أفكار جديدة.

الحركات البارزة في مجال الخيال العلمي في العالم العربي

1 نادي الخيال العلمي الجزائري: أسس نبيل دادوة و فيصل أحمر في عام 1994 "نادي الخيال العلمي" برفقة مجموعة من الكتاب الآخرين ، مع بداية نشر نصوصهما الأولى في الصحف المحلية بالجزائر. و يقول الروائي فيصل الأحمر عن لحظة التأسيس أن الفكرة جاءت مع التقاء حساسيات مشتركة ، لمجموعة من الكتاب لهم اهتمام واحد رغم أنهم لا يعرفون بعضهم سوى على صفحات الجرائد .

و من أهم الكتاب الذين أسسوا نادي الخيال العلمي إضافة الى فيصل الأحمر و نبيل دادوة كان هناك الكاتب عراس العوادي الذي يبدو أنه توقف عن الكتابة و أحمد قرطوم و محمد الصالح درويش. و رغم اختفاء تلك الأسماء ، إلا أنها تذكر دوما عند الحديث عن الخيال العلمي في الأدب الجزائري الذي عرف أوج انتشاره سنة 1996، سنتين بعد التأسيس الفعلي للنادي في مدينة قسنطينية عام 1994 ، وقد شهدت سنة

⁷³ نفس المصدر

1996 تأسيس أسبوعية "العالم الثقافي" التي كان يملكها و يديرها بعض أعضاء النادي.

خصصت تلك الصحيفة التي توقفت عن الصدور بعد ذلك ، ثلاث صفحات ثابتة لأدب الخيال العلمي، فيها مقالات مترجمة عن لغات أخرى ، و تعريف ببعض أعلام هذا الأدب في العالم العربي مثل نهاد شريف و غيره و محاولات في الكتابة لأعضاء النادي ، إضافة الى رواية مسلسلة لرئيس النادي و مدير الأسبوعية فيصل الأحمر.

و مع النجاحات التي حققها نادي الخيال العلمي ، الذي كان يشكل في ذلك الوقت ظاهرة حقيقية في الأدب الجزائري ، توقع كثيرون أن تتواصل النجاحات ، لكن الصحيفة التي كان يمتلكها بعض الأعضاء توقفت عن الصدور لأسباب مادية ، و بدأت الأصوات تخفت شيئا فشيئا ، و سرعان ما اختفت بشكل شبه نهائي.

2 مؤتمر الخيال العلمي بالمغرب : عقد مختبر السرديات بكلية الآداب و العلوم الانسانية بالدار البيضاء مؤتمرا حول "الخيال العلمي و الأدب العربي" في يوم الثلاثاء 25 أبريل 2006 بمشاركة عدد من الباحثين المتخصصين و المبدعين.

و قد ترأس هذا المؤتمر الدكتور إدريس قصوري(أستاذ بقسم اللغة العربية و آدابها) ، الذي تحدث عن كون الكتابة وفق منطق الخيال العلمي، تجمع بين الغرابة و المعرفة ، ملاحظا أن كتابة الخيال العلمي تصبح في أوروبا و أمريكا من الأشكال التعبيرية الأكثر مقروئية و تواصل مع الملتقي، بينما لا تزال النصوص العربية المكتوبة نادرة.

الورقة الأولى في هذا المؤتمر بعنوان " الخيال العلمي : الواقع و المستقبل" قدمها محمد أحمد مصطفى ، أستاذ الأدب الفرنسي بكلية الآداب ، الدار البيضاء . تحدث عن كتاب هذا الجنس التعبيري و عن التيمات المشكلة و المهيمنة في هذا النوع من الروايات . فحلل تيمات السفر عبر الفضاء و الذكاء الاصطناعي ، و الجانب السلبي من تطور العلم و التكنولوجيا ، و الذي قد يؤدي إلى عواقب وخيمة على البشرية .

و في نفس السياق ، عالج د. محمد مصطفى شكل الكتابة و موقعها في الكتابة الروائية
عموما ، و سجل في النهاية بعض الملاحظات حول النقد الروائي العربي للخيال
العلمي، فوصفه بالقليل غير المتابع كما سجل غياب وجوده في مقرات التدريس
الجامعي.

**3 دورة لوقيانوس السوري – ندوة لكتاب الخيال العلمي في الوطن العربي –
بدمشق:** عقدت في دمشق الندوة الأولى لكتاب الخيال العلمي في الوطن العربي تحت
اسم "دورة لوقيانوس السوري" الذي يعدّ رائد أدب الخيال العلمي في التاريخ ، و
ذلك في يومي 3&4 من حزيران 2007 ، برعاية وزارة الثقافة السورية . و شارك
فيها عدد من كتاب الخيال العلمي العرب، و الباحثين في أدب الخيال العلمي.

افتتحت الندوة بكلمة من السيد وزير الثقافة ، الدكتور رياض نعلان آغا، تحدث عن
أهمية الخيال العلمي في التقدم العلمي، إذ أنّ كلّ اختراع كان صورة في مخيلة رجل
ما ، ولذلك فإن البشرية ، بكل ما أنجزته من علوم و تقانات مدينة للخيال العلمي. و
أكد الوزير في نهاية كلمته ، العمل على مشروع إطلاق رابطة كتاب الخيال العلمي
في الوطن العربي، و تبنى وزارة الثقافة نشر بحوث هذه الندوة في كتاب مرجعي ،
يعني ثقافتنا العربية. أما الدكتور طالب عمران، رئيس اللجنة المنظمة للندوة ، ورائد
الخيال العلمي في سورية ، فقد تحدث في كلمته عن أهمية هذه الندوة كتكريم لكتاب
الخيال العلمي ، منوها بدور السيد وزير الثقافة في تنظيمها و دعمها، و لا سيما أنّ
كتاب الخيال العلمي مهمشون قياسيا بالكتاب الآخرين. و اختتم كلمته بالإشارة إلى
أنّ أدب الخيال العلمي هو أدب المستقبل. متمنيا أن تكون هذه الندوة ركيزة من ركائز
الإبداع و بذل الجهود لإطلاق رابطة أدب الخيال العلمي.

و بعد تكريم رائدي الخيال العلمي ، نهاد شريف من مصر ، و المرحوم محمد عزام
من سورية ، بدأت الندوة أعمالها ، حيث قدم فيها 18 بحثا على يومين تناولت ثلاثة
محاور أساسية، هي : تاريخ الخيال العلمي، و فلسفة الخيال العلمي، و أهمية الخيال
العلمي في الأدب.

الباب الثالث

طالب عمران ومساهماته في قصة الخيال العلمي

- الفصل الأول: طالب عمران: حياته وآثاره
- الفصل الثاني: نبذات قصص الخيال العلمي لطالب عمران
- الفصل الثالث: الموضوعات في قصص الخيال العلمي لطالب عمران
 - المبحث الأول: غزو الفضاء
 - المبحث الثاني: الظواهر الخارقة المدهشة
 - المبحث الثالث: البحث عن الخلود والشباب الدائم
 - المبحث الرابع: البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض
 - المبحث الخامس: حضارات العوالم الأخرى
 - المبحث السادس: كائنات العوالم الأخرى
- الفصل الرابع: خصائص أدب الخيال العلمي عند طالب عمران

الفصل الأول

طالب عمران: حياته وآثاره

طالب عمران أحد رواد الخيال العلمي العربي. ولد في عام 1948م في طرطوس بسوريا. وتلقى تعليمه الابتدائية من مسقط رأسه والتحق بجامعة دمشق للدراسات العليا حتى حصل منها على شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية ثم ذهب إلى الهند والتحق بجامعة عليكرة ونال منها الدكتوراه عام 1984 في الهندسة التفاضلية والفلك.

مناصبه ونشاطاته:

له عضوية في عدة منظمات: ومنها اتحاد الصحفيين العرب (منذ عام 1978) واتحاد الكتاب العرب (منذ عام 1980) والجمعية السورية لتاريخ العلوم منذ عام 1989. وقد اشتغل مناصب مهمة كثيرة: ومنها:

- مدير ورئيس تحرير مجلة المعلم العربي من عام 2005 حتى 2009.
- المدير المؤسس للفضائية التربوية السورية منذ عام 2007
- أستاذ جامعي في: الجزائر، والهند، وسلطنة عمان
- رئيس التحرير لمجلة الخيال العلمي التي تصدر عن وزارة الثقافة السورية منذ عام 2008.
- رئيس رابطة "كتاب الخيال العلمي العرب" التي أسست في حزيران - يونيو 2007.
- رئيس تحرير مجلة الأدب العلمي التي تصدر عن جامعة دمشق وهي مجلة علمية ثقافية شهرية

له نشاطات إعلامية عديدة في الصحافة المقروءة في صحف ومجلات عربية (سورية ولبنانية ومصرية وتونسية وليبية ...) حيث كتب العديد من المقالات الأدبية والإستراتيجية والعلمية وأدب الرحلات.

مؤلفاته

إنّ طالب عمران له عالمه الخاص فهو يكتب في الرواية والقصة القصيرة والمسرح وله أكثر من خمس وسبعون عملاً مطبوعاً وبعضها بعدة طبعات وعدد كبير من الأعمال التي هي قيد الطباعة. وركز اهتمامه لتأليف قصص وروايات الخيال العلمي والدراسات حولها.

دراسات وأبحاث:

- العالم من حولنا
- نافذة على كوكب الحياة
- في الخيال العلمي
- في العلم والخيال العلمي القدرات الخارقة – استخدم طاقاتك الكامنة
- الشمس وكواكبها
- صنّاع الحضارة
- الجاحظ وعلم التصنيف الحيواني
- بوابة الأسطورة – استكشاف الهند

قصص وروايات

- ضوء في الدائرة المعتمة
- أسرار من مدينة الحكمة
- تلك الليلة الماطرة
- مساحات للظلمة
- السبات الجليدي
- ثقب في جدار الزمن
- خفايا النفس البشريّة

- الخروج من الجحيم
- بئر العتمة
- الذي أرعب القرية الآمنة
- شحنة الدماغ
- النفق
- ابن الغابة
- بوابة خان الخليلي
- زمن القبعات المنتفخة والألسن الطويلة
- شفافية أشبه بالصدى
- التحول الكبير
- الأصابع السحرية
- الظلال الأخرى
- امرأة من عالم مختلف
- طيور وسط النيران
- البحث عن عوالم أخرى
- أمومة لا تعرف اليأس
- طيور الليل
- ملامح من الفوضى القادمة
- جزيرة الموت
- أسرار الكائنات المضيئة
- بيوض الأفاعي
- العابرون خلف الشمس
- ليس في القمر فقراء
- خلف حاجز الزمن

- مدينة خارج الزمن
- عوالم من الأمساخ
- رجل من القارة المفقودة
- فضاء واسع كالحلم
- البعد الخامس
- الزمن الصعب
- رواد الكوكب الأحمر
- أحزان السندباد
- الأزمان المظلمة
- في كوكب شبيه بالأرض
- مثلث الأسرار
- البدائل المذهلة
- الفتية الأغرار وأسفار الكشف
- مزون
- دوامات الخوف
- أهل الكهف
- مدينة الخلاص – من مسرح الخيال العلمي
- بدء السنوات العجاف
- الضباغ الضاحكة
- دوائر المحن
- حين تبكي الألواح
- حصاد السموم
- سارقو الأحلام مزون
- نداءات الأرض

- دوائر الرعب
- أنفاق الأزمنة
- ضباب القلوب
- ممرّات الرعب
- سيّدة القصر
- من خفايا الحياة
- ما وراء المكان

علاقته بالهند

يقول د. طالب عمران عن تجاربه مع بلاد الهند حيث كان طالبا في جامعة عليكراه الإسلامية بدلهي:

"لا شك أن دراستي في الهند وسعت حدقتي ورؤيتي للأشياء بشكل عام، وهذا طبيعي لأن تجربة الهند تجربة فريدة من نوعها فهي بلد يجمع كل الحضارات والأعراق ففيها العرق الأبيض والأسود والأصفر والأحمر إضافة إلى أنها تجمع كل التاريخ البشري، حيث من الممكن أن ترى فيها أشخاص بدائيين ومن الممكن أن ترى فيها أقمار صناعية، فهي بلد متطور ولكنه مقسم طبقياً بسبب الديانة الهندوسية.

فلكل ولاية من الولايات تاريخها، ولغتها الخاصة، والتي هي بحق عالم غريب جداً، وهذا الذي شجعني للدراسة فيها ولأنني أكتب فكنت أرى بأن إطلالي من الهند سيكون له وقع مختلف."74

تجري أحداث اثنين من رواياته في الهند: 'البعد الخامس' و'أحزان السندباد'. نجد فيهما وصفا رائعا لأحوال الهند الثقافية والاجتماعية. وله كتاب بعنوان 'بوابة الأسطورة - استكشاف الهند'، يخص فيه الكاتب بذكر تجاربه في الهند حين كان باحثا في إحدى جامعاتها وسرد أحوالها الطبيعية وثقافته المتنوعة. وقرأ على غلافه

⁷⁴طالب عمران، بوابة الأسطورة - استكشاف الهند، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق

لمحةً منه : "في معرض عجيب في دلهي في الهند، يتحدث عن القوى الخفية، أدخلني أحد معلمي اليوغا إلى غرفة مغلقة مظلمة ثم بدأ يتحدث إليّ: "استرخ في مقعدك، ستنتقل بعد قليل إلى مكان آية في الجمال". بعد دقائق، كنت ألق فوق جزيرة في وسط المحيط، كانت جزيرة تحفُّ بها الخضرة، وينتشر سكانها على الشواطئ يصيدون السمك ويسبحون، وإلى الداخل كانت هناك مجموعة من الأكواخ الخشبية المصنوعة بشكل فني رفيع، يلعب حولها الأطفال. أرى بحيرة وسط الجزيرة، شكلها كحدوة حصان، يجري سباق للقوارب الطويلة فيها. أدهشتني كثرة أسراب الطيور المحلقة. كنت مبهوراً وأنا أتابع ما يجري في الجزيرة حين سمعت صوتاً كأنه ينطلق من داخلي: - حان الآن وقت العودة. خرجت من الغرفة وأنا أشعر بالتعب، أشار الرجل - معلم اليوغا - إلى صورة فوتوغرافية ملونة، جزيرة في المحيط تشبه الجزيرة التي كنت ألق فوقها في الغرفة المظلمة، تتداخل فيها صور لأناس يشبهون أولئك الذين تابعت تفاصيل حياتهم الصغيرة عن بُعد. لقد تمكّن الرجل أن ينقل تلك الصورة مجسّمة إلى دماغي، ولكن كيف تحركت الحياة فيها؟ هذا لم أفهمه، قال محاولاً إجابتي بطريقته: نقلت الصورة إلى دماغك، وساعدني خيالك في تحريكها"⁷⁵.

الجوائز التي حصل عليها

وقد حصل على عدد من الجوائز. ومنها :

- جائزة العمل الإبداعي المتكامل عن فيلم الموت حباً و فيلم معلولة الحجر الحي
- جائزة أحسن سيناريو عن فيلم تلك الليلة الماطرة
- جائزة أحسن إعداد عن فيلم تلك الليلة الماطرة وأحسن إعداد عن فيلم تدمير الأعجوبة ولديه ثلاث جوائز ذهبية الأولى
- جائزة الإبداع المتكامل والثانية والثالثة
- جائزة أحسن سيناريو عن وجه آخر للقريّة.

⁷⁵ نفس المصدر

الفصل الثاني:

نبذات قصص الخيال العلمي لطالب عمران

الأزمان المظلمة:

هو رواية من الخيال العلمي تصور لقرن بدأ ملامحه المرعبة في الحادي عشر من الشهر التاسع. وقد اعتنى بها المؤلف د. طالب عمران عناية خاصة فاستوحاها من الأحداث المؤلمة التي يمر بها العالم اليوم ، يستشفها بطريقة مثيرة يمتزج فيها الخيال بالواقع ، فهو يحكى فيها عن هموم الإنسان وخوفه من المستقبل وسط عالم مضطرب يسود فيه جبروت الطغيان، وذلك للوصول إلى فوائد علمية وأدبية وتربوية..

تدور أحداث هذه الرواية في حبكة مشوقة تثير لدى القارئ الفكر والتأمل، وتمده بالمتعة في القراءة.

والمؤلف ينطلق في بناء قصصه ورواياته العلمية الخيالية على أسس واقعية لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسرها العلم، وتوقعات مبنية على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب.. فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة، تعود بالنفع والمتعة على القارئ.⁷⁶

رجل من القارة المفقودة

يتناول هذا الكتاب رواية من الخيال العلمي، تتحدث عن زيارة صحفي سوري الرباط في المغرب، ومشاركته في نقل صخرة شبيهة بالتابوت من البحر مع الصيادين، وعثوره على طفل ضائع يردده إلى خالته العاملة في مديرية الاتصال.

يحلم الطفل بشخص محبوس داخل التابوت، ويحاول والده مع الصحفي والخالة كسر الصخرة لمعرفة ما فيها، ويكتشفون جسما بشريا متجمدا فيها بلباس معدني، ويستعينون بطبيب لمعرفة حالته، فيصحو المتجمد شابا ويستعيد نشاطه العضوي،

⁷⁶ طالب عمران، الأزمان المظلمة، دار الفكر المعاصر ، 2003

ويتحدث معهم بالعربية، ويبحث عن زوجته، ويقدم صورة نابضة بالحياة عن جزيرة قومه الضخمة ومراكز بحوثهم المتفوقة، وعمله طبياً مختصاً بتبديل الأعضاء، والانتصار على المرض بتبريد الأجساد الحية مدة ثم إيقاظها، ويتذكر نشوب حرب في الجزيرة بين الحاكمين الأخوين، فيقترح مركز البحوث استخدام تقنيات التبريد وإحاطة الأجسام بما يحميها من الإشعاعات الذرية، والاحتفاظ بالعلماء في توابيت جاهزة مصنوعة من اللدائن المكثفة الممزوجة بالرصااص، تحيط بها عجينة خاصة تتصلب لتصبح قاسية كالصخر، يدخل الطبيب وزوجته في تابوتين منذ نحو (12) ألف سنة، وتغرق الجزيرة بالمياه، وتنمو فوق التوابيت في المحيط الأطلسي الأعشاب والرسوبيات.

يبحث الطبيب في البحر، فيجد صندوقاً مغلقاً يفتحه ويرتدي منه لباساً غريباً، ويودع الطفل ويعده بالعودة، ويختفي، ويهدي التابوت الصخرة إلى المتحف، ويتزوج الصحفي من خالة الطفل، ولا يزال الجميع ينتظرون عودة الطبيب المختفي⁷⁷.

عوالم من الأمساخ

يتضمن هذا الكتاب رواية من روايات الخيال العلمي. تتناول هذه الرواية قصة طبيب ينتقل من قرية إلى أخرى لمعالجة مرضاه، وتصادفه في الطريق أحداث كثيرة، ومخلوقات ذات أشكال غريبة، ويصادف أناساً مصابين بقروح وجروح كثيرة. وعندما يسألهم عن الأسباب يعلم أنهم أجريت عليهم تجارب علمية من قبل رجل يسكن في قصر معزول في أعلى الجبل. وكان هدف تلك التجارب استنساخ كائن بشري شديد الذكاء، ومع تتابع أحداث الرواية يقوم ذلك الرجل الذي يسكن في القصر المعزول بإحضار الطبيب، وإطلاعه على قصره الذي يظهر كمخبر مكتمل، ويوضح له أنه يريد استنساخ كائن بشري شديد الذكاء، ولكنه يجد أن العقل البشري لا يمكن استنساخه.⁷⁸

⁷⁷ طالب عمران، رجل من القارة المفقودة، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2012

⁷⁸ طالب عمران، عوالم من الأمساخ، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1997

النفق

هي سلسلة روايات شيقة، بقلم الدكتور طالب عمران، تأخذ القارئ إلى عوالم، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفية للإنسان، والمعقول بغير المؤلف؛ وذلك لاستخلاص فوائد علمية وأدبية وتربوية، عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة وحبكة ذكية، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.

تتحدث الرواية عن مدرس للتاريخ يدخل نفق الزمن، فترميهِ أمواجه على ضفاف نهر الفرات، قبل أربعة آلاف سنة ويقابل ابنة حمورابي 'كولا'، فتشركه بالسباق السنوي لاختيار الأقدر من المحاربين، الذي يختار عروسه من بين صبايا المدينة بعد نجاحه في اختبارات الذكاء والحكمة والشجاعة والقوة، فينجح المدرس بها جميعاً وتعدّه 'كولا' بالزواج منها إذا نجح في الاختبار الأخير، الذي يفقد وعيه خلاله، ويجد نفسه في ظلام دامس ممتدداً على أرض صلبة، يعود منها إلى خارج النفق مجدداً، ويظل يحلم بلقاء 'كولا'.⁷⁹

الأصابع السحرية

يتحوي هذا الكتاب عدة قصص يمتزج فيها الخيال العلمي بالواقع في أحداث متغيرة ممتعة. ويتناول في قصة 'كهف الظلمات' قصة عثور طالب على عجوز يتأوه في أرض اشتراها بعد وفاة والده، يظن أنها مسكونة بالجن، فينقذه مع ابن خاله، ويتزوج من ابنة خاله وينجبان صبيين. ويحكي في قصة 'بيضة الديناصور' اكتشاف باحث في علم الحياة بيضة هائلة الحجم على شكل صخرة، لديناصور يخرج منها في أحداث متتالية، يتدفق الزوار لرؤيته، ويسقط في سبات طويل ويموت، ويحتفظ متحف العلوم بجامعة العاصمة بجنته. ويروي في قصة 'الأصابع السحرية' قصة عالم التقى بصوفي حين معالجته فتاة جريحة، فيأخذ عنه أساليب التأمل الباطني والتركيز الذهني، ويتزوج بتلك الفتاة، ويتفوقان في معالجة المرضى بالعلاج الحيوي بأصابعه السحرية. ويبحث في 'المدينة الغامضة' قصة مدينة تقع على خط الزمن، لا يستطيع

⁷⁹ طالب عمران، النفق، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1999

الخروج منها، ويخاطر شاب فيخرج، وتبحث عنه حبيبته، فيتعرضان عند خروجها من المدينة إلى نرف فينقلان إلى مستشفى ويتبعهما أبوها مستدلاً بأجهزة معرفة الزمن، ويلتقي الجميع في المستشفى ثم يخفون عائدين إلى مدينتهم بمعرفتهم عمل أجهزة العودة.⁸⁰

التحول الكبير

هذا الكتاب مجموعة قصص من الخيال العلمي. وقصة 'قلب الأم' تتحدث عن التخاطر، وكيفية تطوير الإنسان لقدراته الخارقة في الاتجاه الذي انتبه العلماء أخيراً إلى إمكاناته التطبيقية الخارقة، وإلى معرفة الاستبصار بالحلم، أحد أوجه التخاطر الممكنة الحدوث، في أحداث لايزال أبطالها أحياء معروفين، إذ تحلم والدة تخاطريا عن طريق وسيط بأن ابنتها المقبورة حية، ويصدق الحلم وتنقذ الفتاة.

وتروي قصة 'السفينة الغامضة' رحلة سفينة في المحيط الأطلسي، يلتقي فيها البطل حامد بصديقه إبراهيم، وتغرق السفينة وينجو إبراهيم، وتنقذ حامدا سفينة غامضة تقفز فوق الزمن فتوصله إلى شاطئ المدينة المتوجه إليها، ليلتقي ثانية بإبراهيم في أحداث غريبة.

وتحكي قصة 'ذاكرة العشاق' حكاية عجيبة لعاشقين منذ (3000) سنة، كأنهما يظهران من جديد في القرن العشرين، بذاكرة استمرت أجيالا عديدة، تحمل مورثات هذا العشاق، ويتفقدان على الزواج، الذي يرفضه والد الشاب فيقتل ابنه، فتموت الصبية حزنا عليه بعده بأيام.

وتبحث قصة 'التحول الكبير' في تجارب علمية ستقع في التاريخ المقبل، لتحويل الإنسان إلى طاقة، ثم إعادته إلى طبيعته السابقة في مركز 'بحوث علم الحياة'، وفي

⁸⁰ طالب عمران، الأصابع السحرية، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2004

ولادة فتاة دون أن يقربها بشر في الكوكب الغامض، في أحداث ومغامرات علمية وعاطفية معقدة عجيبة.⁸¹

امرأة من عالم مختلف

يضم الكتاب ثلاث قصص من الخيال العلمي (زورق مجهول الهوية، والدائرة المظلمة ، وامرأة من عالم مختلف) وأطلق على الكتاب عنوان القصة الأخيرة فيه. ويتناول في أولها قصة سائح بحري، ابتعد يوماً عن الشاطئ كثيراً ، فخاف بعد أن غفا، والبحر ساكن الموج، وإذا بزورق مجهول الهوية من عالم آخر ، ينقذه، ويتعرف طاقمه وقصة حياتهم وأمور زورقهم وعالمهم الخاص ، ويرافقهم في جولة بحرية، كان دليله فيها الفتاة سارة مهندسة الاتصالات. ويتحدث في الثانية عن قصة امرأة تزوج ابنتها ابن أختها ليستولي على ثروتها، وحاول قتل ابنها، وهاجمه حتى ظن أنه قضى عليه، في أحداث غريبة جرت في دائرة العتمة، يختلط فيها الخيال بالواقع بمزج فريد. ويروي في الثالثة 'امرأة من عالم مختلف' قصة مشاهدة المهندس الإلكتروني ماهر، جسماً غريباً يطير فوق الجبال البعيدة ، وتتوالى الأحداث، ويمتزج فيها الواقعي بغيره، ويتزوج من مخلوقة كانت ضمن هذا الجسم الغريب، لها قدرات هائلة طيبة وغيرها، وتشرط عليه لاستمرار الحياة بينهما شروطاً، نسي مرة بعضها ، فغادرته إلى غير رجعة، فعاش في ذكرياته الحلوة المرة معاً.⁸²

في كوكب شبيه بالأرض

هذه القصة تتناول رحلة رائد فضاء مكلف مهمة دراسة كوكب شبيه بالأرض، بأجهزته الإلكترونية المتفوقة. وتبدأ الرحلة بتوجيهات العقل الإلكتروني وبثّه استنتاجاته وتردداته التي تترجم إلى كلمات بصوت هادئ ، تشير إلى أن الحضارة متطورة تستطون سطح هذا الكوكب، وأن كائنات كثيرة تنتشر في أمكنة غير ظاهرة للعيان تراقب المحطة. وتدور الأحداث فتشير إلى التقاء الرائد بمجموعة تخرج من

⁸¹ طالب عمران، التحول الكبير، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1999
⁸² طالب عمران، امرأة من عالم مختلف، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2003

المحطة ، وتقوم ابنة الكوكب منها بمهمة إرشاده وترجمته ما يرى، ويتعلق قلبه بها. وتصحبه إلى محطات القدرة فيطلع على الأجرام السماوية وما فيها من عجائب، ويزداد تعلقه بها، ويقرر الزواج منها، ويصاب بالصداع لتسلط كائنات شريرة عليه، مما يضطره إلى مغادرة الكوكب الشبيه بالأرض، والعودة إلى الأرض بحزن كبير منهما معاً، وانتظار طفلة ستولد لهما ، تعلمها أمها الباقية في الكوكب أن انتصار الخير في الكون لا بد قادم.⁸³

طيور الليل

تتحدث قصة (طيور الليل) عن طمع الأغنياء بجهود الفقراء، وعن إرهاب الوطاويط طيور الليل الأغنياء بقتل مأجوريهم للجريمة، وتستعاد الحقوق. وتبحث قصة (صندوق الحكمة) في ممارسة عالمة مقدره التركيز الذهني عند موتها، بإعلام صبي ذكي عن صندوق تدخر فيه أسرار علمها، فيساعده في دراسة الكيمياء، ومتابعة أبحاث عالمة الراحلة. وتتحدث قصة (الأفعى والقطة المتوحشة) عن أفعى تحمي شاعرا في بيته المنعزل من الحيوانات والحشرات بابتلاعها، وترحل بلا عودة حين طلب الشاعر منها الرحيل. وتقتل القطة المحبوسة خطأ صاحبها بشراسة وتهاجم القرى، فتقتلها الشرطة في كمائن. وتروي قصة (تلك الأيام العجيبة) أحداثا ممتعة لفتاة تنقذ أفعى من البرد ، فتكافئها الأفعى بلدغ مجرم يحاول إيذائها وتميته. وتتحدث قصة (أقوى من الموت) عن ولادة طفل من ميتة القبر، في معجزة تبين مصارعة المادة الحية الموت حتى النهاية.⁸⁴

البحث عن عوالم أخرى

في هذا الكتاب روايتان من الخيال العلمي. والأولى بعنوان: البحث عن عوالم أخرى، والثانية بعنوان : الممر إلى نبع السحاب. ويتناول في الأولى أحداثا تقع في العام 2090م، إذ تنطلق محطة فضاء في طريقها نحو (ألفا - قنطورس) أقرب نجم إلى

⁸³ طالب عمران، في كوكب شبيه بالأرض، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 2018

⁸⁴ طالب عمران، طيور الليل، دار الفكر، دمشق، 2003

الأرض في المجرة ، وعلى متنها ستة رواد من مختلف الاختصاصات توزعوا في أجنحة السفينة بانتباه تام. وتلتقي سفينة الرواد هذه بأناس من كوكب كارون أصيبوا بكارثة دمرت كثيرا منهم، ومدينتهم، ويستجدون بالرواد لمشاركتهم في الرحلة إلى (ألفا قنطورس) بسفينتهم التي ليست ضخمة كسفينة الرواد.. ويتعاون الجميع في كشف الكواكب الأخرى التي تدور حول (ألفا قنطورس)، ويهبطون فوق أحدها، وتدور أحداث عجيبة بين الرواد والكارونيين، ويرفرف الحب بدفئه فتخفق قلوب بالحب ويشهد أحد الكواكب أول زواج بشري، ويبدوون عصرا جديدا يحملون بالأحلام يحمل المستقبل لهم مفاجآت محزنة، في إطار يمتزج فيه الواقع بالخيال والعلم بالقوى الخفية للإنسان. وتتناول الرواية الثانية قافلة تقصد إحدى مدن الصحراء الحافلة بالآثار والمخطوطات والأماكن القديمة ويسكنها أناس طيبون فحسب ، وما يتعرضون له من مخاطر وعقبات في مغامراتهم تلك، ومن عبورهم ممرات، ليصلوا إلى أرض الأحلام، في إطار من الأحداث يختلط فيها المعقول بغير المألوف، بلغة ممتعة ومشاعر عاطفية دفاقة، تربط شاب وفتاة يتجهان معاً نحو مدينة تعانق السحاب، ويتسلقان منحدراتها، ويخفق قلب كل منهما بحب الآخر.⁸⁵

ليس في القمر فقراء

يتضمن هذا الكتاب رواية من الخيال العلمي. تتوقع اصطدام مذنب هائل بالأرض، يدخل المجموعة الشمسية بسرعة خارقة، ليحدث كارثة هائلة تدمر عالم الأرض. ويطلق المسؤولون الصواريخ عليه فتفشل. وتتخذ الهيئة العليا لعلماء القاعدة قرارا لمعالجة الموضوع، ببناء محطات فضائية ضخمة على القمر تنقل إليها الناس بأسعار باهظة. وتستعين بالطاقات العلمية في شتى فروع العلم لتأمين الجو المناسب للحياة على القمر. تفلح آلاف السفن من الأرض إلى القمر تحمل الهاربين من الكارثة من الأثرياء وذوي النفوذ، ويقيمون على القمر منشآت الرفاهية، ومؤسسات اللهو العادي والمنحرف، ويصطحبون معهم بعض العلماء المتميزين وزوجاتهم وأولادهم لمتابعة

⁸⁵ طالب عمران، البحث عن عوالم أخرى، دار الفكر الماصر، دمشق، 2003

تحركات المذنب الهائل من على سطح القمر، ويأسف أحدهم لمغادرته الأرض، وهو يتوقع اصطدام المذنب بالأرض المفلطحة التي تدور حول أمها الشمس، وفيه كمية هائلة من الأشعة السينية الخطرة على حياة البشر، ويفضل الموت بين أهله في الأرض. يقنع ذلك العالم الهيئة العليا برأيه في العودة لمراقبة المذنب من الأرض وتزويدهم بالحقائق العلمية منها. يفاجأ العلماء بتغيير المذنب مساره، واتجاهه ليصطدم بالقمر، فيهرع الملوك والرؤساء والأمراء الذين تخلوا دون ندم عن شعوبهم إلى العودة إلى الأرض، ويوجهون نداءات لشعوبهم لاستقبالهم والعودة إلى الخضوع لهم كسابق عهدهم، وتتألف جمعيات شعبية ترفض قبولهم وعودتهم إلى بلادهم.⁸⁶

الظلال الأخرى

يحتوي الكتاب على أربع قصص وروايات شيقة هي: الجبل والعجوز والبقرة، واللحن الجنائزي الغامض، ورجل الكهف، والظلال الأخرى. ويصدر الكتاب تحت عنوان 'الظلال الأخرى' القصة الأخيرة فيه. وتكتب هذه القصص والروايات بقلم أحد أهم رواد الخيال العلمي العرب، وهو الدكتور طالب عمران، وتدخل ضمن أعماله في هذا المجال التي يقدمها للقارئ، وكلها تأخذ القارئ إلى عالم يمتزج فيه الواقع بالخيال، وذلك لاستخلاص فوائد علمية وأدبية وتربوية عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة، وحبكة ذكية، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب. وينطلق بناء هذه القصص والروايات العلمية الخيالية من أسس واقعية لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسرها العلم، وتوقعات قائمة على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب... فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة تعود بالنفع والمتعة على القارئ.⁸⁷

حورية البحر

⁸⁶ طالب عمران، ليس في القمر فقراء، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2002

⁸⁷ طالب عمران، الظلال الأخرى، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2008

تتناول قصة 'حورية البحر' وقوف سفينة على صخرة على شاطئ جزيرة. و في الغابات المطلة عليها عرائس البحر، وكل منهن نصفها العلوي كالنساء، والسفلي كالأسماك، وترضع إحداهن ولدها بحنان ويهوي البحار من الصخرة فيفقد الوعي. يحلم أنه التقى عروس بحر في مملكة الأعماق ، ترغّب بتحويله إلى شكلها فيرفض. وتحكي قصة 'أسرار مدينة الحكمة' تفجر طائرة وهبوط طائرها مغمى في صحراء، ويحلم بمدينة للعدل والحكمة تحت أرض الصحراء، يبنيها سرا علماء عرب متطورون، ويجهزونها بأجهزة متطورة متفوقة ، ويصحو بعد يومين ليجد نفسه ضيف قبيلة تنال جائزة العثور عليه، ويتذكر بألم عدم إنقاذ طائرة صديقه. وتروي قصة 'كوكب التحول' حلم سجين مضطهد ، بقيادة طائرة بأحداث عجيبة، ويصحو على صوت سجانة الفظ يأمره بتنظيف معهد وخدمة كهنته وكبار المستغلين، فينال رضاهم، ويعمل سرا مع المظلومين في كوكب التحول لثورة تزيل الظلم. وتتحدث قصة 'الحلبة' عن هبوط اضطراري يفقد الوعي، ويحلم بثورته على ملك يعرضه لمصارعة الوحوش، واندفاع الناس من السجون بثورة تحررهم ، ويصحو لتخبره زوجته بما حدث لطائرتة تجرها المصفحات بأرض الحلبة، وإنقاذ بمعونة الإنسان الآلي.⁸⁸

أمومة لا تعرف اليأس

هذا الكتاب مجموعة قصص في الخيال العلمي. تتناول قصة 'الحرائق التي ألهمت الذاكرة' عيش مهندس في ثقب الزمن إلى الوراء، ومعايشته حديثا مقتل طبيب وابنته وحرق داره منذ القديم، ثم عودته إلى عصره في لغز محير غير قابل للتفسير العلمي. ويزور المهندس خرائب الدار المحروقة قديما والتي عايش حرقها حديثا، ليجد في صندوق خشبي مخطوطة قديمة بالسريرية من تأليف الطبيب وأشياء قديمة لابنته، ويتزوج فتاة تشبه ابنة الطبيب ويسمي مولودته باسمها. وتروي قصة 'محاكمة من نوع آخر' استغلال قاض فقير منصبه للظلم والثراء، وزواجه من ابنة تاجر منهم

⁸⁸ طالب عمران، حورية البحر، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2008

أهداه قصرا، ويصاب القاضي بنوبة فيظن موته، وتقبل أمه لتحاكمه وهو مغمى يسمعها على انحرافاته، ويحاول التاجر دفنه حيا، فيصحو ويعيد الحقوق إلى أصحابها، فتنفصل عنه زوجته وأولاده، ويتزوج أخرى في حيه القديم وينجب منها. وتحكي قصة 'الموت حيا' حالة مريضة أنجبها والد مدمن خمر وأم بلهاء، تستعيد حيويتها كلما تزوجت شابا نضرا تنقل إليه أمراضها فيموت، وتصطاد شابا جامعيا يشك أهله بصحتها، ويتزوجها فيموت، لتبحث مجددا عن صيد آخر.⁸⁹

رواد الكوكب الأحمر

يتحدث عن إطلاق أول سفينة فضاء تحمل بشرا في طريقها إلى المريخ وتسلك صبي إلى مستودعها واكتشافه بعد الانطلاق، ثم هبوطها على القمر، والكوكب أوريوس، والدخول في السحب والأمواج المخدرة، ودخول السفينة الغامضة، ومواجهة الأشعة القاتلة، وإنقاذ السفينة المريخية، والهبوط في محطة فوبوس المشعة ووصول الأصدقاء في مملكة 'أواز' بأسلوب قصصي شيق.⁹⁰

مثلث الأسرار

يتناول الكتاب انتساب صديقين إلى كلية بحرية، وإطلاقهما في رحلة واحدة في سفينة بحرية إلى البرازيل. وتعرض السفينة للعواصف والصواعق، ويتجول الأول بين الركاب يطمئنهم ويهدئهم، فيلتقي بفتاة ترملت في شهر العسل وأمها، وهما عربيتان مسافرتان إلى البرازيل، ويشاركهما الحديث، ويعرض عليهما خدماته. وتدفع العاصفة السفينة إلى عباب، وتدخلها في مثلث الموت مثلث برمودا، ويثبت البحارة السفينة قريبا من جزيرة بحرية تبدو لهم. ويرسل الأول صديقه الثاني لتفقد السيدتين العربيتين، فيقع الثاني في جمال الفتاة الساحر، ويقوم الأول برحلة لاكتشاف الجزيرة المنظورة مع ثلاثة من مساعديه، فيدخلون أنفاق الأزمنة الصعبة، وتقودهم الأمواج إلى مدينة كهفية غريبة، يشاهدون فيها الناس من الأزمنة القديمة جدا والمعاصرة،

⁸⁹ طالب عمران، أمومة لا تعرف اليأس، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2004

⁹⁰ طالب عمران، رواد الكوكب الأحمر، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2004

وتدفعهم الأحداث التي تمتزج فيها الواقع بالخيال والتوقعات المبنية على المنطق العلمي لينجوا أخيرا بأعجوبة دون المفقودين، وتموت الأم وبتزوج العاشقان. ويقع الأول بحب فتاة في المدينة الكهفية، خارج الزمان والمكان، ويفكر في الهرب معها وأبيها إلى خارج مدينة النفق، في أحداث مثيرة، ويتوفى الوالد في طريق النجاة، وتموت الفتاة بعده، وينجو البحار وتمضي الأزمان، فيلتقي الزوجان بصديقهما البحار بعد تفرق طويل، في حكاية غريبة مثيرة لا تكاد تصدق.⁹¹

مزون : ملحمة روائية

'مزون' ملحمة روائية بطلها محسن، شاب يحلم أحلاما تختلف عن أحلام الناس.. يسافر من بلده إلى عمان للتدريس، فيلتقي أشخاصا يصبحون أصدقاؤه، وهناك أيضا يلتقي بال جدة التي كان يراها في أحلامه، لتبدأ معها الملحمة. كانت تلك الجدة تنتظره منذ زمن لتقدم إليه وصية جده وتراثه.. تراثه المتمثل بالكتب التي شرع يقرأها، يتعلم منها الحكمة، ويتعرف من خلالها على حياة جده، يتعرض محسن لأحداث مثيرة وشائقة في أثناء إقامته بعمان.. منها مقتل حمدان، ومشكلة العقارب وأذاها ومشكلة المهاجرين الذين يغامرون بالسفر خلسة لكسب لقمة العيش، وحكاية الشاب الذي قتلته زوجة أبيه ظلما، فظل يتردد على المنطقة عينها عشرين سنة، وحادثة العجوز التي أحببت زوجها خالدا حبا جما، فحملت في عمر متقدم لا تحمل فيه النساء عادة. تصل الأحداث إلى الذروة حين تداهم محسنا عاصفة هوجاء، فتطيح بسيارته في منطقة مجهولة وهو بصحبة صديقه وابن صديقه.. يستيقظ الثلاثة على حلم واحد هو نزولهم عند عرب كانوا يحاربون البرتغال... وبعد إنقاذهم يقرر محسن العودة إلى تلك المنطقة، حيث يكتشف جثثا كثيرة، وأشياء غامضة. تبدأ خيوط الملحمة بالتلاشي حين يقرر محسن الدخول في نفق الزمن، ليصل إلى عام 2013، فيرى مالا يسر العين ولا يرضي النفس.⁹²

⁹¹ طالب عمران، مثلث الأسرار، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2003

⁹² طالب عمران، مزون، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2007

شفافية أشبه بالصدى

تناول هذا الكتاب سلسلة قصص من الخيال العلمي. يبدأ الكتاب بقصة تشد الإنسان بشكل كبير، فيتحدث عن شاب وحيد لوالديه يسافر بعد نهاية دراسته الجامعية إلى إحدى دول الجوار للعمل فيها، وعند عودته للزواج يمرض في قريته فيفقد الوعي ويظن الناس أنه توفي. ولكن يكتشف القارئ مع تنالي أحداث الرواية عودته إلى الحياة، ويتخلل ذلك أحداث كثيرة.

وفي قصة أخرى يتحدث الكتاب عن الأحلام التي تتحقق في الواقع، فتسرد الرواية قصة شاب يحلم بوقوع جريمة قتل في مكان معين، ومع تتابع الأحداث يكتشف وقوع هذه الجريمة.

والكتاب يعتمد في روايات الخيال العلمي على أسس واقعية وظواهر مذهشة موجودة في حياتنا اليومية، فينمقها ويصوغها على شكل روايات تحمل قيمة كبيرة ومنفعة ومتعة للقارئ.⁹³

بوابة خان الخليلى

تناول هذا الكتاب روايتين من الخيال العلمي:

يتحدث في الأولى (بوابة خان الخليلى) عن لقاء بطل الرواية حسن في مقهى على مداخل خان الخليلى بالقاهرة، برجل يحكي له قصة إرثه وإخوته من والدهم أرضاً يملكها، وهم يعملون بها. ويساويهم تاجر في شرائها بثمن بخس، فيرفضون، ويبرز التاجر وثيقة بيع مزورة تنص على قبض والدهم الثمن قبل شهر من وفاته.

ويثبت محاميهم في القضاء التزوير، فيضرب ويهدد بالقتل، ويعتذر عن المتابعة، فيوكلون غيره، وينظر بالدعوى قاض جديد يميل إلى التاجر، فيلجؤون إلى الصحافة

⁹³ طالب عمران، شفافية أشبه بالصدى، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2005

بإشارة من البطل حسن، فيصلون إلى حقهم، في أحداث جرت قبل سنتين من لقاء الوارث بالبطل.

ويتحدث في الثانية عن تلك الخنازير البرية الكريهة آكلة اللحوم والنباتات، ومهاجمتها القرى وقتكها بالناس والحيوانات، وعن تعرض سيدة عجوز لأذى خنزير، فتستجد ابنتها فاطمة بأخيها، فينقلان العجوز إلى طبيب يعالجها، ثم يعيدانها إلى الدار.

ويتعرض صيادان لأذى الخنازير، فينقذهما شيخ جليل يحتويهما في كهف فيه مئات من رؤوس الخنازير المحنطة القبيحة، ثم يودعهما دار العجوز، فتعتني فاطمة بهما، ثم يعيدهما إلى أهلها، ويتزوج أحدهما من فاطمة، ويحاول أن يعثر على كهف الخنازير وعلى الشيخ المنقذ دون جدوى.⁹⁴

الزمن الصعب

يعرض هذا الكتاب رواية (الزمن الصعب) من الخيال العلمي، ويتحدث عن انفجار طائرة حربية يهبط طيارها فيلنقي بكهل يقوده إلى المدينة العلمية العربية المبنية تحت عشرات الأمتار في الصحراء، بإشراف علماء عرب متفوقين تجمعوا وتجاوزوا الظروف الصعبة باكتفاء ذاتي معاشي صناعي متطور في كافة المجالات والاختصاصات، ليحققوا طموحاتهم بصنع حضارة حديثة تعيد لأمتهم مجدها، ويخترعون أجهزة تعجز أجهزة التجسس وطائرات الاستطلاع عن كشفهم، ويصنعون زوبعة مغناطيسية توقع الطيارين ليضموهم إليهم بعد اختيارهم، حتى أصبح المرور الجوي فوقهم محرماً. يدرس العلماء تأثيرات كوكب الزهرة في قرد أرسلوه إليه، ثم يطلقون سفينة برواد لدراسته، تهبط القمر ثم تنحرف فينقذها من أخطار الشمس أشباح يقودونها إلى غرف واسعة فوق الكوكب الفوسفوري، الذي يضم فئات باختصاصات علمية شتى، لا تخضع لحكام وولايات، يتخاطبون بالموسيقا والرياضيات السماوية، ويتكاثرون بالحب والتعاون الجماعي، ويتوقعون الأحداث

⁹⁴ طالب عمران، بوابة الخان الخليفي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2005

المقبلة بقوانين الاحتمالات الدقيقة، ويعملون للتطور العلمي، ويعرضون على طاقم السفينة معاشتهم في كوكبهم. يحنّ الطيار إلى أهله ووطنه، فيعود به خبير منهم بجهاز متطور، فيشاهد الأرض المدمرة بحرب ذرية بأسلحة فتاكة تحكمها نفوس وضيعة، ويبحث عن أهله بين الجثث المتراكمة، ويصحو من أحلام ذكرياته ممتددا على أنقاض بيته المهدم، ويعرض عليه العودة إلى الكوكب، فيرى زهرة تنمو متحدية ويرغب معاشتها، فيختفي الخبير وجهازه بسرعة البرق.⁹⁵

الخروج من الجحيم

يتناول رواية تتضمن قصصا عدة، منها 'الخروج من الجحيم'، التي يتخيل الكاتب فيها أننا في العام 2091، وهناك سفينة متطورة تتجه نحو الأرض في رحلة العودة، لتعيش اللحظة القاسية المرعبة التي يدمر فيها الإنسان تراثه. ومنها 'أحلام في ذاكرة اليقظة'، يتخيل فيها البطل أنه أمير يعشق الأميرة سولا وينقذها من الأسر، ليرى في الواقع شبيهة لها يتعلق بها ويتزوجها بعد كوابيس يعالجها الطب النفسي. ومنها قصة 'نبع السحاب' التي يعيش فيها البطل رحلة متعبة في مدينة الحلم، وتعلق شاب بفتاة تكتشف تفاهتها بتعلقها بالمظاهر الخارجية، ويصحو الناس في كوكب الأرض على مركبات فضائية غريبة تزرع الحب والخير في النفوس وتنقي الجو. وأخيرا يروي قصة 'رجل الكهف' الذي يضيع فيه البطل طريقه وهو يصطاد، ثم يعود ليلتقي بجماعات بشرية مهاجرة يراقبها بخوف وحذر، كما يرى جريحا شابا يضمده له جراحه ويحمله على ظهره إلى الكهف ويعتني هو وشريكته به حتى تعود إليه قوته. في قصصٍ يمتزج فيها الخيال بالواقع والعلم بالقوى الخفية للإنسان والمعقول بغيره بالانطلاق من أسس واقعية لها علاقةٌ بالمكان، مع ظواهر مدهشة في الحياة يفسرها العلم.⁹⁶

⁹⁵ طالب عمران، الزمن الصعب، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2005
⁹⁶ طالب عمران، الخروج من الجحيم، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2009

أهل الكهف

رواية تتناول الظلم والطغيان في عصر محدد من الزمن ويتشابه في أحداثه ومدخلاته مع قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ومقاومة أصحابها استبداد الحكام وجورهم وظلمهم بأسلوب روائي قصصي علمي خيالي على أسس واقعية لها علاقة بالمكان مع ظواهر مدهشة في الحياة يفسرها العلم.

يتحدث عن خطبة عادل لهيفاء وزيارتها أهله وإعجابهم بها، ومقابلة عادل للمختار الذي أعلمه أن الخضراوات المزروعة في القرية تتناقص كل يوم واتهام الجن بذلك، وظهور رجل وامرأة وفتاة غرباء عن القرية. تابعهم عادل وصديقه مسعود ليعلم أنهم هاربون من ظلم الوالي الذي كان منذ أكثر من تسعين عاماً، فإنهم دخلوا الكهف وناموا فيه ثم استيقظوا ليجدوا الدنيا كلها قد تغيرت من حولهم. ويقص ابن الرجل حكاية أبيه مع الوالي العاشم الذي ينهب التجار ويؤذيهم وكيف نكل بأبيه وطلبوا منه مبلغاً كبيراً من المال. داوم الابن على المتجر وهاجمه الجابي وتوعده بعد أن أخفى الابن المال. وقابل الابن الوالي وشكا إليه عمل الجابي وأبعده عنه ولكن الجابي حرق المتجر بعد أيام. وأنقذ طبيب الوالي الابن وزوده بمال ليعيد المتجر وزوجه ابنته، ولكن الجابي اعتدى على الطبيب الذي اعتزل الناس. مما جعل الابن يبيع المتجر ويجمع الرجال لمقاومة جنود الوالي، ويختبئ في الكهف لينام فيه ثلاث مئة سنة. وغادر عادل ومسعود الكهف ليعودا ثانية في اليوم التالي فلم يستطيعا الاستدلال عليه. ثم رآهم عادل فجأة في الطريق ثم اختفوا عن ناظره. واستدل مسعود عليهم وأخذ قاسم يقص عليه قصته وكيف قاوم جنود الوالي وكيف اعتقلوه ثانية وحكموا عليه بالإعدام لكن زملاءه أنقذوه ليعود إلى المقاومة وهوجموا من جديد فاختبئوا بالكهف ثم صحوا ليروا كل شيء قد تبدل. والتقوا أخيراً ليتفقوا على إحضار قاسم وأسرتهم إلى القرية، وذهبوا لإعداد غرفة لهم ثم عادوا ليفتقدوهم من جديد داخل كهف

عجيب ومعهم كلبهم، تماما كما حدث لأهل الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم.⁹⁷

البدائل المذهلة

يضم الكتاب قسمين. الأول: 'الإنذار والرحيل'، والثاني: 'مخزون الدماغ ينتصر في النهاية'. ويتناول الأول أحداثاً تجري في العام 2025م، في أسرة تتألف من زوجين جمع بينهما الحب بعد قصة طويلة، وأنجبا ابنا متفوقا في البرمجة العالية. ويعمل الزوج طبيبا، ويستقبل شيخا مريضا يحذره من الموت لحلم رآه، كما ترى الزوجة حلما يترأى لها فيه رأس زوجها المفتوح الخالي من الدماغ، في طبق طائر. ويزور الطبيب زوارا يتحدثون عن أحلام وحوادث جرت في المدينة، وضحايا كثيرين، كان منهم الطبيب نفسه. ويتهيا الطبيب لإلقاء محاضرة فيتعرض لحادث اصطدام مريع بسيارته أدى إلى موته. ويدور القسم الثاني حول أحداث تجري لطبيب من أمهر الاختصاصيين في جراحة الدماغ، يطلب إليه معالجة مسؤول كبير في الحكومة، واستبدال دماغ كاتب كبير محبوب بدماغ المسؤول الكبير، وقد تعرض الكاتب لحادث تمزقت لديه شرايين قلبه الرئيسية. وتتم عملية الاستبدال ويتحول المسؤول المكروه لوحشيته وقسوته، إلى شخصية محبوبة في بلاده بفضل الدماغ الكاتب المحبوب، في أحداث يختلط فيها الواقع بالخيال تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.⁹⁸

دوامات الخوف

يتناول أربع قصص في رواية علمية خيالية. وفي أولاها طلب شيخ متصوف من شاب قوي شجاع إحضار وطاويط حية دافئة ليستفيد من دمها في إبعاد السحر، من كهف في جبل قاسيون غامض لم يتجرأ أحد على الدخول إليه لقاء ليرة ذهبية عن كل وطواط. وبعد مغامرات ظن معها أنه مات يعود بها ضمن أحداث جسام هائلة ويأخذ

⁹⁷ طالب عمران، أهل الكهف، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2009
⁹⁸ طالب عمران، البدائل المذهلة، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2003

المتصوف خمسة منها ويدفع ثمنها، في حين يترك الشاب بقية الوطاويط تسرح في القرية. - وفي ثانيها عملاق الغابة الذي يدور الحدث فيه حول عملاق كان يعيش في البراري المحيطة بقرية عادل، ولم يكن يظهر إلا لقليل من الناس. وقد ظهر عندما أمسك رجال أفقر رجال القرية وضربوه حتى مات ليعطيهم بقية أكياس الشعير، فصلبهم العملاق وقد التقى به إبراهيم دون أن يعرفه في ليلة ماطرة لجأ فيها إلى كهفه، ثم عاود الزيارة وعرف سر ضخامته ثم اختفى مرة أخرى ليحرر مظلومين آخرين. وفي ثالثها مخلوق بشري أشبه بالعنكبوت، رآه ابن المختار وزعم أنه من الجن وحاول استغلال الفلاحين بوجوده، ثم أطلق عليه الرصاص فأنقذه الدكتور بكر والمعلمة عبلة واكتشفوا حقيقته أنه توأم سيامي. وفي رابعها تروي عجوز شيئاً عن حياة زوجها وقواه الخفية وكيف استطاع أن يخرج بها بعيداً عن أذى أهلها إلى إيطاليا. ويختفي الزوج تاركاً مكتبة لابنه ليتابع فيها عمل أبيه الذي دخل في نفق الزمن الصعب ولم يعد. ويدرس الابن علوم أبيه ويدفع في اتجاهه نفسه ويرحل عبر ذلك النفق لتؤكد والدته أنه مسافر إلى بلاد بعيدة وسيعود إليهم في يوم ما.⁹⁹

زمن القبعات المنتفخة

يتناول هذا الكتاب قصص من الخيال العلمي. ويتحدث في 'زمن القبعات المنتفخة والألسنة الطويلة' عن مدينة عجيبة في الزمن المستقبل، ينتشر فيها وباء امتداد الألسنة، فتثرثر كثيراً، وضمور الرؤوس المهتمة بالمظاهر الكاذبة، فتغطي بالقبعات المنتفخة، طمعاً بجوائز التجار الغرباء الوافدين المخادعين بإعلاناتهم. يستدعي أمير التجار طبيباً لمعالجة زوجته من الوباء وفقدانها الذاكرة، فيقطع الطبيب قسماً من لسانها فتزحف وتموت، فيسجن الطبيب، ثم يفرج عنه ليعالج الأمير من الوباء المنتشر حتى في العاصمة، وبين أفراد السلطات المسؤولة.

ويتناول في 'السنوات الموحشة' إشراف فتاة على الموت بمرض التلوث، وطغيان النزعة المادية، فتشفى بالحب والفرح بوجود خطيبها إلى جانبها وزواجه منها. و في

⁹⁹ طالب عمران، دوامات الخوف، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2009

'هواجس من القرن الحادي والعشرين' صورة الإنسان المستقبلية عام (2035)، المهدد بالموت بتلوث الأجواء، وبالأمطار الحامضية، وثقوب الأوزون، وارتفاع درجة حرارة الأرض، وفيضانات المدن الساحلية، وموت الناس ضحايا الصناعات، لجشع أصحاب الأموال، واستخدامهم الدعايات الكاذبة، وعنف قوة السلطة، وقتكهم بالأبرياء المدافعين عن حق الحياة للناس، وقتلهم ظلما. ويبحث في 'الأشجار تموت واقفة' في علاقة النبات الحميمية بالإنسان.¹⁰⁰

أسرار الكائنات المضيئة

يضم عددا من القصص القصيرة التي تشكل روايةً واحدةً سميت باسم إحداهما: أسرار الكائنات المضيئة. تتحدث الأسرار عن قضاء أسرة صيفا حارا جميلا وسط كرم القرويين الذين كانوا يجلبون لهم يوميا الحليب والفواكه والخضراوات تعبيرا عن امتنانهم لما فعله عاصم في كشف أسرار المخلوقات النورانية والمساهمة في القبض على بعض اللصوص الذين استغلوا تلك الإشاعات للقيام بسرقاتهم. وتتحدث الثانية، وهي دائرة الخوف، عن امتزاج الأحلام بالواقع وتداخل الأحلام بالحقائق في صورة شاب نفذ عملية ضد قوات الاحتلال في البلاد المجاورة. وتأتي الثالثة، طيور الموت، حين يكثر الشر والفساد لتستأصل جذوره، وهي ليست طيورا عادية، وهناك زواحف ليست عادية أيضا تهاجم الأشرار في قبورهم، وتفتك الطيور بالمستغلين المفسدين. وكانت الرابعة، قهر الأمومة، في قصة امرأة انفصلت عن زوجها وربت طفليها أحسن تربية وعلمتها أحسن تعليم، ولكن حقد الأب عليها صاغ لهما الأكاذيب فصدقه وانفصلا عن أمهما التي انهارت، وأدركا الحقيقة فيما بعد ولكن الأم توفيت قهرا، وأصبحت يزوران قبرها يرجوان الغفران. وكانت الخامسة، تلك الرحي القاسية، تتحدث عن ابن المختار الذي اعترف بتعاونه مع لصوص منظمين يغيرون على القرى فيخدرون القطعان والدجاج، ويبيعونها لشركات الطعام المنتشرة مع شركات

¹⁰⁰ طالب عمران، زمن القبعات المنتفخة، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2005

أجنبية تقوم باستغلالهم. فيضطر المختار إلى حبس ابنه والتعاون مع أهل القرية على ترميمها. 101

البعد الخامس

هي رواية ممتعة تجري أحداثها في الهند، ويقدم الكتاب للقارئ جولة سياحية ومشاهد من حدائق الهند وأسواقها، بالإضافة إلى جوهر الرواية القائم على إمكانات التخاطر وخوارق الارتحال عبر الزمن، وهي الإمكانيات التي يقوم أبطال الرواية بدراساتها والبحث عنها، من خلال اللقاءات الشخصية، وتتبع السير الذاتية لأجدادهم، وأخيرا التجارب الذاتية. وتتحدث الرواية عن القوى الخفية للإنسان ومستقبل استخدام الطاقة الحيوية في حلّ مشاكله وعلاج أمراضه. 102

أحزان السندباد

رواية رائعة يقسمها الكاتب إلى عدد من الفصول، ويقول على لسان شخصياتها: آه من ذلك الزمن الذي وجدت نفسي غارقا في أحداثه بكل تفاصيلها المذهلة؟ كيف بدأت تلك الأحداث؟ كانت أشبه بحلم مر بسرعة تاركا أثرا كبيرا في قلبي لم أنسه رغم مرور السنين حلم غريب أصاب مني مقتلا وأنا أرجعه، أستعيد فيه جزء من ماض، أتساءل أحيانا هل عشته حقا؟.

كنت في زيارة 'إندور' وهي مدينة في أواسط الهند، يدرس فيها بعض الأصدقاء وكانت متعتي في السفر هي التي دفعتني أن أغامر بالرحيل في فصل البرد القصير في الهند، في شهر كانون الثاني- يناير- حيث انطلق بنا القطار من 'أغرا' إلى 'بوبال' عاصمة المقاطعة في نحو خمس عشرة ساعة.. قضينا خلالها ليلا باردا في مقصورة في الدرجة الثانية. 103

101 طالب عمران، أسرار الكائنات اللمضيئة، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2009

102 طالب عمران، البعد الخامس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000

103 طالب عمران، أحزان السندباد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2012

رواية غنية بوصف الأماكن بشكل ملحوظ ومميز فأصبحت الرواية أشبه بأدب الرحلات ممتعة وسلسلة ومنفردة من حيث الموضوع.

مدينة خارج الزمن

هذه رواية الخيال العلمي من قلم الكاتب الدكتور طالب عمران تأتي على ذكر مدينة غريبة، لا يزال أهلها يعيشون حياة بدائية. هي رواية مشوقة، أسلوبها سلس سهل. رحلة غريبة يجد بطل الرواية نفسه مدفوعاً إليها بالمصادفة، حيث تأخذه العاصفة إلى مدينة "مودس" في مكان بعيد، وربما زمان بعيد أيضاً. تترك الرواية العديد من الاحتمالات مفتوحة، وفي الوقت نفسه تقدم للقارئ فرصة لإعادة التفكير بكل ما هو ممكن الحصول¹⁰⁴.

¹⁰⁴ طالب عمران، مدينة خارج الزمن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2012

الفصل الثالث:

الموضوعات في قصص الخيال العلمي لطالب عمران

المبحث الأول: غزو الفضاء

إن غزو الفضاء هو حلم الإنسان منذ قديم الزمان. فقد حلم ببساط الريح الذي يحمله من مدينة إلى أخرى، وتم له ذلك حين اخترع الطائرات التي تحمله حيثما شاء وحلم بالوصول إلى الكواكب الأخرى، فتيسر له ذلك بعد اختراع المركبات الفضائية التي أوصلته إلى القمر.

وقد اتجه غزو الفضاء في قصص الخيال العلمي عند طالب عمران اتجاهين رئيسيين:

- من الأرض إلى الكون

- من الكون إلى الأرض

من الأرض إلى الكون

اتجاه انطلقت فيه المركبات الفضائية من الأرض لتكتشف الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية وما خلفها. ومن الملاحظ أنه ذكر أحيانا أسماء الكواكب التي دفع بأبطاله إلى غزوها وكلها – باستثناء القمر كتابع أرضي، والمريخ ككوكب من المجموعة الشمسية – ذات أسماء من اختراعه (ميماس، أروس، المارد، ريموس، الكوكب الفوسفوري، الثقب الأسود... الخ)، وأحيانا لم يكن يذكر أسماء الكواكب المنشودة مكتفيا بتصوير كائناتها وحضارتها ومصاعب الرحلة إليها.

يبدأ طالب عمران هذا الاتجاه بوصف رحلة فضائية من الأرض إلى القمر. ومن المعلوم أن القمر هو تابع للأرض، وهو أقرب الكواكب إليها، إذ يبعد عنها بمقدار مئة ألف ميل، وهو يدور حولها مرة كل 28 يوما، ويرافقها في دورانها حول الشمس، كما يدور حول نفسه مرة واحدة كل شهر قمري، أما سطحه فقد أثبتت الرحلات العلمية أنه ليس سوى سهول وجبال جرداء، وفوهات نشأت عن اصطدام النيازك به.

في قصته 'ليس في القمر فقراء'¹⁰⁵ يجعل الدكتور طالب عمران العالم الفلكي الدكتور سامر يقوم برصد مذنب دخل المجموعة الشمسية بسرعة خارقة، خاضعا لجاذبية الشمس، وقد توقع العلماء أنه سيصطدم بالأرض، بعد أربعة أشهر، وسيحدث أضرارا قد تؤدي بحياة معظم سكانها، ولهذا يجتمع العلماء لمواجهة هذا الخطر المحقق، وتفادي اصطدامه بالأرض، فيقترح بعضهم إطلاق صواريخ بعيدة المدى، تحمل قنابل هيدروجينية، تنفجر في داخله، فتحرفه عن مساره.

ولكن هذا الاقتراح لم يحظ بالقبول نظرا لضخامة المذنب، فيقترح آخرون بناء محطات فضائية ضخمة لنقل الناس إلى القمر، حيث يصبحون في مأمن من شرّ الاصطدام المروع.

ولكن المركبات لا يمكن أن تتسع لكل البشر، فاقترنت على نقل العلماء في شتى فروع المعرفة (الفلك، والبيولوجيا، والرياضيات، والفيزياء، والكيمياء...) ومع ذلك فإنّ هذا الحد قد تم اختراقه ووضع ثمن مرتفع لنقل الناس العاديين، شرط أن يدفعوا بالعملة الصعبة، أو بالمعادن الثمينة، أو الأحجار الكريمة. أما العلماء والمتفوقون في فروع العلم والمعرفة فينقلون مجانا.

وقد تم ترحيل حوالي ربع مليون من البشر في أربعة آلاف سفينة فضائية، بعد أن تم تهيئة أماكن خاصة للهبوط ومعامل ضخمة للحفاظ على كمية الأكسجين اللازم داخل الكابينات الزجاجية الهائلة الحجم، تتسع لهذا العدد الكبير من البشر كما هيأ العلماء مزارع خاصة، له جو الأرض نفسه، ومباني، وأضواء، ومصانع تعمل بالطاقة النووية المضاعفة، محاولين نقل الحضارة البشرية إلى القمر.

وعندما انتشر نبأ هذا السفر في الأوساط العامة، ولم يعد سرا تحافظ عليه الخاصة من العلماء والأثرياء والمسؤولين، جرت عدة محاولات اختطاف لبعض السفن الفضائية من قبل مجهولين، وتعرض بعض العلماء لمحاولات من هذا النوع، وأخذوا

¹⁰⁵ طالب عمران، ليس في القمر فقراء، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2002

كرهائن ريثما يتم ترحيل أفراد الجماعة الثورية. وبالفعل فقد تم ترحيلهم، ولكنهم قذفوا في الوجه الآخر المظلم للقمر دون لباس خاص ليتجمدوا في الجو الشديد البرودة، والمفرغ من الهواء.

أما الدكتور سامر فقد بات يشعر بالحنين إلى الأرض التي غادرها، ويقرف من الحياة الاصطناعية الجافة التي يعيشون فيها على سطح القمر، حيث الليل القمرية الطويلة التي يمتد أربعة عشر يوما من أيامنا الأرضية، وحيث النهار المصنوع بواسطة الأنوار الكهربائية. والسماء السوداء، أين منها سماء الأرض الزرقاء الجميلة نهارا والمرصعة بالنجوم المتألئة ليلا. كل شيء هنا اصطناعي لا جمال فيه، حتى الشمس تبدو كثقب أبيض في سماء سوداء.

ومن هنا كانت رغبة الدكتور (سامر) في العودة إلى الأرض وإلى الحياة الطبيعية، ولو أن الدمار يهددها، ولكن كيف يمكنه إقناعهم بالسماح له بالعودة إلى الأرض.

لقد أقنعهم بأن عودته ستفيدهم في كشف الكثير من خفايا المذنب الهائل وقت اقترابه من الأرض، واصطدامه بها، وبأنه سيتمكن من دراسة المواد المكونة للمذنب، وقد كانت هذه هي رغبة زوجته وولده أيضا، وقد قبل بهذه التضحية حبا بالأرض وسكانها.

وبالفعل فقد جهزت سفينة فضاء صغيرة انطلقت بهم إلى الأرض، واستطاع الدكتور سامر أن يجنبها الكثير من المصاعب، ولا سيما طلائع مواد المذنب المتفتتة والتي بدأت بالإنجذاب نحو الأرض، خاضعة لجاذبيتها.

وقريبا من سطح الأرض تم فتح المظلات الأربعة المتينة، لتتمكن السفينة من الهبوط بسلام فوق منطقة قريبة من مدينة الدكتور سامر.

أما الحياة على سطح القمر فقد أفسدها البشر، حيث انتشرت حالات الفسق والعريضة والقمار، وامتألت الكازينوهات بدواليب الحظ والفجور، والجمعيات والنوادي غصت بمن ترفه عنهم من المترفين والمحظوظين، بخلاف سكان الأرض الذين ظلوا فيها،

فقد انضبط الأمن والنظام فيها، بواسطة كتائب حفظ النظام التي ألقت القبض على كل المشاغبيين الذين استغلوا فرصة هرب أسيادهم إلى القمر، فنصبوا أنفسهم أسيادا بدلا عنهم، وقد انعدمت الجريمة والرشوة والفساد، وعاش الناس في تراحم وتواد ما دام لم يبق من أعمارهم سوى أربعة أشهر.

وقد توج هذا كله بمفاجأة سارة ومذهلة، حين اكتشف الدكتور سامر أن المذنب بدأ يغير اتجاهه وينحرف عن مساره المتوقع، و أنه لن يصطدم بالأرض وإنما بالقمر. وأعاد حساباته أكثر من مئة مرة، فأكدت له هذه الحقيقة، كما أكدها له العلماء الذين اتصلوا به من القمر طالبين منه النجدة والمساعدة.

وهكذا وضع الكاتب نهاية الأثرة والأنانية، عندما جعل المغادرين يهربون من قضاء الله فيقعون في قضاءه، ويظنون أنهم ناجون من الهلاك فإذا هم هلاك محتم، وهذا هو عقاب كل الأنانيين والانتزاهيين الذين يؤثرون أنفسهم على كل ما عداهم.

يقول محمد عزام في هذا الصدد: "وهكذا يختلف خيال الدكتور طالب عمران، وبالتالي فكره، عن خيال وفكر من سبقه من أدباء الخيال العلمي ممن كتب في الوصول إلى القمر، فإذا كان رائد أدب الخيال العلمي الإنكليزي ه. ج. ويلز قد جعل الكائنات القمرية تبدو ذات شكل منفر منفوش كالأشواك، وقد اشتبكت مع رواد الفضاء الأرضيين في قتال عنيف، استطاع فيه رواد الفضاء الأرضيون قتل العديد من سكان القمر، فإن خيال الدكتور طالب عمران يبدو أكثر واقعية ومعقولة حين لا يجعل القمر أهلا بالسكان، لمعرفته العلمية بواقعه، وحين يجعله غير صالح للحياة البشرية، ولهذا اضطر البشر الذين هاجروا إليه من العيش داخل كابينات زجاجية واسعة يتوافر فيها كل ما تتطلبه حياة الكائن البشري من أكسجين ونور وغذاء، إضافة إلى أن خيال الدكتور عمران لم يذهب إلى الحرب والقتال بين الأرضيين والقمريين كما ذهب

خيال الأدباء الغربيين الذين كانوا ينطلقون من واقعهم الاستعماري، ورغبتهم حتى في استعمار الكواكب الأخرى¹⁰⁶.

كما تجاوز الدكتور طالب عمران توفيق الحكيم الذي كان قد نشر مسرحيته 'تقرير قمري' و'شاعر على القمر' عام 1972 فجعل في الأولى الرائد يهبطان على سطح القمر، فيثيران اهتمام سكانه الذين أرسلوا اثنين منهم إلى الأرض لمعرفة سكانها، وقد عاد القمرين بفكرة عظيمة عن جشع سكان الأرض وأنانيتهم، وجعل في الثانية، سكان القمر كائنات خالدة لا تعرف الموت أو الميلاد، لأنها طاقات فكرية تتجدد من تلقاء نفسها، كالضوء والروح. وهي تتأمل من أجل سكان الأرض الذين يفتنون قمرهم الجميل بحروبهم، ويدمرون سلامه وأمنه.

وعلى الرغم من أن أول إنسانين هبطا على سطح القمر هما الأمريكيان (أرمسترونج وألدرين) في عام 1969، فإنه يبدو أن الحكيم لم يعر هذه الإنجازات العلمية اهتماما، فأصر على وجود سكان قمرين، وجعلهم أرواحا خالدة، أو بالأحرى طاقات من النشاط والفكر.

وفي غزو الأرض للمريخ وضع الدكتور طالب عمران روايته 'فضاء واسع كالحلم'¹⁰⁷. ومن المعلوم أن المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض. وقد تم إرسال المركبتان السوفيتيتان 'فايكنغ 1، 2' إليه في عام 1972 فهبطتا على سطحه، ولكن إمكانيتهما في التصوير لم تستطع الكشف عن مناطق تبعد أكثر من مئة متر.

وفي العام نفسه اكتشفت المركبة الأمريكية (مارينر 9) أن سطح المريخ يحتوي على بقع وخطوط ترتبط بالفوهات النيزكية، وأن غلافه الجوي يتكون من غاز الفحم وكميات أقل من الآزوت والآرغون وبقايا نادرة من الأوكسجين وبخار الماء. أما الماء فمستحيل الوجود على سطحه، لأن خفة الضغط تؤدي إلى غليان الماء وتبخره، كما أن كمية الأوكسجين الموجودة لا تكفي لتنفس الكائن المماثل للكائنات الأرضية

¹⁰⁶ محمد عزام، طالب عمران: خيال بلا حدود، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006، ص: 102
¹⁰⁷ طالب عمران، فضاء واسع كالحلم، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1997

وندررة الأوزون تترك للأشعة فوق البنفسجية حرية الوصول إلى سطحه. وقد أجرى علماء الأرض في مختبراتهم ظروف الأجواء المريخية، من أجل اكتشاف إمكانية الحياة على سطحه، فلم يصلوا إلى نتيجة مقنعة.

ولعل تركيب الغلاف الجوي للمريخ اليوم يشبه ما كان عليه غلاف الكرة الأرضية قبل ملايين السنين، حيث لم يكن – آنذاك – صالحا للحياة النباتية أو الحيوانية، ولعل هذه المرحلة من تطوره تتيح المجال لنشوء أشكال دنيا من الكائنات الحية، وقد وضع العلماء هذه الأمور في اعتبارهم.

ولعل هذا ما جعل الدكتور طالب عمران يخمن بوجود حياة فوق سطح الكوكب الأحمر (المريخ) الذي قيل: إنه مر بمراحل تطور الأرض نفسها، ويبدو أن القروء التي أرسلت إليه قبل البشر، ورأت على سطحه كائنات غريبة تراقبها عن بعد، هي التي أكدت وجود حياة على سطحه، وجعلت علماء 'مدينة العلوم العربية' يقررون إرسال مركبة فضائية إلى المريخ، تحمل رواد فضاء من البشر، بعد أن كانت قد أطلقت سفنا فضائية إلى الكواكب الأخرى، ودرست تأثير الفضاء الخارجي على كائنات الأرض، ولفتت انتباههم التغييرات الفيزيولوجية التي طرأت على القروء التي أرسلتها بداخلها. فقد ازدادت نسبة ذكاءها خمسة أضعاف.

أما 'مدينة العلوم العربية' فقد كانت كالحلم، فأصبحت حقيقة واقعة، وهي مدينة علمية مشيدة تحت أرض قاحلة في المحيط الهندي، على عمق عشرات الأمتار، يشرف عليها علماء عرب متفوقون، قدموا من أصقاع الدنيا، للإسهام في صنع حضارة حديثة تعيد لأمتهم مجدها الغابر.

وقد بدأت فكرة المدينة بالولادة حين اجتمع بعض العلماء العرب ممن يعملون في بلاد الغربية، حيث تتحكم فيهم الاحتكارات الأجنبية، ومنذ الشهر الأول أنشأوا محطات تشويش متطورة، لكي لا يكتشفهم أحد، وبنوا المدينة تحت أرض صخرية، وسقفوها بجدار من المعدن، ونجحوا في حمايتها من أجهزة التجسس وطائرات الاستطلاع والأقمار الصناعية.

وقد وصل ماجد إلى هذه المدينة العجيبة، ورضي بالعمل فيها. أما الذين يرفضون فيتركون في زوارق نجاة صغيرة، في طريق السفن، بعد أن يسدل علماء المدينة العربية على ذاكرتهم ستارا من النسيان.

والمدينة مجهزة بكل وسائل البحث وبالمؤسسات العلمية، ففيها مدارس نموذجية، وجامعة تكنولوجية، ومعاهد علمية للبحث وحدائق ومختبرات للأبحاث، وهناك مضخات جبارة لضخ الهواء وتنقيته، ومحطات تستقبل ضوء الشمس وتعكسه ليصل سماء المدينة، للإضاءة والدفء، والمدينة تحقق اكتفاء ذاتيا في كل شيء.

ويبدو أن هذه المدينة العلمية العربية هي حلم الدكتور طالب عمران، فقد جعلها تيمة في كثير من قصصه ورواياته، فقد ورد تصويرها أيضا في روايته 'العابرون خلف الشمس'¹⁰⁸. وإذا كانت في رواية 'فضاء واسع كالحلم' مشيدة تحت أرض قاحلة في المحيط الهندي، فإنها في رواية 'العابرون....' مبنية تحت رمال الصحراء العربية.

وقد قرر علماء 'المدينة العلمية العربية' إرسال مركبة فضائية إلى المريخ تحمل أربعة رواد هم 'يمان' الذي كان قد حلق فوق المريخ، وعاد بعد أن قضى خمسة عشر شهرا في رحلته، و'نادية' أول رائدة فضاء هبطت على سطح القمر، وقد قضت عدة شهور في المجمع المداري، و'خلدون' المهندس الرئيسي في المجمع المداري حول الأرض، و'نادر زكي' عالم الفلك الذي كان في المجمع المداري حول الأرض.

ورغب 'ماجد' المهندس الميكانيكي في أن يكون رائد فضاء احتياط في هذه السفينة، فأخذ موافقة مجلس المدينة العلمية، وخضع لتدريبات قاسية: جسمية ونفسية، وركوب طائرات ذوات سرعات فائقة، والتحليق على ارتفاعات هائلة، والهبوط بالمظلات، والخضوع لدرجات منخفضة من البرودة، وقياس التجاوب الذهني، ومثانة الأعصاب، والقيام بتمرينات رياضية شاقة لعدة ساعات في اليوم.

¹⁰⁸ طالب عمران، العابرون خلف الشمس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1979

و في ساعة الصفر انطلقت المركبة الفضائية 'ابن النفيس 3' و بداخلها رواد الفضاء الأربعة، بالإضافة إلى ماجد، باتجاه المريخ، عن طريق القمر، و حالما حلقت المركبة فوق القمر، انفصلت عنها محطة صغيرة هبط بها ماجد ونادية في مهمة إلى المحطة القمرية الأوتوماتيكية التي تبث صوراً باستمرار إلى المحطة الفضائية الأرضية، و قد كان بها عطل بسيط أصلحته نادية قبل أن تتجول و ماجد على سطح القمر، حيث شاهدوا معالمه: بحر العواصف، و فوهة كيبلر البركانية. و المشي على سطح القمر كالفقر بسبب ضعف جاذبيته الذي تبلغ سدس جاذبية الأرض، هم عادا إلى محطتهما الصغيرة التي التحمت بعد ذلك بالمركبة التي ستتجه نحو المريخ.

ازدادت سرعة المركبة فبلغت مئتي ألف كلومتر في الثانية، و أسلموا قيادتها للعقل الإلكتروني الذي ما لبث أن أعلن إشارة الخطر عندما انفلتت السفينة بسرعة 400 ألف ك.م. / ثا و كأنها خاضعة لجاذبية جسم مجهول، و شعر الرواد بصداع هائل يفلق الرأس.

دارت السفينة حول الكوكب اللامع قبل أن تهبط على سطحه بسلام، و بدأ للرواد أن أرجلهم قد دقت بمسامير إلى أرضه، و لا بد أن هذا الكوكب ضخم جدا كي يمتلك كل هذه الجاذبية القوية.

انفتح باب المركبة فاندفعوا للهبوط بتأثير قوى مجهولة . سمعوا همسا بكلمات غير مفهومة، ما لبث أن تحولت إلى جمل عربية وصلت إلى أسماعهم وسط استغرابهم الشديد، و بدأ حوار كائنات الكواكب المجهولة معهم:

- أهلا بكم فوق الكوكب اللامع، نحن من سكان الكوكب، نختلف عنكم فزيولوجيا، لذلك لن ترونا الآن.

كانت الكائنات غير المرئية تخاطبهم، و تقودهم إلى أعماق الكوكب، لتريحهم حضارة الكوكب العلمية المتطورة، حيث يزين سماءه قمر يدور حوله مرة واحدة في اليوم، و إن عدد سكان كائنات هذا الكوكب ستة مليارات، و هم منقسمون إلى فئات علمية،

مهمتها البحث في اتجاهات المعرفة المختلفة، وعبر شاشات التلفزة شاهدوا تاريخ الكوكب ومعالمه الحضارية. عادوا بهم إلى ملايين السنين، حيث كانت كائنات الكوكب تتقاتل. أروهم كيف كافحوا طويلا لإيجاد نظام متطور نبذوا فيه البغضاء والأنانية، فكونوا مجتمعات تعاونية اندمجت، بمرور الزمن، في مجتمع واحد، طوروا فيه الطموحات حتى توصلوا إلى صنع الأجهزة المتفوقة وغزو أعماق الفضاء.

وعلى الرغم من أن أشكالهم كانت قريبة من أشكال البشر، فإنهم تخلوا، فيما بعد عن أشكالهم المادية، فتلاشى التكوين المادي لأجسامهم، ولم تبقى سوى طاقات مكثفة أفرغوها في المدخرات، وهم يفهمون كل لغات الكون، ويتخاطبون فيما بينهم بلغة الموسيقى، وقد أنهوا النزاع بين سكان الكواكب التي تدور حول شمسهم، وتكاثروا فيما بينهم بالحب والتعاون الجماعي، ولم يكن على كوكبهم ما يسمى بمساكن أو أسر أو عائلات أو بلدان ذات حدود. وتشغل اهتمامهم سيطرة الرياضيات السماوية التي تدرس النجوم وأعمارها ومستقبل المواد التي تكونها، فأصبحوا يعرفون ما سيحدث بعد آلاف السنين، بفضل قوانين الاحتمالات الفائقة الدقة.

وقد نشرت كائنات الكوكب اللامع هواء غنيا بالأوكسجين، وصنعت أجهزة لامتناهات الإشعاعات، فشعر رواد الفضاء الأرضيون بالراحة والانتعاش والقوة فخلعوا كماداتهم.

كما قربت كائنات الكوكب اللامع صورتها إلى رواد الفضاء الأرضيين، فتمثل لهم بعضها بشرا يشبهونهم ويشكلون نسخا ثانية عنهم، وهم يرجون بهم بلغة عربية فصيحة قائلين:

- أهلا بضيوفنا.

ثم قادهم الدليل تارا (الذي يعني بلغتهم حامل الحكمة) ليريهم معالم حضارة كوكبه قائلًا لهم: إن أجهزة حضارتنا قد كشفت الحضارة الفيزيولوجية الأرضية، وتعرفت على كوكب الأرض الذي يبعد خمس سنوات ضوئية .

وقد استغرب الرواد الأرضيون كيف تحملت سفينتهم الفضائية هذه السرعة الهائلة التي كانوا فيها خاضعين لجاذبية الكوكب، ثم تبينوا السبب فإذا هو مجال الطاقة المكثفة الذي صنعه كائنات الكوكب حول سفينة الفضاء، فمنع عنها التأثير بالسرعات الهائلة التي زادت على سرعة الضوء .

وقد رغبت منهم كائنات الكوكب اللامع البقاء فيه، فاستصعبوا ذلك بسبب كونهم موادا مقيدة بعالم محدود، ثم اختاروا البقاء لا حبا بالخلود، بل شغفا بالمعرفة، ما عدا ماجدا الذي حاول 'تارا' إقناعه بالبقاء، قائلًا إنه بعد عودته سيرى زوجته وقد كبرت ثلاثين عاما، وابنته وقد أصبحت شابة وربما تزوجت، وأن هذا سيكون قاسيا عليه. لكن ماجد لم يفتنع، ورغب في العودة إلى الأرض وحده، فرافقه في رحلة العودة إلى الأرض والتي لم تستغرق طويلا، لأن سرعة المركبة كانت قد تجاوزت سرعة الضوء.

وعندما هبطت المركبة في (المدينة العلمية العربية) التي أصبحت تابعة (للوطن العربي الموحد) كان قد مضى على مغادرتها وعودتها ثلاثون سنة أرضية.

ويحدد الكاتب تحقيق حلم آخر هو "توحيد" الأمة العربية في منتصف الستينيات القرن الحادي والعشرين، فهل يمكن تحقيق هذا الحلم بهذه السرعة، دون مقاومة من العم سام أو الأم الأوربية الحنون؟.

عاد ماجد إلى مدينته، فلم يعرفه صديقه أحمد الذي كبر ثلاثين عاما، بينما لم يكبر ماجد سوى شهر واحد، بسبب سرعة الزمن على الكرة الأرضية وبطنه في السرعات الهائلة، كما لم تعرفه زوجته التي أصبحت جدة، وابنته التي أصبحت تكبره في العمر،

ولم يعد ثمة فارق في السن بينه وبين أكبر أطفاله، وهكذا يبدو الزمن أكبر عدو للإنسان، وأكبر سارق للسعادة.

وعندها قصد ماجد مجلس المدينة، وحكى لهم ما حدث له، وكيف وصلت بعثته إلى الكوكب اللامع، وظل أفراد طاقمها في الكوكب اللامع المتطور، وكيف لم يستطع أن يعلن عن نفسه لأسرته ونويه، فقرر المجلس عدم عودة ماجد إلى أسرته، لأن ذلك سيكون وبالاً عليها.

وعلى الرغم من أن ماجد قد عرف أحمد بنفسه، وعرف ابنته بنفسه، فإنهما لم يقتنعا كثيراً، وحذراه من أن يعلن هذه الحقيقة لزوجته، لأن الخبر سيكون صاعقاً عليها، فلم يجد أمامه سوى العودة إلى الكوكب اللامع مع صديقه 'تارا'، ليتحول في المستقبل إلى طاقة تتلاشى في كوكب آخر.

وهذا بالطبع خلاف ما أظهره كتاب أدب الخيال العلمي الغربي الذين جعلوا لقاء الرواد الأرضيين بكائنات العوالم الأخرى صدامياً.

وفي روايته 'العابرون خلف الشمس' يرسل الدكتور طالب عمران مركبة فضائية أخرى إلى المريخ، ولكنها تظل طريقها. ويحكي فيها قصة طيار تتعرض طائرته لزوبعة مغناطيسية فوق رمال الصحراء، يتعطل محركها، ويسقط على الأرض مغشياً عليه، وعندما يستيقظ يجد نفسه في مشفى مدينة علمية عربية شيدت تحت رمال الصحراء، يشرف عليها علماء عرب متفوقون، قدموا من جميع الأرجاء، ليسهموا في صنع حضارة حديثة تعيد لأمتهم العربية مجدها الغابر. وقد بنوا مختبراتهم هذه تحت الأرض، وأثاروا الزوابع المغناطيسية كي لا تتمكن أجهزة التجسس أو طائرات الاستطلاع من كشفهم. وقد وقع الطيارون في مطبات هذه الزوابع وأجريت عليهم الدراسات في حالة فقدانهم الوعي، فمن وجدوا لديه الاستعداد للعمل معهم تركوه بينهم، ومن راوغ ومكر وضعوه على أطراف الصحراء، قرب مدينة، وأسدلوا على ذاكرته النسيان.

وقد توصلوا، في تجاربهم إلى إرسال مركبة فضائية، وبداخلها قرد، استطاعت أن تهبط على المريخ، وأن تعود إلى الأرض، فدرسوا التغيرات الفيزيولوجية التي طرأت على تفكير القرد، ووجدوا نكاهه ازداد خمسة أضعاف ما كان عليه. وقد ظل فترة طويلة، بعد عودته يقوم بحركات غريبة، ويقلد أصوات ذبذبات إلكترونية، ويرسم خطوطا عجيبة تدل على تصورات مذهلة حملته ذاكرته.

فأعدوا مركبة جديدة اسمها 'ابن حيان'، بداخلها عدد من رواد الفضاء. انطلقت إلى محطة القمر، حيث تزودت بالوقود، ثم واصلت رحلتها إلى المريخ، بتوجيه من المحطة الأرضية. ولكنها تدخل في مذنب شديد الضخامة والاتساع، فتنهال عليها النيازك والأتربة المعدنية كالرصاص، ويتعطل جهاز الاتصال بالأرض، وتنفلت المركبة خارج المجموعة الشمسية بسرعة هائلة وكأنما هي خاضعة لجاذبية نجم هائل.

وأخيرا حطت المركبة على سطح كوكب فوسفوري، كان يبدو شديد التألق واللمعان. وحين هبط الرواد على أرضه التصقت أقدامهم بها، بسبب شدة جاذبيته، فلم يستطيعوا الحركة وأحاطت بهم مخلوقاته التي تختلف عن سكان الأرض في مواصفاتها الفيزيولوجية، فهي ترى الرواد، دون أن يراها الرواد، وتتعرف لغة الأرضيين من أذهانهم.

أما الحياة على هذا الكوكب الفوسفوري فغاية في الدقة والإحكام، حيث يعيش فوقه مئة مليار كائن. وليس له حكام أو ولايات، وإنما تنقسم الكائنات فيه إلى فئات علمية، مهمتها البحث في اتجاهات العلوم المختلفة، وهم لا يسكنون بيوتا، وليس لديهم أسر أو عائلات، لأنهم بلا فناء. ويتخاطبون بلغة الرموز والأرقام والرياضيات. ويدرسون حياة النجوم وأعمارها ومستقبلها، ويعلمون ما سيحدث بعد آلاف السنين، بفضل قوانين الاحتمالات الفائقة الدقة.

وأما تاريخ هذا الكوكب فيعود إلى ملايين السنين الفوسفورية، حيث كانت تتقاتل الكائنات المادية فيما بينها. ولكنها استطاعت، بعد ذلك أن تخلق لنفسها نظاما معيناً،

تنبذ فيه الحقد والبغضاء، في مجتمع واحد متمائل. وطورت طموحاتها، واهتمت بالموسيقا والرياضيات والحب، واستطاعت أن تلاشي تكوينها المادي، حيث لم يبق منها سوى طاقات خلاقية مبدعة غزت الفضاء وأنهت النزاع بين سكان كواكب الشمس الفوسفورية.

وقد رغبت هذه الكائنات اللامادية أن يبقى طاقم المركبة عندها، أما الطاقم فيرغب في العودة إلى الأرض، ولكن الأرض تبعد أكثر من عشر سنوات ضوئية، فكيف تمكن العودة؟.

إن البقاء على هذا الكوكب سيجعلهم، بعد زمن، كائنات غير مادية، وسيفقدون أجسامهم، وربما أتاحت لهم العودة إلى كوكبهم الأرضي بعد ألف سنة مثلا. ولكن ما الفائدة؟ وهل سيجدون من تركوهم على الأرض على حالهم ويختار قائد الرحلة البقاء على هذا الكوكب، والخلود، شغفا بالمعرفة. أما البطل فيرفض الخلود، أملا في العودة إلى زوجته وطفله اللتين تركهما على الأرض تنتظران عودته. ولقد وصلت كائنات الكوكب الفوسفوري إلى قمة الحضارة بفضل الروح الجماعية لديها، وتخلصها من الميول الفردية التي كانت سائدة في العهود البعيدة، فلفظت الحقد والأثرة والكرهية، وعاشت أسرة واحدة متحابية و متعاونة غايتها العلم والمحبة، واستطاعت بقدراتها الفذة أن تصل إلى المجرات البعيدة.

ومع ذلك فإن طاقم الرحلة يرفض الخلود، ويرغب في العودة إلى الأرض. وقد نظمت لهم هذه الكائنات الشفافة رحلة العودة، بتقنياتها المتطورة. وحين تحط مركبة الفضاء، بطاقمها على الأرض، يكون قد مضى على رحلتها أسبوعان، حسب الزمن الكوني، و عشر سنوات حسب الزمن الأرضي.

عاد طاقم الرحلة إلى كوكب الأرضي، بعد أن عذبه الشوق والحنين طويلا، ولكنه فوجئ بما رأى: جبال فتحتها أنفاق الانفجارات، غابات احترقت وتشوهت، مدن مسحت عن وجه الأرض، أشلاء مخلوقات تتحرك، حيوانات مشوهة تتبعثر ، الذعر في كل العيون، والذهول على كل الوجوه، والحرب الذرية دمرت كل شيء.

لقد تبخرت الأحلام الوردية التي عاش عليها طاقم المركبة: أين الزوجة التي تنتظر عودة زوجها الغائب؟ وأين الابنة التي تنتظر عودة أبيها المسافر؟ وأين الأهل والجيران والأصحاب؟ لقد دمرت الأحقاد و المظامع كل شيء.

ومن الواضح أن الروائيتين: فضاء واسع كالحيم، والعابرون خلف الشمس تتشابهان حتى لتكادا تتطابقان. فكلتاها تنطلقان من (مدينة علمية عربية) شيدت سرا تحت الرمال، بعيدا عن عيون الفضوليين، وكلتاها أطلقت مركبة فضائية، باتجاه المريخ من صنع العلماء العرب، تحملان اسمي عالمين عربيين: ابن النفيس وابن حيان. وكلتاها لا تحطان على كوكب المريخ، وإنما تجذبهما جاذبية كوكب آخر : اللامع في الأولى، والكوكب الفوسفوري في الرواية الثانية .

و كائنات هذين الكوكبين، في الروائيتين، كائنات غير مرئية، آمنت بالعلم والسلام بين الكواكب، وعملت من أجل ذلك. وهي خالدة ما دامت قد تحولت إلى طاقات، وقد رغبت من الرواد الأرضيين البقاء، فأثر بعضهم ذلك، ورغب الآخرون في العودة إلا أن العودة كانت مؤلمة بالنسبة للعائدين: فماجذ في الرواية الأولى يفاجأ بالفارق الكبير بين عمره وعمر زوجته وابنته، ويكظم الحقيقة في نفسه، ثم يختار العودة إلى الكوكب اللامع مع صديقه (تارا)، و(بطل الرواية الثانية يجد الحرب الذرية فتكت بسكان الأرض وأحالت الحياة البشرية إلى مأس، والأرض إلى خراب، دمرتها الأحقاد والمظامع البشرية، وأخفق في العثور على زوجته وابنته .

وهكذا يعطينا عمران در ساء، من خلال شكل روائي فني، في ضرورة التعاون والمحبة حين يقارن بين مجتمعين: المجتمع الأرضي الذي قادتته أنانيته إلى الدمار، ومجتمع الكوكب اللامع أو الفوسفوري الذي يعيش حياة الحب والعلم والتعاون والنظام، في خلود دائم.

ثم يتابع الدكتور طالب عمران إرسال السفن الفضائية إلى الكواكب، فيختار هذه المرة كوكب 'ريموس' في قصته 'النداء الأزلي'¹⁰⁹ حيث حطت سفينة الفضاء المجهزة بأحدث العقول الإلكترونية فوق سطحه الأجرد الذي يحوي نسبة من الأوكسجين أقل مما يحويه جو الأرض.

وصلت إلى أسماع رواد الفضاء أنغام موسيقية، وشعروا بأن هناك من يقودهم، فانساقوا طائعين دون إرادة، تتقدمهم 'ديما' التي تبحث عن زوجها رائد الفضاء الأرضي الذي تعرفت عليه في 'أكاديمية علوم الفضاء' في كوكب الأرض عام 2075م، حيث كان يحاضر في المجموعات النجمية، فشدها حديثه، وألهبت كلماته مشاعرها، وهي تنتقل عبر الكون اللانهائي. باحت له بحبها، فتلقفتها يداه بحنان، وأحسست أنها تطير كفراشة وسط مروح مليئة بالأزهار ، بدأت تبكي حبا وفرحا وهي تسمع عبارات الغزل منه، والتي لم تكن موجودة في قواميس اللغة، وكان زواجا ناجحا.

وصلت شجرة انحنى لها، فظهرت من تحتها فتحة مربعة الشكل، تقضي إلى درج مضيء، يصل إلى نفق تشع جدرانه بضوء أحمر باهت. اقترب منها كائن عريض ذو أطراف عديدة، تعلوه قبعة صغيرة تهتز في أعلاها قرون استشعار، مرحبا:

- أهلا بزائرتنا، كوكب ريموس يرحب بك.

وفتح باب في الجدار ، فوجدت نفسها في قاعة فسيحة، في صدرها كرسي مرتفع يجلس عليه كائن يشبه الكائن الذي استقبلها. وحوله كائنات أخرى ترتدي ثيابا من أعشاب، فبادرت :

- جئت من كوكب الأرض أنشدكم العون في البحث عن حطام سفينة سقطت قبل مدة فوق كوكبكم دون أن تتمكن من معرفة مصير ملاحها.

¹⁰⁹ طالب عمران، مساحات للظلمة - مجموعة قصصية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1992

أخبرها الكائن أن سفينة فضائية من كوكب الأرض قدمت إليهم قبل أعوام، فاقتتل ملاحوها بعد وفاة رئيس البعثة في حادث مشبوه، فأدى ذلك إلى أضرار لحقت بكوكب 'ريموس'، مما جعل كائناته ترسلهم في سفينة إلى كوكب بعيد كي لا يتمكنوا من إلحاق الأذى بأحد، وأخبرها أن زوجها نفته جماعتها الأرضية بعيدا عن المجموعة الشمسية في مركبة فضائية تتجه الآن نحو الشعري اليمانية بسرعة خارقة، وقد أبعده لأنه وحده الذي يعرف سر الاختراع الكبير الذي صممه في تسيير المركبات الفضائية التي تنزود بالطاقة من الأضواء الخافتة للنجوم.

وقد استطاعت رائدة الفضاء الأرضي 'ديما' أخيرا الوصول إلى زوجها الذي ساعدتها في إنقاذه كائنات كوكب 'ريموس'.

إن قضيتين هامتين تشغلان فكر الدكتور طالب عمران، وبالتالي خياله العلمي الذي يبحث لهما عن حل هو 'حلم' في يومنا هذا، هما: هذه المركبات الفضائية التي تغزو الكواكب وما ينبغي أن تتوافر لها من تقنيات علمية تختصر المسافات الكبيرة بسرعات هائلة، وهذه الحضارات الكونية في الكواكب المعمورة.

وأما سفن الفضاء فأحد الأهداف المتوخاة منها أن تكون عالما ذا اكتفاء ذاتي يوفر لسكانه الطعام. وقد كان طعام رواد الفضاء أقراصا مضغوطة يكفي الواحد منها وجبة كاملة أو معاجين، ويسترد الماء من مخلفات الأجسام، ويتكرر تجديد هوائه بتنقيته من النشادر الذي يتسرب إليه من البول ... ففي هذا العالم المغلق تماما المعتمد كليا على ذاته في تجديد حياته، يصبح الإنسان جزءا من عملية ميكروبيئية مستمرة تدور في الفضاء اللانهائي

وأما السفينة ذاتها فينبغي أن تتوافر لها العقول الإلكترونية التي تقود السفينة، وتصلح الأخطاء، وتنبه إلى الأخطار ... والوقود اللازم لقطع هذه المسافات الكبيرة، وقد اقترحت له عدة حلول: الطاقة الذرية، وأخذ الطاقة من النجم الوالد، أو من الشمس، أو من النجوم المرئية. وكلها ما تزال (خيالا علميا). والتصفيح الذي يجعل معدن المركبة لا ينصهر في مثل هذه السرعات الهائلة.

وأما الحضارات الكونية، التي يطلع عليها رواد الفضاء الأرضيون، فكلها أكثر تطوراً ورقياً من الحضارة الأرضية. وكلها تعمل من أجل العلم والعقل والسلام كي تعم هذه الأقاليم الثلاثة أرجاء الكون كله.

يؤكد هذا قصته 'كوكب أوروس'،¹¹⁰ حيث ينطلق فيها العالم الفلكي 'همام' المكلف بدراسة الأجرام السماوية بين المريخ والمشتري، برفقة 'لينا' عالمة الأحياء والكائنات الغريبة، و'نادر' عالم التقنيات و العقول الإلكترونية.

وتنطلق السفينة من مدارها حول الأرض باتجاه القمر، حيث ستهبط بمحطة قمرية لإصلاح خلل طرأ على العقل الإلكتروني في المدينة العلمية 'دلتا'، ثم تتابع خط سيرها المقرر لدراسة الكويكبات الموزعة بين المشتري والمريخ.

فيعترضها الكوكب 'أوروس' الذي يدور حول نفسه كل 6 ساعات (أي أن يومه يعادل 6 ساعات)، ويدور حول الشمس كل سنة وتسعة أشهر (أي أن سنته كذلك) فيصبح موضوع الدرس، وإنه جرم صخري ميت، لا يوجد فوقه غلاف جوي، وبالتالي فلا حياة فيه، ومن الممكن استخدامه من قبل كائنات عاقلة كمحطات استراحة خلال الرحلة الفضائية الطويلة، لأن مساره يتداخل مع مساري الأرض والمريخ أحياناً.

ولكن نبضات موجية ونشاطا إشعاعيا قويا ينبعث من سطحه. ويتمكن المنظار اللايزري من كشفه، والذاكرة المركزية في العقل الإلكتروني من ترجمته، فإذا هو نداء استغاثة.

هبط همام ولينا بمحطتهما الصغيرة على سطح الكويكب. ثم امتطيا عربة طائرة للاقتراب من البقعة الحمراء لمعرفة نداءات الاستغاثة المنبعثة منها، ولكنهما تعرضا لموجات إشعاعية عنيفة، فأحسا بصداع رهيب، وأعمالا الجهاز الوافي من

¹¹⁰ طالب عمران، شحنة الدماغ - مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

الإشعاعات، واخترقاها إلى البقعة الحمراء، فإذا هي مكعب معدني هائل الحجم ينشر حوله الدخان الأحمر، وقد ترجم العقل الإلكتروني هذه الاستغاثات فإذا هي:

- أهلا بالإخوة في العقل، ننتظركم منذ وقت طويل.

دخلت العربة الطائرة المكعب الغريب، ثم ولجت ممرا، فانبعث منه صوت يحذرهما:
- الجو ملوث بالغازات السامة لا تخلعا خوذتيكما. اصعدا الدرجات على اليمين وافتحا الباب.

فعلا ما أمرا به، فإذا شيخ طاعن في السن، يجلس على كرسي، يستقبلهما، مرحبا بلغة عربية

- أهلا بكما. منذ زمن بعيد وأنا أنتظر زيارة كائنات عاقلة لتتنقذ ما بقي من حضارتنا المندثرة، نحن كائنات الكوكب الخامس، الذي كان موجودا بين كوكبي المشتري والمريخ، لقد انفجر منذ سنوات طويلة، وأنا أنتظركم لأسلمكم الأمانة التي أحتفظ بها بملفات وأشرطة مبرمجة على عقول إلكترونية متفوقة، يمكن معرفة محتواها بعد ترجمتها بوساطة العقل الإلكتروني..

لقد تطورت الحضارة الأوروسية حتى أصبحت التقنية فيها كل شيء، ولكن دببت الخلافات فيها، فأصبحت أقاليم ودويلات، وتفشت الأنانية بينها ففجرت أسلحتها التدميرية ضد بعضها، حتى تم تدمير الكوكب بالقنابل الذرية المضاعفة، ولم يبق منه سوى هذا الشيخ، الكائن الوحيد الشاهد على تفوقها واندثارها، يسلم ما تبقى من آثارها الحضارية لمخلوقات الحضارة الأرضية، قبل أن يضمحل جسمه ويتلاشى، بعد أن سلم الأمانة.

هذه هي قصة الحضارة على كويكب 'أوروس' الذي يدور حول الشمس، ليس وحده، وإنما هناك أيضا كويكبات مثيلة له تدور حول الشمس مثل 'سيريس' الذي يدور حول الشمس كل (600) يوم، و'هيدالكو' الذي يدور حول الشمس كل (13) سنة

و(8) أشهر، و 'أنوميا' الذي يدور حول نفسه كل (3) ساعات، و 'سيرمنا' الذي يدور حول نفسه كل (9) ساعات و(40) دقيقة، و 'بالاس'، و 'فستا' ... إلخ.

وفي قصته 'كوكب الأحلام'،¹¹¹ يجعل د. طالب عمران سفينة الفضاء العربية 'ابن رشد' تحط فوق الكوكب 'المارد' في 'سديم المرأة المسلسلة'. ويهبط منها رجال الفضاء: ماجد، ووالده، وداليا، ورؤيا، ولم يكن ماجد قد رأى كوكب الأرض، وإنما كان يسمع عنه من والده الذي كان يحدثه عنه. وقد ولدته أمه في إحدى سفن الأبحاث، وهي تتجه إلى 'سديم المرأة المسلسلة' قبل سنين عديدة، أما والده فيبلغ عمره تسعين سنة فضائية، والسنة الفضائية تعادل مئات السنين الأرضية.

نزل ماجد وداليا ورؤيا إلى دغل قريب، فسمعوا أصوات موسيقية عذبة تناديهم بأسمائهم، تنبعث من الأزهار الجميلة التي تغني، فتصيب المرء بغيبوبة تفقده عقله، إذا استمع إليها، ونظر إلى جمالها، وقد كانوا يعلمون هذه الحقيقة، ولكن 'داليا' رغبت في قطف زهرة جميلة، لأخذها عينة إلى مخابر التحليل، فسقطت مغمى عليها.

وفي قسم التلفزة الصناعية في المحطة بدأ كبير علماء الفيزياء عمله من أجل رؤية العالم العجيب الحالم الذي بدأت تسرح فيه 'داليا' وهي غائبة عن الوعي، وتسجيل ذلك الحلم على شاشة التلفزة المضاعفة التي تترجم تفاعلات المخ إلى صور سينمائية مجسدة. وقد شاهد الجميع على الشاشة كائنا ضخما يعاقبها، لأنها لم تحترم التقاليد التي تنص على عدم التدخل في شؤون الكوكب، وعلى تبادل الخبرات والمساعدات في القضاء على الجرائم الكونية، وعلى نشر المحبة والسلام بين سكان الكواكب.

وفي صباح اليوم التالي تركت البعثة العلمية الأرضية بعض النماذج المتقنة الصنع، لهياكل أرضية، وبعض الأجهزة التكنولوجية المتطورة، هدية لسكان الكوكب 'المارد'. وشقت سفينتها عباب الفضاء، متجهة إلى كوكب جديد ومغامرة جديدة.

¹¹¹ طالب عمران، كوكب الأحلام - مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1970

إن عمران يرغب في أن تعم الكون لا العالم فحسب، قيمتان أساسيتان هما: العلم والسلام، وهو يرى أنه لن يكون هنالك سلام دون توجيه العلم الوجهة الإيجابية التي ينبغي أن يوجه إليها. وهي الارتقاء بمستوى البشر، والتعمق في الأبحاث العلمية والفلكية التي تجعلهم يطلعون على حضارات كواكب أخرى، ويتواصلون معها، بما يخدم البشرية. ومن هنا جاء تأكيده على تثبيت قيم المحبة والخير والعدل، ورغبته في أن تعم هذه القيم الكون بأسره.

في قصته 'سفينة الفضاء غاما' يتجه المهندس الفلكي ماجد بسفينته الفضائية إلى كوكب 'زحل' للتعرف على جوّه وطبيعته وتكوينه. ولكن السفينة تحط على سطح 'ميماس' أقرب أقمار زحل إليه، بعد أن خضعت لقوة جذب تحريضية، وضعها سكان ذلك الكوكب حوله، لحمايته من أخطار الكواكب الأخرى.

واستضافتهم الهيئة العليا للبحث في التابع 'ميماس'، وتحولت بهم في مركبة صغيرة، ذات نوافذ زجاجية، ليتعرفوا على حضارة الجرم السماوي وتطوره العلمي، ما دام هدفهم علميا، وليس عدوانيا.

ولكن أصدقاء ماجد ظنوا أنه خضع لكائنات التابع 'ميماس'. ولذلك قرروا الهروب، دونه لكيلا تستخدمهم الكائنات العاقلة في هذا الكوكب، كعينات في مختبراتها البيولوجية، للتعرف على عضوية الجسم البشري، وطريقة عمل خلاياه الدماغية. وهربوا بالفعل، بسفينتهم الفضائية، غير عابئين بتحذيرات هيئة البحث في 'ميماس'، بأنهم يتجهون في اندفاعهم خارج المجموعة الشمسية، مما بذر الخلاف بينهم، وجعل أحدهم يهدد الآخرين بمسدسه اللايزري. وتقرب سفينتهم من الكوكب 'نبتون' الخافت الضوء، ثم تصطدم بسطحه، محدثة انفجارا هائلا، واضعة - بذلك - عقابا قاسيا للخيانة وعدم الالتزام العلمي.

وفي قصته 'ذلك الثقب الأسود'¹¹² يعتمد د. عمران فرضية علمية قالها علماء الفلك في الثلاثينيات من القرن العشرين، وهي أن النجوم القديمة إذا تلاشت فإنها تمتلك قوة امتصاص هائلة تجعلها تمتص كل ما يقترب منها، فإذا مرت نجمة ضمن هذه الدائرة امتصها الثقب الأسود، ونتجت عن ذلك أمواج هائلة من الأشعة السينية.

فيدفع بالمركبة الفضائية 'ميدور' إلى الإقلاع باتجاه الثقب الأسود، عام (2200م)، في رحلة كشف علمية، وعلى متنها مجموعة من الرواد من مختلف الاختصاصات، وقد توزع كل منهم خلف الجهاز الذي اختص به.

وقد استقبل العقل الإلكتروني في المركبة رسائل موجهة، قام بتحليلها، فإذا هي: (هنا مركز الأبحاث الفضائية للكوكب 'زيتا'، أنتم تقتربون منا، نرجو أن تعرفونا بوجهتكم).

فأجابه العقل الإلكتروني: (إننا نتجه صوب مجموعة 'الحزام البرتقالي' للاكتشاف نحن في مهمة علمية).

بيد أن قوة هائلة اجتذبت السفينة الفضائية، وعندما تعرفوا عليها، إذا هي محطة ضخمة تابعة لجرم سماوي جذبتهم إليها، قبل أن يجذبهم الثقب الأسود. وفي هذه المحطة رأوا التقدم العلمي المنشود الذي يبحث هو أيضا في ماهية 'الثقب الأسود' المخيف.

والكوكب 'زيتا' يبلغ حجمه ضعف حجم الأرض، وهو يدور حول نجمة ميتة أكبر من الشمس بمرة ونصف، وهو في مركز المجرة، ولذلك كانت حضارته متطورة وسباقه في التعرف على الحضارات المجاورة. وكانت أشكال كائناته غريبة: "رأس مفلطح كبير، عيان واسعتان، أذنان كبيرتان منتصبتان. رأس خال من الشعر، رقبة طويلة، وجسم طويل نحيل، بأيدي كثيرة". وتصحبهم هذه الكائنات لتريهم أقسام المحطة: فهذا

¹¹² طالب عمران، شحنة الدماغ - مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

قسم حيوانات التجارب، وفيه عينات من الكائنات الحية، من أغلب الكواكب التي زارتها بعثاتهم الاستكشافية، يجرون عليها التجارب لتحسين أنواعها، بالتهجين، ومعرفة طرق القضاء على الأنواع المؤذية منها، وذاك قسم البحث والاتصالات يربطهم بكل العوالم حولهم، وينقل الرسائل بواسطة الليزر، وذلك قسم دراسة الثقب الأسود الذي بإمكانه ابتلاع نجوم حجمها أكبر بسبع مرات من حجم الشمس، ولكنه ينبذ كل كائن حي، فلا يبتلعه.

ويتفق الطرفان: المركبة الأرضية، ومحطة كوكب 'زيتا'، على إرسال مركبة إلى داخل الثقب الأسود، وبداخلها 'أحمد' من المركبة الأرضية، و'روني' من محطة الكوكب 'زيتا'، ليبتلعها الثقب الأسود الذي ما يلبث أن ينبذها، بعد أن يحول الرائدتين إلى شعاع يسطع ثم يختفي، فقد عادت روح الرائد دون جسده، مجرد ذبذبات موجية، وطيف دون جسم. والغريب أن زوجته 'ناديا' تحولت هي الأخرى إلى روح دون جسد، رغم أنها لم تغامر بالولوج في الثقب الأسود الذي يبعد عن الأرض حوالي (500) سنة ضوئية.

إن حلم الاتصال بحضارات الكواكب الأخرى، والتعاون معها في سبيل اكتشاف الفضاء، وعقد صداقات مع كائنات العوالم الأخرى هو ما يؤكد الدكتور عمران في معظم قصصه العلمية، فهو يرغب في نشر قيم الحق والخير والعدل ليس بين البشر فحسب، بل وبين سكان العوالم الأخرى، مما يجعل أدبه العلمي ذا رسالة حضارية سامية. وعلى الخصوص عندما يجعل العلم والعقل والسلام محاور أساسية في أدبه.

كما وضع د. عمران قصصا لم يسم فيها الكوكب الهدف، مكتفيا بتصوير التقدم الحضاري الذي بلغته كائنات هذه الكواكب، ففي روايته 'خلف حاجز الزمن'¹¹³ يصور عمران سفينة فضاء أرضية تحط بعد رحلة طويلة فوق كوكب شبيه بالأرض. ويبدأ رجل الفضاء المكلف بمهمة دراسة الكوكب بتجهيز نفسه، ولباسه الفضائي، وأدواته الإلكترونية المتفوقة. ثم يجلس بين الأشجار الغريبة في هذا الكوكب،

¹¹³طالب عمران، خلف حاجز الزمن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1985

يتفحصها بمنظاره اللايزري: طالعه حيوانات صغيرة تتحرك على أغصانها، وطيور كبيرة الحجم تحمل في أرجلها مقاعد تجلس فيها كائنات قريبة من البشر في شكلها.

بدا له الكوكب مسكونا بكائنات عاقلة، تستخدم طيورة جارحة في تنقلها، والحضارة المتطورة التي تستوطن على سطح هذا الكوكب تنتشر في أمكنة ظاهرة للعيان، تراقب المحطة الفضائية. أما أجواء الكوكب فملينة بالأموج المختلفة التي تبثها محطات خارقة القوة مجهولة المصدر.

أحس بحركة خلفه، فالتفت ليجد خمسة كائنات تخاطبه بلغته العربية مرحبة به، و مطمئنة إياه، وطالبة منه أن يزيح غطاء الرأس الواقى، ليتنفس من جو الكوكب المليء بالأوكسجين. وأكملت الفتاة وكأنها قرأت أفكاره: "يوجد القليل من غاز 'السيانيد'، لكن تأثيره ليس خطراً، لأننا نشرنا في الجو غازا خاصا يحد من خطورته"¹¹⁴.

رافق الكائنات إلى محطتها الفضائية الصغيرة التي طارت بها، بسرعة خيالية، إلى مدينتها العلمية التي بنيت فوق أقرب توابع الكوكب. حدثته الفتاة عن كوكبهم قبل آلاف السنين، حين كانت تسيطر عليه طغمة شريرة، انفردت بثرواته، واستعبدت أبناءه، حتى نشبت ثورة أطاحت بزوي القصور والمعابد، ونشأ مجتمع جديد، يقوم على المحبة والعمل، كل في مجال اختصاصه. رأى العمال يعيشون في 'فيلات' صغيرة محاطة بالحدائق الجميلة، وحيوانات مدجنة نزعوا منها غريزة العدوان، وطيورا جارحة طوروا حاسة الإنذار لديها فأصبحت شديدة الحساسية تجاه المؤثرات الخارجية، واستعملوها للرصد، في تنقلاتهم. شاهد أبنية تجرى فيها التجارب على تحول المادة إلى طاقة ضوئية، وجدهم وقد حللوا تكوينه العضوي، وتفكيره، وتصورات، ومكتسباته العلمية.

¹¹⁴ نفس المصدر

أما الموت فإنهم لا يعرفونه. فما دام الكائن يعمل ويتحرك فإنه لا يتلاشى. ويمكنه أن يظل حياً ما دام يريد الحياة. ولكن بعضهم يصيبه - أحياناً - ما يسمى بالرغبة في الانفلات، فيتلاشى. وحين يتلاشى تظل قواه الذهنية حاضرة توجه تصرفات من حوله. وأما بعد الزواج فإنهم لا يسمحون للأسرة بأن تنجب أكثر من طفلين: صبي وفتاة.

أرته الفتاة المرافقة محطة القدرة السمعية التي تلتقط الأصوات، وتحللها وتفك رموزها، بوساطة شبكة استقبال، وأجهزة حاسبة، و برمجة خاصة، وهي تستقبل الأصوات من الفضاء الخارجي. تحدث مع محطة البث الأرضي التابعة لقاعدته، وطمأنهم على سلامته وسلامة أجهزته.

ثم قادته إلى المحطة الذهنية ذات الأمواج الخارقة السرعة التي تسحق القدرة الذاتية في الفرد، وتسيره كآلة، مستغلة طاقته الذهنية ضمن اتجاهات تقمع غريزة العدوان. أرته غابات أشجار صناعية لها مهام علمية في تحسين جوالجرم، وتحليل المزيد من الأكسجين اللازم للحياة.

عرفته بمحطة القدرة البصرية التي تتغلغل في الجوهر، وتتعرف على خفايا الكون، وتستطيع أن ترى المدار الذي يرسمه الإلكترون حول النواة، كما تستطيع أن ترى كيف يتحرك الإلكترون أو الذرة بكل أجزائها. ومنها تمكن مراقبة شخص من كوكب آخر. فرؤيتها قادرة على النفاذ داخل السحب والأغلفة الجوية، والتغلغل إلى مسافات شاسعة. أرته، على شاشة المحطة، الكون والمجموعة الشمسية، ونجومها، والكرة الأرضية، رؤية خارجية غير محدودة بتفاصيل. أرته 'قمر الحب' وهو الكوكب التابع لجرمهم، والذي لا يرسلون إليه إلا العاشقين المخلصين، لقضاء فترة، يعودون بعدها من أجل تكوين أسرهم.

قادته إلى مركز الاختبار الذهني، حيث يستطيع المرء اختبار الذكاء والمعاملة والطف والمرونة... إلخ. وحيث يستطيع قراءة المخ كصفحة مكتوبة...

أحبته وأحبها فمنحهما المجلس الاستشاري الموافقة على زيارة 'قمر الحب' الذي لا يستقبل إلا العشاق. وقد اجتازا فيه عدة اختبارات قاسية، أكدت نتائجها إخلاصهما لبعضهما بعضاً، ولكنه وقع تحت وطأة قوى مجهولة الأشرار من كوكب آخر، أرادوا السيطرة على عقله، وتوجيهه في خدمة رغباتهم الشريرة. ولم يستطع الخلاص من تأثير هذه القوى اللعينة. وأخيراً وضع في مركبة فضائية لتعود به إلى الأرض.

وفي قصته 'البحث عن عوالم أخرى'¹¹⁵ يحدد الدكتور عمران عام (2090م) موعداً لانطلاق السفينة الفضائية من الأرض نحو 'ألفا قنطورس' أقرب نجم إلينا في المجرة، وعلى متنها ستة رواد فضاء من مختلف الاختصاصات: فالدكتور 'إياد' قائد السفينة، و'سامي' معاونه، و'ناديا' المشرفة الطبية، و'ديما' مهندسة الاتصالات، و'أحمد' الخبير الجيولوجي، و'خالد' مهندس المحركات الأوتوماتيكية.

وقد انطلقت السفينة الفضائية كمدينة عائمة، مخلفة وراءها سحب كثيفة من الدخان. واخترقت جو الأرض بسرعة هائلة لتتخذ لها مداراً حولها، قبل أن تتجه، في مخطط مدروس، نحو المجمع الفضائي الذي يدور حول 'بلوتو' أبعد الكواكب عن الشمس.

دارت السفينة مرتين حول الأرض قبل أن تنطلق من جديد، في مسارها نحو المجمع الفضائي، معتمدة على الطاقة الذرية المضاعفة التي توفر لها الانطلاق بسرعات هائلة وفق برمجة أحدث العقول الإلكترونية.

اجتمع الرواد الستة في الصالة المركزية، وقال الدكتور إياد قائد الرحلة: إنهم بعد أن يغادروا حدود المجموعة الشمسية سيستغرقون 14 سنة للوصول إلى 'ألفا-قنطورس'، وأن عليهم الدخول في مرحلة سبات لعدة سنوات، حيث تنام أجسامهم بأقل جهد من أعضاء الجسم دون أن تصرف أية طاقة جسمية، وأنهم سينتابون السبات، وأن العقل الإلكتروني المركزي هو الذي سيتحكم في إيقاظهم.

¹¹⁵ طالب عمران، الخروج من الجحيم - مجموعة قصصية، دار الفكر المعاصر دمشق، 2009

حول 'بلوتو' التحمت السفينة بالمجمع الفضائي الهائل للتزود بالوقود الذري، والغذاء المصنع، والفحص الشامل للسفينة من قبل العقول الإلكترونية المتفوقة.

على المجمع الفضائي الضخم يعيش (160) رجلا وامرأة من مختلف الاختصاصات العلمية، ومن دول عديدة غالبيتهم من العرب. وقد استقبلوا سفينة الفضاء العربية استقبالا حافلا لكونها أول سفينة فضاء تتجاوز المجموعة الشمسية.

وفي المجمع تعرفت 'ديما' على الدكتور 'عادل' صديق والدها المتوفى، وقد مضى عليه سبعة أعوام في هذا المجمع الفضائي.

ثم انطلقت السفينة بسرعة هائلة في فراغ كوني شاسع، واستغرق أربعة من روادها في 'سبات شتوي' بعد أن أقفلت عليهم الصناديق الزجاجية. فظل اثنان لمراقبة المحركات الأوتوماتيكية وأجهزة البث والإشراف على برمجة العقول، الإلكترونية وأجهزة الاستقبال الراداري.

وفجأة انبعث من جهاز الإنذار أزيز متواصل، وأعلن العقل الإلكتروني المركزي محذرا من محطة فضائية غريبة الشكل تقترب من السفينة . استفسر أحمد من العقل الإلكتروني المركزي:

- هل هي مسيرة من قبل كائنات عاقلة؟

- نعم- كائنات - غريبة - تسيرها.

كانت حالة طارئة استدعت إيقاظ الرواد الأربعة من سباتهم عن طريق موجات من الصدمات الكهربائية. وبعد أن تم ذلك، أرسل قائد الرحلة اثنين من الرواد في قارب فضائي نحو السفينة الغريبة، وأوصاهما بالحدز الشديد، خرج القارب الفضائي بهدوء متجها صوب السفينة الغامضة، شعر سامي وخالد بقوة جذب هائلة تشدهما نحو هذه السفينة ذات الشكل الأسطواني الغريب، دخل القارب من فتحة في وسط الجسم المجهول، وأغلقت البوابة التي انفتحت لهما، فوجدا عشرات الكائنات الغريبة الشكل

تحيط بهما، ذات هياكل متطاولة نحيلة، ورؤوس تشبه رؤوس البشر، وعيون جاحظة و آذان كبيرة.

سمع الرائدان صوت هذه الكائنات تردد:

- مرحبا بإخوتنا في العقل إلى أين تقصدون في مساركم يا سامي؟

بدأ تطورهم التقني هائلا، وكذلك قواهم الذهنية التي قرأت أفكار الرائدتين وتعرفت عليها.

- نحن في رحلة بحث نحو أقرب نجم إلينا نسميه (ألفا - قنطورس) لنستكشف الحياة حوله.

- أنتم من الكوكب الأزرق؟

والأرض تبدو زرقاء في أجهزة الرصد الكونية، عرفتهم الكائنات بنفسها: إنها من كوكب 'كارون'، عاشر الكواكب بعادا عن الشمس. وقد كان خاليا من الحياة قبل أن يستوطنوه. وقد كان أجدادهم يعيشون فوق 'سيرا' أحد توابع زحل ذي الحلقات الجميلة. ولكن كارثة كونية حدثت لسيرا إذ ارتطم به نيزك فأهلك القسم الأكبر من سكانه، مما أرغم الباقين على الرحيل إلى 'كارون' واستيطانه، على الرغم من ضعف جاذبيته، ووجود الكربون فقط في جوّه، مما جعل جلودهم وأجهزتهم الجسمية تتأقلم معه. ولكن كارثة كونية جديدة حلت بالكوكب 'كارون' حين اصطدم به أحد المذنبات، فأنهي حياة الغالبية العظمى من كائناته، ودمر الأجهزة والمحطات الآلية التي كانوا يستخدمونها. فانطلقت مركبتهم للبحث عن كوكب صالح للحياة يمكن أن ينتقلوا إليه، فوجدوا الكوكب السابع في ترتيب البعد عن النجم 'ألفا - قنطورس' جوا ملائما. وهم يطلبون مساعدة رواد المركبة الأرضية لنقل البقية الباقية من كائناتهم إلى الكوكب السابع الذي يدور حول النجم 'ألفا - قنطورس'.

تدارس رواد المركبة الأرضية الأمر، ثم قرروا إنقاذ ما تبقى من هذه الحضارة الكونية التي حلت بها كارثة كبيرة. فاستجابوا لطلب الحكيم 'سيروس'، واتجهوا بسفينتهم نحو الكوكب 'كارون' لنقل ما تبقى من كائناته إلى الكوكب السابع.

كانت المدينة المركزية في كارون محطمة، بعد أن كانت مستودع علومهم و معارفهم. لم تكن هنالك أشجار أو نباتات لأن كوكب كارون ضعيف الجاذبية ولا يحتفظ إلا بهواء قليل، كما أن الماء المكون من هيدروجين وأوكسجين ليس موجودة على سطحه، وكانوا يأتون بالطاقة من باطن الكوكب. لأن سطحه كان باردا تقارب درجة حرارته (273) تحت الصفر. وكانت محطات الإنارة تنير كل أجزائه، لأن نهارهم مثل ليلهم مظلم، وقد ساعدهم الكربون المخزون في الحفاظ على درجة حرارة معينة لا تؤثر فيها البرودة الزائدة.

صعد إلى السفينة الأرضية ثلاثمئة كائن كاروني هم كل ما تبقى من الحضارة الكارونية التي كان قانونها قائما على الحب والتعاون في سبيل التقدم والازدهار، فليست هنالك ضغائن ولا خلافات. وحين يلتقي الرجل بالمرأة يكونان أسرة بعدد محدد من الأطفال. ثلاثة على الأكثر. ويوضع الأطفال في المدارس، ثم في معاهد البحوث، أما متوسط الأعمار لديهم فكبير، فما دام الكائن فاعلا ومنتجا فإنه يعيش طويلا: مئة عام، أو ألف. وعندما يشيخ يقل إنتاجه، فيضمحل جسمه رويدا رويدا، ويختفي دون أثر، ولا يبقى من ذكره سوى عمله الفردي المسجل على أجهزة الذاكرة المرئية. وعمر الحكيم 'سيروس' ثمانمئة عام وما يزال منتجا.

وانطلقت السفينتان: الأرضية والكارونية في رحلة طويلة نحو 'ألفا - قنطورس' أقرب النجوم في المجرة للشمس. وعندما عرف الحكيم 'سيروس' الفارق بين سرعتي السفينتين، فسرعة انطلاق المركبة الأرضية لا تتعدى (60) ألف ميل في الثانية، وسرعة انطلاق السفينة الكارونية ثلاثة أضعاف هذه السرعة، عرض على الدكتور إياد تغليف السفينة الأرضية بأموج الطاقة لحمايتها من مخاطر السرعة الهائلة، ولتتمكن من الوصول إلى سرعة الضوء.

وقد استلمت الكائنات الكارونية قيادة السفينة الأرضية، فازدادت سرعتها بالتدريج حتى أصبحت مساوية لسرعة الضوء، وقد كانت هذه السرعة سببا في اختصار مدة الرحلة إلى الثلث، بينما استسلم الرواد الأرضيون للسبات والأحلام والكوابيس المرعبة. وكانت كائنات كارون تتابع أحلامهم هذه.

أيقظ العقل الإلكتروني المركزي الرواد الأرضيين من سباتهم، بعد أن دخلت السفينة مجال أسرة 'ألفا قنطورس'، واتجهت نحو الكوكب السابع الذي ستوطن فيه الكائنات الكارونية.

ودوى صوت العقل الإلكتروني: "بدأنا نقترّب من كوكب عملاق يدور حوله عشرون قمرا، قد يكون بعضها صالحا لحياة الإنسان، ويبدو جو أقربها مائلا إلى الزرقة شبيها بجو الأرض، وترتيبه التاسع في البعد عن ألفا قنطورس. وبدأت الكاميرات عملها.

هبطت القوارب الفضائية على سطح الكوكب السابع محملة بكائنات الكوكب كارون التي ستستوطنه.

وقد أصيب الدكتور إياد بهبوط مفاجئ في نبضات القلب، لم تنفع معه كل المنشطات والوسائل العلاجية وحتى الصدمات الكهربائية، فمات، ووضع في تابوت محكم الإغلاق، وألقي به خارج السفينة، ليظل يدور حول الكوكب السابع.

درست سفينة الفضاء الأرضية حياة مجموعة كواكب 'ألفا قنطورس' وإمكانيتها للحياة، ثم قررت الهبوط على سطح الكوكب الرابع الشبيه بالأرض، والذي يحتمل فيه وجود الأوكسجين. وحيث يوجد الأوكسجين توجد الحياة. بعد أن بثت رسالة إلى علماء الأرض تعلمهم فيها بعزمها. و ستمر أربع سنوات وربع حتى تصل هذه الرسالة، وستمر مثلها لتلقي الرد، أي تسع سنوات تقريبا.

وهبطت المركبة الصغيرة على سطح الكوكب الرابع، وأكد الإنسان الآلي أن الجو يحوي نسبة عالية من الأوكسجين، فخلع الرواد كماماتهم، وتنفسوا هواء الكوكب لدقائق، كان كوكبا جميلا تحوي مياها وغابات. وهو كوكب صالح للحياة البشرية ..

وفي قصته 'كتلة حية بحجم الأرض'¹¹⁶ يصور لنا الدكتور طالب عمران التطور التقني والحضاري الذي بلغه العرب في عام (2500م)، حيث قررت 'أكاديمية بحوث الفضاء العربية' إرسال سفينة فضاء نحو الازدحام النجمي في قلب المجرة، تحمل خمسة رواد، هم: عالم كهل مشرف، وشابين في العشرين علاء وإبراهيم، وفتاتين في السادسة عشرة هبة، وسلوى. وقد انطلقت بهم السفينة من قلب المجمع المداري على حافة المجموعة الشمسية، قريبا من مدار الكوكب العاشر 'كارون' بسرعة الضوء البالغة (300 ألف كم/ثا).

ولكن جسم ضخم بحجم كوكب الأرض يعرض طريقهما وتكاد سفينتهم تصطدم به. وتتعلل أجهزتها فلم تعد تستجيب للأوامر، وينبعث من الكتلة الضخمة صوت يرحب بهم قائلا:

- أهلا بالإخوة في العقل.

وحين يحاولون معرفة مصدر الصوت يقول لهم: أنا موجود بينكم، يمكنكم رؤيتي، وبالفعل يظهر بينهم شيخ وقور بلحية بيضاء، ما يكاد يوجههم إلى فوهة الجسم حتى يختفي. فلم يصدقوا وجوده أهو شبح أفرزته ذاكرتهم؟ أم هو حقيقة من كائنات العوالم الأخرى تشكل لهم بصورة بشرية كيلا يكون غريبة عن أذهانهم؟.

ثم بدأت تتداعى ذكرياتهم، فيستعيد كل منهم صورا عن طفولته وشبابه، وكان هذا بفعل أجهزة العالم المضيف الذي تأكد من ماضيهم المشرف، فرحب بهم في الكوكب العائم، حيث استقرت سفينتهم الفضائية فوق أرض عجيبة متحركة من الكوكب، وحيث تنتفخ مناطق وتخرج منها كائنات تتناول، وتنشق أكياسها، لتخرج إلى الضوء وهي شبيهة بالبشر.

¹¹⁶ طالب عمران، شحنة الدماغ - مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

وحيث يبرز أمامهم كوكب عملاق، قيل لهم: إن سفينتهم ينبغي أن تدخل في جوفه، لأنه سيكون وسيلتهم في الوصول إلى المجرة، وبسواه لن يتمكنوا من الوصول، لأن سرعته أضعاف سرعة الضوء، ولأنه سيقبهم الأجرام الشاردة، والنجوم المتلاشية التي تمتص المادة وتفنيها.

وتتجح السفينة في الوصول إلى الكوكب الرابع الشبيه بالأرض، والذي تحيطه السحب، ويفصل رائدان عن المركبة بمحطتهما، مخترقين الغيوم التي تسبح في سماء الكوكب إلى المنطقة المقررة لهبوطهما، وما يكادان يهبطان فوق سطح الكوكب، ومعهما العقل الإلكتروني، حتى يفاجآن بطبق طائر فوقهما يبث رسالة شعاعية، ترجمها العقل الإلكتروني، فإذا هي:

- مرحبا بالإخوة في العقل.

ويهبط الطبق قريبا منهما، وينزل منه كائنات ضئيلان، يتحدثان العربية قائلين:

- نحن غريبان مثلكما، جننا من كوكب 'الشعاع' في طرف المجرة. هذا الكوكب مأهول. إنهم يراقبوننا، يختبئون خلف الأشجار، حضارتهم مسالمة. إنهم يشبهون بشر الأرض.

وهكذا يحقق التطور التقني المعجزات، إذا ما وضع في خدمة الخير والعقل والسلام، حيث يمكنه أن يحقق حوار الحضارات الكونية وتواصلها.

وفي قصته 'الخروج من الجحيم'¹¹⁷ يدفع د. عمران بسفينة الفضاء المتطورة في عام (2091)، بالاتجاه نحو الأرض في رحلة العودة، وبداخلها 'سامر' الذي انفصل عن المحطة الضخمة المتغلغلة في المجرة، عائدة إلى الأرض، بعد أن ترك في المحطة رائدين للفضاء، زوداه بأشرطة مغناطيسية تحوي معلومات هائلة عن الرحلة والكواكب البعيدة، والمذنبات المحيطة بالمجموعة الشمسية.

¹¹⁷ طالب عمران، الخروج من الجحيم - مجموعة قصصية، دار الفكر المعاصر دمشق، 2009.

بيد أن الدكتور نادر مدير المحطة الفضائية عاد فأبلغه قرار علماء المحطة 'ألفا' بعدم عودته الآن إلى الأرض، لأن البشر دمروا كو كبهم الأرضي الجميل بالحرب النووية، وكان العلماء على متن المحطة القمرية يراقبون ما يجري على الأرض، وقلوبهم تنفطر حزنا وألما وهم يشاهدون مدنا بأكملها تباد، ويتناثر حطامها في الجو، وملايين من البشر يمحون من الوجود بطرفة عين بعد انفجارات مرعبة، وحفرا هائلة الاتساع تنفتح، وأشجارا تحترق، وحيوانات تتفحم. لقد كانت المناظر التي يبعثها التلفزيون اللايزري تفوق الوصف.

ولكن 'سامر' يصمم على الهبوط على الأرض المدمرة، بحثا عن حبيبته 'لينا'، على الرغم من خطر الإشعاعات الذرية، فيوافق الدكتور نادر بعد تردد، على أن يرافقه 'ورد'، الإنسان الآلي، وهما يرتديان الألبسة العازلة للإشعاعات، على الرغم من ثقلها.

اقتربت المحطة الصغيرة من المنطقة التي حددها المجلس العلمي في المحطة القمرية لهبوطها، وهي تخترق السحب الركامية السوداء الناجمة عن الغبار والأتربة، والدخان الناتج عن الانفجارات والحرائق، حيوانات شوهاة تضطرب، ومخلوقات تتحرك بذهول، وعيون صعقها الرعب والذعر، وأطفال ابيضت شعورهم، وشوهدت الكارثة ملامحهم البريئة، وجثث متفسخة، وأنقاض متراكمة. كانت المشاهد أكبر من أن يتحملها 'سامر' ففقد وعيه، فأسغفه الإنسان الآلي 'ورد' بشحنة مقاومة جديدة.

هبطت المركبة على سطح الأرض المدمر، ونزل منها سامر وورد، و سارا بعيدا عنها فلم يشاهدا أثرا لمخلوق حي. ثم اكتشفا إنسانا مشوها يلفظ أنفاسه الأخيرة، بعد أن أعمته الإشعاعات الذرية وأحرقت جلده، قال لهما وهو يحتضر: إنه هرب من الملجأ العميق تحت الأرض بعد أن نفذ الماء والغذاء ليبحث عن غذاء لابنته الصغيرة التي كادت تهلك جوعا.

بحثا عن النفق المجهز للحماية من القنابل الذرية حتى وجداه ، طرقا باباه المصفح فوصلهما صوت حاد عبر الميكروفون:

- ابتعدوا من هنا.

- أنا قادم من المحطة القمرية، أرتدي اللباس الواقي من الإشعاع، أريد أن أتكلم مع المسؤول عن هذا الملج.

- ابتعدوا من هنا.

وحين أبلغهم أنه يحمل أغذية وأدوية ومياها مغلفة بالرصاص، ومؤمنة ضد الإشعاع. فتحوا لهما الباب المزدوج، فعبرا إلى باب ثان، وثالث ...

قابلهما الدكتور نادر المدير المشرف العلمي على الملجأ، وشكا إليهما حاجة اللاجئين إلى الأغذية والمياه، بعد أن خسفت أرض مخزن مؤونة الملجأ فجأة، ففقدوا الغذاء. وقام الإنسان الآلي ورد بتحديد مكان الغذاء المفقود بالأشعة المركزة، ثم حفر نفقا طويلا إليه، واستخرجه.

سأل سامر عن حبيبته لينا فقيل له: إنها ربما تكون في ملجأ مركز البحوث العلمية الذي يقع خارج المدينة، وقد استغرب الدكتور نادر أن تكون حبيبة سامر لأنها شاخت بينما ما يزال سامر شابا. قيل له: إن سبب الفرق هو أن سامر سافر كثيرا في الفضاء بسرعات هائلة، يتوقف فيها الزمن، لذلك لم يظهر عليه الكبر! .

انطلق سامر وورد يبحثان عن الملجأ المذكور، كان الظلام كثيفا، والرياح عاصفة، وقد انخفضت درجة الحرارة إلى (57) تحت الصفر، وحجبت الشمس طبقات من السحب السوداء المتراكمة، وانهمرت ثلوج سوداء ملونة بالغبار. إنه الشتاء النووي. وعانت الصراصير والجرذان فأصبحت واردة دمار الكوكب الأرضي بعد الإنسان، لعدم تأثرها بالإشعاعات.

وجد 'ورد' باب الملجأ فأزاح الأنقاض من فوقه، وطرقه بشدة، فأجابه صوت بالراديو :

- من هناك؟

- أنا رسول من المحطة القمرية، أحمل مواد طبية وغذائية .

لا نحتاج لهذه المواد، كل شيء متوافر عندنا .

وعندما طمأنهم سامر بأنه يرتدي لباس مضاد للإشعاع، فتحوا الأبواب المزدوجة، فولجوا غرفة التعقيم. كان أضخم ملاجئ المدينة وأقواها. استقبلهما الدكتور عصام مرحباً، وفاجأهما بوجود 'لينا' حبيبة سامر والمشرفة على محطة توليد الطاقة: سيدة في عقدها الخامس، تغلف وجهها مسحة من الجمال. جمدا في مكانيهما ثم اندفعا إلى بعضهما بعضاً، تشابكت الأيدي، ثم كان عناق. افترقا قليلاً غير مصدقين، ثم اشتبكا ليحسا أنهما ليسا في حلم.

أصر سامر على اصطحابها معه إلى المحطة القمرية، على الرغم من رغبتها في البقاء في الملجأ لحاجته إليها كمشرفة على محطة توليد الطاقة، لكنها دربت بعض مساعديها ليضطلعوا بالمهمة التي كانت موكلة إليها.

ارتدت 'لينا' بدلة الحماية من الإشعاع، وغادرت الملجأ إلى المركبة التي ستنقلهم إلى المحطة القمرية، وقلبها ينفطر حزناً وأسى على ما دمته الحرب، وهدمه استهتار البشر .

وفي قصته 'ضوء في الدائرة المعتمة'¹¹⁸ يجعل د. عمران السفينة الفضائية الأرضية تحط على سطح كوكب مظلم غامض، تنفس من هوائه مباشرة، دون الخوذة التي كانت تمدّه بالأوكسجين؟ اللازم: ترى هل يحوي هذا الكوكب الأوكسجين أم أن كائناته قد وصلت إلى مرحلة عليا من التطور العلمي جعلتها تؤمن له الجو الملائم لحياته البشرية تمهيدا لاستجوابه، وإخضاعه لقوتها.

انفتح باب وأطل منه محارب يرتدي ثياباً من القش، عيناه قرب أذنيه القصير يتن، و خرطومه يمتد بضعة سنتيمترات فوق فم ذي فتحة صغيرة، ورأس منتفخ ككرة مستديرة ترتكز على عنق طويل، فوق جسم ضخم، ويدان قويتان تنتهي كل منهما

¹¹⁸ طالب عمران، مساحات للظلمة - مجموعة قصصية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1992

بثلاث أصابع غليظة، أما أطرافه السفلية فكانت ثلاثة. اثنان منها قصيرتان يرتكز عليهما جسمه، ورجل خلفية يستند عليها عند الراحة، وهي أطول من الرجلين الأماميتين بمرة ونصف. جأر الكائن الغريب بلغة لم يفهمها رائد الفضاء الأرضي، وبإشارة تبعه إلى قاعة كبيرة تنصدرها امرأة رحبت به قائلة:

ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

- مهمة علمية يا سيدتي، كلفنتي هيئة تلقي المعلومات من الكواكب الشبيهة بالأرض أن أهبط على هذا الكوكب لأدرس جوه، وأقدم تقريرى العلمى إلى رئيسى.
- من أي كوكب أنت.

- من كوكب الأرض، ذلك الكوكب البعيد الذي يدور حول نجمة مشعة ملأت جوه ضياء ودفئة، وأعطت سكانه الحب والطمأنينة ... نحن نتم أبحاثنا العلمية السلمية في الفضاء الممتد في مجرتنا دون أية نزعات عدوانية. زرنا العديد من الكواكب الشبيهة بالأرض، وتصادقنا مع سكانها، وتبادلنا البعثات والزيارات الاطلاعية، فكونوا مطمئنين لنا. لقد اختفت النزعات العدوانية عندنا منذ عهد بعيد، منذ أن أصبحت الأرض خاضعة لنظام يتساوى فيه الجميع، ولكل حسب جهده.

طمأنها رائد الفضاء الأرضي، فطمأنته المرأة بأنه سينال كل مساعدة، وأشارت إلى رجل يجلس إلى يمينها أن يعرف الزائر على مراكز البحوث العلمية التي بنيت في مدن تحت سطح الكوكب، لأن جو الكوكب المكهرب بقوة عالية، جعل الصواعق التي تسببها السحب المتباينة الشحنة تدمر كل شيء فوق سطحه، وقد ساعدته في ذلك كائنات ملامية تحملت صواعق الجو المكهرب و تأقلمت معها، فغطته بأجسامها المنيعه وكانت بمثابة الدرع الذي حماه من الصواعق.

و كائنات هذا الكوكب نوعان: الشغيلة الذين يضبطون أمور الكوكب، ويساعدون في تثبيت النظام، وهم مخلوقات وديعة لطيفة، لكنها إذا استثيرت تجيش كالبركان، فلا يصمد في وجه قوتها شيء.

والنوع الثاني هم البحاثة الذين يستخدمون عقولهم في التغلب على المصاعب والعوائق، وفي زيادة فاعليتهم العلمية و قدرتهم في تطوير الكوكب.

أما المرأة الجميلة فهي أميرتهم، وهي من أكثرهم علما ومعرفة وقدرة على التفاهم مع أي مخلوق. وهي تحل لهم مشكلاتهم، وتساعدهم في ضبط أمورهم. ويلقبها السكان بـ 'الحكيمة'، ويمتد عمرها إلى سنين سحيقة، حيث جاءت من السحب، كما يقول المعمرون..

فحلت المشاكل، وسوت المنازعات، وأصبحت شخصيتها القادرة محط احترام الجميع، يطيعونها طاعة عمياء، ويرجعون إليها كلما واجهتهم مشكلة، أو ظهر لهم غموض.

وقد كانت تتصل برائد الفضاء الأرضي يوميا لتطمئن عليه، وهو يقوم بصنع جهاز بث لتأمين الاتصال برفيق رحلته الذي ينتظره في المحطة الفضائية التي تدور حول الكوكب، وقد أعجبت به 'الحكيمة'، وأفضت إليه بأنها قدمت، منذ زمن بعيد، من كوكب آخر، إلى هذا الكوكب، فقد كانت قيادتها كلفتها بالهبوط على سطحه مع رجلين وامرأة، وتنافس الرجلان على المرأة، وكانت لعوبا، مخالفين تعليمات القيادة، فهبطت هي على سطح هذا الكوكب، وعاشت بين مخلوقاته الوديعه تساعدهم في حل مشكلاتهم. ولكن بعد أن تم بناء المحطة الصغيرة التي ستنتقل رائد الفضاء إلى سفينته الأم، كان قد تعلق بالمرأة الحكيمة الجميلة، فباح لها بحبه، وركع أمامها باكيا وطالبة أن يظل إلى جانبها، لكنها أرسلت في طلب طبيب يعالجه من داء الحب.

وعندما حان موعد سفره ركع على قدميها باكيا و طالبا منها أن يظل معها، أو أن تسافر معه، فليست لديه القدرة على فراقها. وقد اختارت السفر منه.

وعندما التحمت المركبة الصغيرة بالمحطة الأم التفت الرائد إلى حبيبته فلم يجدها، بل وجد ورقة تبثه فيها حبها. لقد أثرت أن تبقى مع الكائنات اللطيفة في مستقبل مجهول، على أن تضحي أمام حب فردي أناني.

وفي قصته 'الحلبة'¹¹⁹ يتابع عمران طرح القيم العلمية والإنسانية والأخلاقية، من خلال الخيال العلمي، محرضاً على الحب والتعاون والتفاهم، ومؤكداً قيم الخير والعدل والعلم في هذا الكون الرحيب ...

فالحزن والأسى يعمان الكرة الأرضية، لأن الشر طاغ عليها، فالجلادون ينتشرون في كل مكان، والمشائق معلقة في الساحات العامة، والقتل والجريمة والفساد يزهو ويزدهر، و"الناس نوعان: خاضع لسلطة الملك من حراس وخدم وتجار. ونوع رافض مسجون معذب مجموع"¹²⁰.

لم يصدق عينيه: أهكذا أصبح كوكب الأرض الجميل بعد غياب سنوات قضاها في رحلة فضائية للكشف عن عوالم جديدة؟

هبط من سلم المركبة، وفوهات البنادق مسددة نحوه. وركع على الأرض يقبل تراب الوطن، هجم عليه مصارعان يحملان سيوفاً ورماحاً، ضغط على نطاقه، فانبعث منه الشعاع اللايزري الذي أسقطهما.

وهكذا ينهي عمران قصته بخاتمة سعيدة ينتصر فيها الخير على الشر في هذا العالم. هذه القصة تشبه قصة أخرى لعمران هي 'كوكب التحول'¹²¹ حيث يواجه فيها البطل جلاديه فينتصر عليهم، ويستطيع توعية الجماهير لتتقلب على طغاتها. وفيها يروي حكاية شاب يحب العلم والاختراعات. وقد أظهر تفوقاً علمياً في دراسته، مكنه من الالتحاق بأكاديمية الفلك العليا، فتم إرساله في بعثة دراسية إلى خارج وطنه، وعندما أنهى دراسته، لم يسمحوا له بالعودة إلى وطنه. ورجبوا في استثماره واستغلال علمه لتفوقه، فأشرف على أكاديمية الفضاء العليا وطورها. وكان يقوم برحلات علمية خارج المجموعة الشمسية، ويعود منها بالمعلومات الوفيرة عن الكواكب والكون.

¹¹⁹ طالب عمران، أسرار من مدينة الحكمة، دار الفكر المعاصر، 1988

¹²⁰ نفس المصدر

¹²¹ طالب عمران، أسرار من مدينة الحكمة، دار الفكر المعاصر، 1988

غير أنه، في إحدى رحلاته الفضائية، ألقى عليه القبض سكان أحد الكواكب، ورجبوا منه أن يصبح خادمة لكاهنهم، فرضخ إلى حين استطاع توعية الجماهير الغفيرة، وإثارتها على كهانها، ثم عاد إلى كوكبه الأرضي.

من الكون إلى الأرض:

وهنا يجعل الدكتور عمران كائنات الكواكب الأخرى تتواصل مع سكان الأرض، ومع غيرهم، لا من أجل غايات عدوانية أو استعمارية كما هي الحال في أدب الخيال العلمي الغربي، وإنما من أجل التطوير العلمي والتقدم الحضاري والأخوة الكونية، ففي قصته 'الحلم يدهش أحياناً'¹²² يكرس 'ماجد' حياته من أجل تأليف كتاب عن الحضارات الأخرى في الكون، فتقرب منه مركبة ضخمة تحمل رسل السلام والمحبة الذين جاؤوا يحملون رسالة سامية إلى سكان الأرض، يحذرونهم فيها من مخزون السلاح النووي الذي قد يدمر كوكب الأرض.

وقد رحب به علماء الكوكب الآخر، وأعلموه أنهم يعرفون عنه كل شيء: حبه للعلم، وعمله فيه، ورجبته في مشاهدة حضارات كونية أخرى ...

وقد حققوا له رغبته، فاصطحبوه إلى طبقهم الطائر الذي حط فوق كوكب مزدان بالخضرة، حيث استقبلته وجوه لطيفة مشعة بالحياة، لا عابسة أو مقلوبة كما هي سحنات مخلوقات كوكبه الأرضي، كذلك لم يشاهد شرطة، ولا أحذية ذات مسامير حديدية. استقبلوه مرحبين قائلين:

- أهلاً بالعقول المفكرة في الكون.

وبعد أن اطلع على منجزاتهم الحضارية في كل مجال، أعادوه إلى الأرض، وصار يحكي لزملائه عن مشاهداته، فنصحوه بزيارة طبيب نفسي قبل أن يتفاقم مرضه.

¹²² طالب عمران، شحنة الدماغ - مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

ومضى إلى الطبيب النفسي، مرغما، يعرض عليه حالته، فقال له الطبيب: لا حل لمشكلة كوايبسك سوى بالتنويم المغناطيسي لمعرفة أسباب أزمات الأرق والكوايبس التي تلاحقك.

في أحلامه كان يرى كائنات الكوكب الآخر يعرضون عليه أن ينتقل إليهم ليعيش معهم، لأن البشر سوف يدمرون كوكبهم بأنانيتهم، وبالتلوث الإشعاعي والنري، وبالصناعات المدمرة، وبثقب الأوزون ... إلخ.

وينتهي إلى قرار حاسم هو أن يرتحل معهم، باختياره، إلى كوكبهم، هربا من السحنات المقلوبة في كرتة الأرضية، ومن الوجوه الكريهة العابسة، والبساطير ذات المسامير الحديدية التي طالما انغرزت في رأسه الذي يختزن العلم الذي يرغب في أن يخدم به وطنه، بعد أن رفض الراتب الضخم والحياة المرفهة التي أغراه بها الغرب، كي يظل باحثا في مراكزهم العلمية.

لكنه فوجئ بأن وطنه في غير ما حاجة إليه، أو بالأحرى المتسلطون في وطنه في غير ما حاجة إليه وإلى علمه. مما جعله يؤثر الانتقال إلى 'الكوكب الآخر'، أو الجنون، أو الانتحار. فهذا هو أسلوب الدول المتخلفة في معاملة أبنائها المتفوقين، فهي إما أن تدفع بهم إلى الدول الغنية / الكواكب الأخرى التي تستفيد من علمهم وتفوقهم، أو أن تدفع بهم إلى الجنون والانتحار، إذا ما أثروا البقاء في أوطانهم ليضعوا علمهم في خدمتها، في الوقت الذي ليست هي فيه بحاجة إلى هذا العلم الذي أصبح مقتصرا على الغرب وحده، أما الدول المتخلفة فليست سوى مستهلكة بضائع الغرب ومخترعاته، وسوق تجارية يريد لها السيد الغربي أن تظل كذلك.

وهكذا تصبح الكواكب الأخرى مهربا لذوي العقول النيرة من واقع الفساد الذي يرى فيه العالم نفسه مذلا مهانا في بلاد لا تعرف للعلم قيمة، ولا تجعل للمفكرين والباحثين أي اعتبار، حيث تداس الكرامة الإنسانية في كل لحظة آلاف المرات، وتنتهك الحرمات والمقدسات باسم فرية لا تنطلي على ذوي العقول العاملة، أما أصحاب

العقول الخاملة فلا يحتاجون إلى شيء سوى ملء الكرش والفرج، فهذه كل قيم حياتهم الإنسانية.

ويتابع الدكتور عمران قصصه العلمي الذي يعتمد قيم الخير، في إطار معرفي وأخلاقي، داعياً إلى سعادة الإنسان ومستقبل أفضل على كوكبنا الأرضي، فيضع قصته 'سر الساعات'¹²³ التي يجعل فيها أشراراً قدموا من كوكب آخر، في مركبات فضائية، ليستولوا على الأرض، يقيمون فيها مستعمرات عدوانية، ولهذا فهم يعطلون ساعات جميع مهندسي المعمل الفضائي، لينطلق الصاروخ فجأة، وقبل مواعده المحدد، وليغوص كبير المهندسين في حلم كابوسي.

ويرسم عمران صورة لهذه الكائنات القادمة من كوكب آخر: "طالعتة أشكالها العجيبة المتباينة في حجمها وأطوالها، عيون عريضة تبرق بشرر كالنار، وأنوف ممسوحة، وأفواه مستديرة تتحرك في داخلها ألسنة مدببة، جماجم متطاولة بشعر وبري منتصب، وأذان كالأبواق، والشيء الغريب أن هذه الأشكال كان يطرأ عليها التغيير كل فترة، كأن تتناول العينان، أو تحرك الأذان إلى الأعلى والأسفل، ويأخذ الرأس شكلاً عرضية. ويتحرك اللسان داخل الفم الدائري عدة مرات، والفم تكبر وتصغر دائرته بالتالي".

ولعل هذه القصة هي القصة الوحيدة التي يجعل فيها عمران كائنات الكواكب الأخرى عدوانية ترغب في استعمار الكواكب الأخرى واستثمارها، فمن المعلوم أنه يصور حضارات الكواكب الأخرى مسالمة. وهو حين يفعل ذلك فإنه يصورها بأشكال محببة ومعقولة، بخلاف إذا ما جعلها شريرة، فإنه عند ذلك يصورها بأشكال كريهة.

ومع ذلك فإن الشر لا يمكن أن يدوم، ولا بد أن ينتصر الخير والحق في النهاية، وهكذا تم تحرير الناس بواسطة العقول الإلكترونية المتفوقة.

¹²³ طالب عمران، ليس في القمر فقراء، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2002

وفي قصته 'الأشباح'،¹²⁴ يصور عمران كائنات عاقلة ذات أشكال شبيهة بأشكال البشر، لكنها لا تعرف الكذب والخداع والحقد والأنانية، وتؤمن بالعلم والعقل وسيلة اتصال سلمي بين عوالم الكون، وقد هبطت مركبتها الفضائية على الأرض، واختار لها العقل الإلكتروني إنسانا بسيطا لإجراء التجارب على تركيب فمه، فأذهلتها الأنانية والفساد عنده، ثم نقلوه إلى كوكبهم النائي في مرة أخرى. فأروه حضارتهم المتطورة علميا:

كان تاريخ كوكبهم حروبا مدمرة، ثم قامت على أنقاضها حضارة جديدة تؤمن بالعدل والمساواة والحزم في تطبيق النظام الاجتماعي. فعم السلام ربوعه، وقفز التطور الحضاري بسكانه إلى حده الأعظم، فاخترقوا الفضاء، وكونوا صداقات مع كائنات كواكب أخرى.

وعندما قرؤوا أفكاره وهويتساءل عن الشيخوخة والموت لديهم، أجابوه بأن أحدهم قد يعيش مئة عام أو ألف عام، وذلك تبعا لقدرته على العطاء، فما دام قادرا على العطاء فإنه يعيش، فإذا ضعفت قدرته على العطاء والعمل بدأ بالذبول والتلاشي.

وهكذا يرغب عمران في أن يعم العلم والسلام كواكب الكون، ويأمل في أن ينتصر الإنسان على الشر في داخله. وإذا كانت كائنات الكوكب الآخر قد اقتنعت بأن الحروب لا تجر إلا إلى الدمار، فعملت على بناء حضارة علمية متطورة تؤمن بالسلام الكوني، فإن هذه القناعة ينبغي أن تكون درسا لبشر الأرض.

وعندما أفاق إبراهيم من حلمه، مد يده إلى جيبه ليخرج منديلا يمسح به عرقه، فإذا بالمكعب الصغير الذي أهده إياه يؤكد له واقعية ما كان قد رآه.

وهذه الخاتمة / المفاجأة الموباسانية تشكل ضربة فنية، عندما تنفجر بين يدي القارئ كقنبلة، والكاتب يلجأ إليها رغبة في إعطاء قصته مزيدا من الواقعية، وليثبت في ذهن القارئ أن القصة التي يرويها ليست حلما لذيذا بعيدا عن الواقع.

¹²⁴ طالب عمران، أسرار من مدينة الحكمة، دار الفكر المعاصر، 1988

وفي قصته 'الشاهد الوحيد'¹²⁵ يتابع عمران تيمة وصف كائنات الكواكب الأخرى التي دفعها تطورها العلمي إلى البحث عن إخوة في الكون يعيشون في كواكب أخرى، فيجعل مجموعة من كوكب بعيد، خارج المجموعة الشمسية، تتجول في المجرة، وتضطر إلى الهبوط في الكرة الأرضية بسبب عطل في القوة الدافعة لسفينتها الفضائية .

لكنها قوبلت بهجوم ضار من نيران القنابل الأرضية المدمرة، وعلى الرغم من أنها استطاعت الإفلات منها عندما لجأت إلى أحد الأودية العميقة، فإن واحدا من مهندسيها أصيب في هذه المواجهة التي لم تكن تحسب لها حسابا، لأنها اعتادت أن تواجه وتواجه بالترحيب السلمي الذي يدل على الحضارة العريقة، لا بالهجوم المضاد الذي يصلها نيرانا حامية، ويدل على التخلف والبدائية .

وعندما يبحث العقل الإلكتروني عن علاج للمهندس المصاب يجد أنه في حقنة من دم بشري من الزمرة الإيجابية.

كان البطل يحدث نفسه: أهي أنثي حقيقة هذه الفتاة العذبة التي أغرته بجمالها، أم في خيال لكائن كوكبي تقمص شخصية بشرية لطمأنة من حوله؟ فقدم نفسه لها لسحب الدم من جسمه، فكافأته الفتاة بأن أهدته ميدالية تنبعث منها أنغام علوية.

كذلك كانت قصته 'كانوا في الكوكب الخامس'¹²⁶ التي يروي فيها الكاتب قصة عالم فلكي يعيش وحيدا، فيقرع بابه، بعد منتصف الليل، رجل وامرأة، يعرفانه بنفسيهما: إنهما من 'الكوكب الخامس' الذي كان موجودا، قبل آلاف السنين، بين المشتري والمريخ، لكنه اندثر، بعد أن دمرته الحروب النووية، والخلافات بين الكبار من أجل مصالحهم الأنانية، مما دفع بعلمائه إلى هجره، والاتجاه بمركبتهم الفضائية نحو القمر 'ميماس'، أحد توابع زحل، حيث ما يزالون يعيشون فيه، ويتابعون تطوره الحضاري. وقد استطاعوا أن يرسلوا بمركبتهم الفضائية إلى الكواكب الأخرى،

¹²⁵ طالب عمران، مساحات للظلمة - مجموعة قصصية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1992

¹²⁶ طالب عمران، أسرار من مدينة الحكمة، دار الفكر المعاصر، 1988

ومنها الأرض، وأن يتعاملوا مع بعض علمائها، من أجل نشر العلم والحضارة والسلام في ربوع الكون. وهم اليوم في رحلة تعارف إليه، ينبئونه برغبتهم في أن ينشر مقالات علمية مضادة للحروب النووية.

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، وقد اختلطت في ذهنه أحداث ذلك الحلم المرعب بتفاصيله الواضحة فوجئ بوجود لوحة نحاسية على طاولته، كانوا قد أهدوه إياها، وقد رسمت عليها المجموعة الشمسية والكوكب الخامس، دلالة على أنه لم يكن بحلم، وإنما كانت الزيارة حقيقية.

المبحث الثاني: الظواهر الخارقة المدهشة

1. الحاسة السادسة

يتمتع الإنسان بقوى خارقة، ولكنه لا يستثمر سوى جزء ضئيل جدا منها، وهذا هو المبدأ الذي يجعل من يطور قدرته، ويستثمر جزءا أكبر منها، يقوم بأعمال تبدو خارقة للآخرين، على الرغم من أن هناك أناسا يولدون مزودين بهذه القدرات، دون أن يعرفوا مصدرها. وهي قد تعطيهم القوة، وتساعدهم على النجاح في الحياة، ولكنها – أحيانا - تسبب لهم المتاعب.

وعلى هذا الأساس فسر العلم هالات النور البيضاء التي تظهر حول وجوه بعض الناس، وحول قمم الأشجار والمآذن، وأبراج الكنائس والسفن، فاعتبرها الناس معجزات لا تظهر إلا للأولياء والصالحين والقديسين، فأعادها العلم إلى وجود كهرباء جوية تتخذ صورة البرق بعد عملية تفريغ مفاجئة بين الشحنات المختلفة الكامنة في أجزاء متفرقة من السحب، لا تسري كما يسري التيار الكهربائي المعروف. وهذا النوع من الكهرباء المستقرة أو الساكنة ليس بضار، وكل إنسان يستطيع أن يكتشف هذه الكهرباء في قميص من الألياف الصناعية (النيلون، والرايون وما أشبه ذلك)، فإذا نزع هذا القميص عن جسده فإن حركة نسيجه تعطي (طرقات) خفيفة ومسموعة، وهذا يعني تفريغ الشحنات الكهربائية التي اكتسبتها ألياف النسيج من

الجسم الحي. وكثيرا ما يجذب القميص إلى الجسم العاري إذا كانت المسافة بينهما قريبة (بضعة سنتيمترات)، كما يمكن مشاهدة شرر دقيق ينطلق من القميص في الظلام الحالك.

فهذه الحالات النورانية حول وجوه بعض الناس، وحول قمم الأشجار والمآذن ويظنها الناس معجزات، ما هي إلا كهرباء ساكنة في الجو.¹²⁷

وقد وضع طالب عمران كتابا بعنوان 'الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية'¹²⁸ ينطلق هذا الكتاب من كون الذكاء الإنساني ذكاءً متفرداً في كوكب الأرض، وقد امتزج عبر التاريخ مع طبع الإنسان المحب للبحث والإكتشاف، وساهم في تطوره العلمي وصنع حضارات متعاقبة شكّلت بمجملها بناءً لتراث إنساني لا يزال مستمراً في الشموخ والإرتفاع.

ويبين الكتاب كيف أن التوازن في التفكير، والتركيز بالقدرات الذهنية على مواضيع معينة بدقة وصبر ينتج قدرات خارقة لدى البشر، إذ يتمتع الإنسان بقوى لا يستثمر منها إلا القليل، وهذا ما يجعل تحفيزها والعمل على تطويرها لدى البعض مثار جدل لأنها تمنحهم القدرة على القيام بأعمال تبدو خيالية للآخرين.

ويسرد المؤلف الدكتور طالب عمران بأسلوب ممتع ومشوق تفاصيل أحداث لقصص حقيقية أرّخها علم نفس الحاسة السادسة في مناطق عدة حول العالم، وكانت إثباتاً لقدرات خارقة وقوى خفية استطاع أصحابها وتطويرها وإستخدامها لأهداف مختلفة.

2. التنبؤ والتخاطر والاستبصار:

يذكر الدكتور طالب عمران في كتابه 'الحاسة السادسة'¹²⁹ أنه أثناء دراسته العلمية في الهند، وإقامته الطويلة فيها، التقى كثيرا من رجال الشيخ في المدن، يقرؤون

¹²⁷ د. عبد المحسن صالح - الإنسان الحائر بين العلم و الخرافة - عالم المعرفة - الكويت - مارس / آذار 1979، ص120

¹²⁸ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017
¹²⁹ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017

الطالع، ويفاجئون السياح بقدرتهم الكبيرة على قراءة الأفكار. وحدث أن استضاف واحدا منهم، فحكى له هذا عن اعتكافهم منذ الصغر، في مدارس تدرس اليوغا، والقدرة على التخاطر، وأن بعضهم يطور قدراته كي يتمكن من قراءة المستقبل، أو بث ما يريد من أوامر إلى غيره من الناس، كأن يطلب من واحد مثلا، تخاطريا، أن يرفع يده، أو يحك شعره، أو يلتفت إلى الوراة وقد ثبت علميا أن التوائم هم أقوى تخاطرا، وأن بإمكان أحدهم أن يبيث إلى أخيه رسالة تخاطرية يدعوه فيها إلى أن يهتف له، أو أن يعاني أحدهم من ألم أو وضع نفسي صعب فيعاني الآخر المعاناة نفسها.

يرى عمران أن التنبؤ والاستبصار ورؤية الحوادث قبل وقوعها هي جزء صغير من قدرات الإنسان الخارقة، ونماذج الناس الذين يملكون هذه القدرات تشغل الباحثين في السنوات الأخيرة، إذ بدأت التجارب تجري على التخاطر عن بعد، واستخدام التخاطر حتى في الأبحاث الفضائية.

إن في النفس البشرية كثيرا من القدرات الكامنة، ولكن الإنسان لا يستخدم سوى جزء ضئيل من هذه القدرات، وهو يضيع قدراته هذه في السعي لكسب العيش، والصعود في السلم الاجتماعي، واللهات وراء المناصب والشهرة، وكلما ارتفع المرء ازداد نرجسية وأناية، وخفت قدراته الإيجابية، ذلك أن قدرات الإنسان كبيرة، ولكنه كسلان إلى حد كبير، فقد يتلقى الإنسان أحيانا بإحساسه الغامض إشارة الخطر، وهو يستطيع إذا طور قدراته، أن يحذر من يراه من خطر داهم.

وقد يتمتع الإنسان بقوى خارقة، ولكنه لا يستثمر سوى جزء ضئيل جدا من هذه القوى، كالذي يدفن نفسه لثمانية أيام في قبر، ثم ينهض صحيحا معافى، أو كالذي يرتفع بجسمه فوق الأرض متغلبا على قوانين الجاذبية المعروفة، أو كالذي يخفض من عدد نبضات قلبه إلى أقل من عشر نبضات في الدقيقة الواحدة.

إن التخاطر ونقل الأفكار بعد أن أصبح موضوعا هاما ازدادت الأبحاث حوله في السنوات الأخيرة، وتوصل فيه الباحثون إلى نتائج مذهلة،

وعلى الرغم من أن الأمهات في جناح خاص منفصل عن الجناح الذي يوضع فيه الأطفال، فإن الطفل حين يبكي يظهر القلق والعصبية على أمه. وهذه الصلة التخاطبية بين الأم وطفلها تظل مرافقة لها طوال حياتها. وهناك أمثلة كثيرة على لغة التخاطر بين الأم وأبنائها، أو بين الأب وأولاده، فكثيرا ما تحس الأم بالأم في معدتها حين تجري لابنتها عملية جراحية وهي في منطقة بعيدة عنها.

وإن رؤية الحوادث قبل وقوعها، ومعرفة المستقبل هي جزء صغير من قدرات الإنسان الخارقة، وإن نماذج الناس الذين يملكون هذه القدرات بدأت تشغل الباحثين، في السنوات الأخيرة، ما دام الإنسان يملك في دماغه عدة مليارات خلية لم يستخدم منها سوى القليل، فماذا لو استخدم المليارات المتبقية من خلايا مخه؟، وكم ستكون عندها قدراته خارقة؟

في موضوع قراءة أفكار الآخرين وضع د. طالب عمران قصة 'شحنة الدماغ'¹³⁰ جعل بطلها الشاب 'سامر' الذي يدرس الشهادة الثانوية يمتلك ميزة قراءة أفكار الآخرين. وعندما اشترى له أبوه حاسوبا شخصيا جعله سامر لذة أيامه، فصار يجلس أمامه الساعات الطوال. ثم انتهى إلى ربطه بكل ما في البيت من أدوات، فهو يفكك المسجلة ثم يعيد تركيبها بواسطة الحاسوب، ويحرك الغسالة بأوامر من الحاسوب.

وعندما تخطر له فكرة ربط الحاسوب بجهاز تخطيط الدماغ ينفذها فورا، فيستعير جهاز تخطيط الدماغ من قريبه الطبيب، ويجري التجربة على نفسه فيصعق دماغه، ويشع رأسه بالضوء، فيصبح قادرا على قراءة أفكار الآخرين.

ولكن هذه الميزة الإيجابية تصبح سلبية تجر عليه المتاعب، وتوقعه في إحراجات مع أصدقائه ومعارفه، حيث يكشف بوساطتها، عن سرقة بحث أبيه العلمي، من قبل زميله في الجامعة، ويكشف محبة كاذبة لشباب كان يحاول خداع فتاة لسلب أموالها.

¹³⁰ طالب عمران، شحنة الدماغ – مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

ويستفيد من هذه الميزة في امتحان الشهادة الثانوية حيث ينجح بتفوق، ويدرس الطب في الجامعة، ثم يختص بأمراض الدماغ، وينهي دراسته بتفوق أيضا.

ومن الواضح أن عمران لا يجعل بطله هنا يولد مزودة بهذه الميزة كما يولد العصفور مزودة بالألحان العذبة، وإنما يجعلها نتيجة صاعق دماغي أكسبه هذه القدرة في قراءة أفكار الآخرين.

وفي موضوع (التخاطر) بين التوائم أثبت العلم حالات كثيرة كان التوعم يشعر فيها بالألم الذي يصيب أخاه، وقد شغل هذا الموضوع العلماء في السنوات الأخيرة، وعلى الخصوص بعد أن أكدت التجارب الفعلية التي أجريت وجود مثل هذا الإحساس المشترك.

وقد درس العلماء حالات كثيرة من التوائم في محاولة لفهم المزايا العقلية والبدنية التي تؤثر بها الوراثة، أو التي تكتسب بالتربية و الحياة اليومية.

فالتوعم 'دونالد' و 'لويس' يعيشان في أمريكا، وقد أجرى علماء النفس عليهما اختبارات هامة في التخاطر والأحاسيس المشتركة، فوصلوا إلى نتائج مذهلة: إذ أحس 'دونالد' كأن تيارا كهربائيا يسري في فخذه وألما حادة. وعندما كشف عليه الطبيب لم يجد سببا عضوية وراء إحساسه بالألم، فاتصل هاتفيا بأخيه التوعم لويس الذي يبعد عنه مسافة (400 كم) في مدينة أخرى، فإذا به جريح في فخذه الأيمن. وهذا الألم المشترك يصيب التوائم المتماثلة.

وقد أجرى دونالد اختبارا أمام جمع من الصحفيين والأطباء النفسيين قال فيه: إنه سيطلب من أخيه لويس، تخاطريا، أن يتصل به هاتفيا، وبعد ثوان بدأ جرس الهاتف يرن، فإذا بأخيه لويس يتحدث.

ولكن ربما هناك اتفاق بينك و بين لويس للاتصال بك في هذه الساعة .

- اذن انتظروا

و ألقى دونالد كأسا على الأرض فانكسرت، فاتصل بأخيه قائلاً: طلبت مني كسر أقرب كأس.

وكان الطلب عن طريق التخاطر.

ويبدو أن هناك ما يشبه النوافذ الكهربائية في الدماغ، وفي حالة التوائم تكون هذه النوافذ أكثر انفتاحاً على بعضها في البحث و التلقي، حيث يمكن إرسال الرسائل عن طريق الدماغ بشكل يجعل كلا منهما يفهم ما يقوله الآخر وما يفكر به أو يشعر به أيضاً.

وهناك حالة أخرى فريدة للتوائم في حالة التوعم 'جيم' و'موريس' في الولايات المتحدة، فقد انفصلا بعد أربعة أشهر من ولادتهما، وعاشا (48 سنة) بعيدين عن بعضهما .

وقد زارت كلا منهما لجنة علمية، فتوصلت إلى نتائج مذهلة، فقد وجدت الاثنين يشبهان بعضهما في طريقة ارتداء الملابس، وفي اختيار ربطات العنق، وأن كلا منهما قد تزوج فتاة تدعى 'ليندا' و طلقها، ثم تزوج فتاة تدعى 'بيتي'، وأن كلا منهما سمى أولاده: (صوفي - بيتر - فيلكس) وأن كلا منهما قد فرش منزله بنفس الفرش، في المقاعد والستائر الملونة بالأزرق السماوي، و المكتبة، ونوع التلفزيون، وترتيب المطبخ، وأن كلا منهما يقنتي كلبا من النوع الذي اسمه 'ليدو'، وأن كلا منهما يهوى السباحة والمطالعة وركوب الخيل، وأن كلا منهما يقضي عطلاته الأسبوعية على شاطئ الميسيسيبي، وحتى زوجتهما متماثلتان في الطباع وفي ترتيب الأولاد: فصوفي الأكبر ، ثم بيتر، ففيلكس. فهل تخضع كل هذه الأمور للصدفة؟

مستحيل أن تكون صدفة، وإنما هي التماثل في التوائم، وسببها الجينات أو المورثات التي تلعب دوراً فعالاً في جعل المشاعر متشابهة ، على الرغم من الانفصال البيئي، ذلك أن التوائم تشترك بنفس الجينات التي انقسمت عند انقسام البيضة الملقحة بشكل

متساو أيضا. وهذا ما يفسر التشابه المذهل في طريقة حياتهما، على الرغم من انفصالهما عن بعضهما زمانيا و مكانيا.

لقد أورد الدكتور عمران هذه المعلومات السابقة في كتابه 'خفايا النفس البشرية'¹³¹. وبناء على ذلك فقد وضع قصصا علمية في هذا المجال، من مثل هذه التوائم العجيبة، وخفايا النفس البشرية، ونبع السحاب.. وغيرها.

في قصته 'هذه التوائم العجيبة'¹³² 'دينا' و 'لينا' توعم حقيقى من بيضة ملقحة منقسمة (أي بيضة لقحها حيوانان منويان انقسمت بعد التلقيح وتكون توعم حقيقي). كانت كل منهما متعلقة بالأخرى، عاشتا معا الفترة الأولى من حياتهما. وبعد نجاحهما في الثانوية انفصلتا، فدرست 'دينا' الهندسة المدنية في جامعة حلب، و درست 'لينا' الهندسة المدنية في جامعة دمشق، وهذا الفرق البسيط في الدرجات أدى إلى فصلهما عن بعضهما للدراسة في جامعتين متباعدتين. وفي أحد الأيام شعرت لينا بالألم شديدة في رجلها فقصدت المشفى، وعندما فحصها الطبيب لم يجد أية إصابة، فطلب صورة شعاعية لرجلها، تبين فينا -أيضا- عدم وجود أية إصابة، وحين عادت إلى البيت كان الألم قد زال، فاتصلت بأختها دينا هاتفيا، وعرفت منها أنها زلقت فكسرت رجلها. فأفضت لها بالألام الشديدة التي عانتها صباحا. وهذا كله مستمد من شعور التوائم بالألم المشترك، وهو أمر علمي، ثم أضاف إليه د. عمران موضوعا علميا آخر هو التخاطر بين التوائم، فجعل لينا تهتف من دمشق إلى شرطة النجدة بحلب لإنقاذ أختها التي تعرضت لخطر داهم.

وبالفعل وجدت الشرطة رجلا عجوزا يطرق بابها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ولدى التحقيق معه تبين أنه رجل مسكين فقد زوجته وأولاده في انهيار منزله، و حين صحا أصبح أشبه بمجنون يدور في الشوارع، وحين شاهد دينا التي كانت تشبه ابنته

¹³¹ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994، ص: 190

¹³² طالب عمران، الذي أربع القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996.

لاحقها حتى عرف بيتها، فجلس على الدرج يبكي، وعندما تفجرت مأساته وقهره وجد نفسه يطرق باب بيتها.

وفي قصته 'خفايا النفس البشرية'¹³³ يمزج د. عمران الحديث العلمي بالسرد القصصي، فيجعل الدكتور 'جواد' وزوجته يزوران معرضا غريبا في نيودلهي، له طابع فلسفي هندوسي، وقد أدهشتها التماثيل الملونة المتقنة الصنع، فإذا هي رجال أحياء يتخذون هذه الأوضاع طوال الوقت، فقد يقف أحدهم ثلاث ساعات متواصلة دون أن يتحرك أو يرف له جفن، وقد شاهدنا رجلا يرتفع في الهواء، متغلبا على نقل جسمه، و مناقضا نظريات الجاذبية التي نعرفها، ورجلا آخر عاري الصدر والظهر يتمدد على مسامير حادة مثبتة في لوح خشبي، دون أن تؤلمه، فقد تخشب جسمه، وغرق في سبات كالجثة الميتة، و شابا يقف على رجل واحدة طوال أربع ساعات. وكل هؤلاء توصلوا إلى هذا بوساطة (اليوغا) التي يقومون فيها بممارسة تمرينات جسمية متواصلة، وبترويض النفس على كبح جماح غرائزها.

وقد رغب الدكتور 'جواد' في إجراء تجربة عليه، فقاده الرجل إلى غرفة جانبية وعصب عينيه بمنديل، ثم طلب منه أن يريح جسمه تماما، وأن يصف ما يرى، فقال د. جواد: إنه يشاهد جزيرة وسط البحر، يحيطها الضباب، وإنه في طائرة فوق الغابات الكثيفة، وإن نبعاً يجري جدولا يصب في البحيرة، وإن البيوت على الشاطئ، وإن الصيادين يلقون بشباكهم في البحر، والأطفال يلعبون قريبا منهم. ثم طلب منه أن يستيقظ، ففعل.

فقال له المنوم: إن الجزيرة التي أراه إياها من خلال التخاطر ليست سوى صورة الجزيرة معلقة على جدار الصالة، وإنه يعرف الناس على قدراتهم. ولكنه يحذرهم من الانحراف وراء نزواتهم وشهواتهم التي تقصر من أعمارهم، وتحد من عطاءاتهم.

¹³³ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

وقال له: إن إغراءات الجنس والكحول والدخان وتناول اللحم والحقد والحسد كلها تؤثر على حياة المرء، وتبعده عن الطريق السري الذي يفجر طاقاته المخزونة. ويعترف الدكتور عمران في كتابه 'خفايا النفس البشرية' أنه قام بهذه التجربة في الهند، وأنه هو الدكتور جواد بطل هذه القصة.

وعندما يجد الدكتور عمران هذه المعلومات العلمية عن التخاطر بين التوائم والأفراد المتميزين، يستثمره في غزو الكواكب والفضاء، فيجعل التخاطر بين الكواكب، في قصته 'نبع السحاب'¹³⁴ وهو يحلم مدن فاضلة، ولكن ليست على الأرض، وإنما في الكون، هربا من جحيم البشر الأشرار. ففي هذا العصر المضطرب يشن المرء فوضي تتفاقم وتحاصره بالمشكلات الجديدة، والأمراض الجديدة، والعلاقات الاجتماعية المتفسخة و التلوث، والنفائيات، وثقب الأوزون.. وكلها مظاهر تسحق الإنسان تحت عجلة الحضارة الحديثة.

وأمام ظروف الإنسان الصعبة هذه، والمستقبل المجهول المرعب، يتوهج الحلم في أعماقه من أجل تجنب المظاهر المخيفة والأخطار المحدقة التي تهدد الجنس البشري بالزوال، ويصبح الحلم بمدن فاضلة يحكمها أناس ذوو نزعة إنسانية خيرة، لا يحملون حقدا ولا ضغائن ولا جرائم، مستقبلا مشروعا على الكواكب الكونية، بعيدا عن أذى البشر وحقدهم وأنانيتهم.

ولم يكن 'أمجد' مغامرا عاديا، ولذلك فرحلته إلى 'نبع السحاب' لم تكن رحلة عادية. فنبع السحاب هي مدينة مرتفعة فوق قمة مخروطية تحيط بها السحب من كل جانب. ولم يكن الوصول إليها سهلا، فقد كان على قاصدها أن يمر في طريق محاطة بالأخطار والمهالك. ولذلك كثرت حولها الحكايات والأساطير، فقليل عنها: إنها مدينة

¹³⁴ نفس المصدر

تستوطنها الملائكة، وتشرف عليها 'الأم الكبيرة' التي تدير أمورها بكل حكمة وشجاعة وهدوء.

وقد اجتاز أمجد في صعوده إليها، ممرات الموت المخيفة، وواجه كهوف الظلام، حتى وصل إليها فاستقبلته الأم الكبيرة بوجه يفيض طيبة وحنانا:

- أهلا بك في مدينتنا يابني. اجتزت اختباراتك بنجاح، أنت شاب نقي العاطفة .

-جئت أحمل همومي ومتاعبي ويأسي من الناس الذين يعيشون في هذا العصر المرعب، إنهم جاهلون تماما مصيرهم، تتحكم بهم فئة باغية أصبحت قدوة لغالبيتهم، يقلدونها في حمقها و ميلها إلى الشر.

إن الأم الكبيرة في مدينة نبع السحاب هي المرجع الأساسي في كل الأمور، ورأيها هو القرار النافذ، لأنها الأكثر معرفة وحكمة. وفي المدينة سوق يأخذ منه الناس حاجات يومهم دون نقود، إذ لا أموال متداولة. والعمل هو الذي يتيح للمرء أن يتناول طعامه وشرابه ويرتدي كسائه دون مقابل. والمسكن مؤمنة للجميع، وكذا العناية الطبية، والناس يمارسون علاقاتهم بشكل طبيعي، فهم يتزوجون، ويربون أولادهم دون مشقة. والجميع يقبلون قرار المجلس الاستشاري في تحديد عدد الأولاد، وفي الانسجام بين الزوجين.

وفي المدينة مطار فضائي تنطلق منه المركبات الفضائية إلى الفضاء الخارجي، وإليه تعود. وفيه كائنات عاقلة من الفضاء الخارجي ومن سكان المدينة، وقد عرفه دليله ب 'آفتار' أحد الكائنات العاقلة القادمة من كوكب 'الشفق' الذي يبعد عن الأرض عشر سنوات ضوئية.

جلس أمجد وآفتار في غرفة عالية التقنية، وبدأ يتحدثان عبر شاشات أجهزة الرؤية المضاعفة، وما يقوله أحدهما يراه الآخر مجسما على الشاشة. أعاد لأحد تاريخ النهوض الحضاري البشري، وأراه الحروب التي تفجرت في كل مكان بسبب الأنانية والوحشية فأودت بملايين البشر.

لم تجد كائنات الفضاء الخارجي في الكرة الأرضية غير هذه المدينة المتميزة مستقرا ومطار، ومحطة أمان، فانطلقت منها وإليها في رحلات فضائية، وصادقت من سكان الأرض من وجدت فيهم الصدق والتعاون والإخلاص وحب العلم والسلام.

إن الحروب التقليدية أو النووية إذا لم تدمر الكرة الأرضية، فإن تلوث البيئة هو الذي سوف يدمرها، ذلك أن ثقب الأوزون الآخذ بالاتساع، والذي لم يعد يحجب أشعة الشمس تحت البنفسجية عن الأرض، سوف يحرق الأشجار والنبات والحيوان والإنسان، وإن النفايات الذرية التي تستقبلها الدول الفقيرة أو أبناء حكامها ومسؤوليها، ليزرعوها في صحاريها أو بحارها، سوف تدمر الزرع والضرع والإنسان مستقبلا.

وهكذا يدفع الإنسان ثمنا باهظا لحضارته، حين يدفعها إلى الانتحار، ويكون بانتحارها هلاكه. لكن البشر من ذوي العقول العلمية المسالمة يحرصون على بقاء الخير، ويحاولون إنقاذ الأبرياء من البشر، والذين تتحكم القلة الطاغية بمصيرهم، وهم يعيشون ويموتون دون أن ينتبه لهم أحد من قادتهم. ولهذا فهم يعملون على الاتصال بكائنات الفضاء العاقلة لإيقاف التدمير الذاتي للحضارة البشرية وغيرها من الحضارات الأخرى.

ولهذا تخضع 'أمجد' لتجربة تخاطرية يصبح فيها رسول مدينة 'نبع السحاب' إلى حكماء كوكب 'الشفق'. وكان قبل ذلك قد أجرى تجربة تخاطرية مع حبيبته ليلي، حيث أجلسه الطبيب النفسي في مدينة 'نبع السحاب' العلمية، وطلب منه تخيل الشخص الذي يريد أن يتحاكي معه تخاطريا، وتركيز ذهنه حول الشخص، وألا يشرد أبدا عن التفكير به، وسرعان ما غطى وجه ليلي كل خيالات أمجد، فعاش معها قصة حب جميلة، كانت كل شيء في حياته. خاطبها فأجابته، قالت له: إنها في شوق زائد إليه، وإنها ستأتي إليه. اعتذرت له عن المظاهر الفارغة التي غرتها عنه، والفرسان الذين يختالون ببذلاتهم المذهبة الذين انشغلت بهم عنه، إنها الآن نادمة، والعمر يمضي، وأما تقول لها: "فقدت أظهر رجل على وجه الأرض، رجل يعطي ولا يفكر بالأخذ".

تمدد 'أمجد' على ظهره على السرير الذي بدأ يهتز ببطء، فشعر بالنعاس. وبدأ السرير يتحرك على عجلات من المطاط، خرج من المبنى وانزلق على منحدر صقيل، حيث انفتح أمامه باب تحت أحد الأطباق الطائرة، حيث اجتمعت بعض الكائنات حوله، وبدأت عملها بصمت، كانت مهمتها في البداية الدخول إلى ذهنه وإعطائه فكرة متكاملة عن الحياة فوق كوكب 'الشفق' وأشكال الكائنات هناك، وبدأت الأجهزة المعقدة تومض وتتوهج، والمؤشرات تتذبذب.

وامتدت أشرطة إلى رأسه ربطت بصمامات نحو شاشات متلفزة موزعة داخل الطبق: "لا تقلق يا أمجد. سنعطيك تصورا عاما عن حكماء كوكب الشفق، ليسهل عليك مخاطبتهم، والتحدث معهم ونقل ما تفكر به إليهم. سنساعدك في الوصول إلى الكوكب عبر هذا البعد الشاسع".

إنه يعي كل ما يجري حوله، وما ينقل إليه من معلومات، رغم أنه يبدو كالنائم. أحس كأنه يطير بسرعات هائلة بين الكواكب، يخترق الفضاء ويقترّب من مجموعة كوكبية تدور حول نجم مشع في حجم شمسنا. يتغلغل في سحب الكوكب، وينفذ إلى سطحه، ويقترّب من بناء ضخّم، بداخله شيوخ بلحي طويلة، جلوس حول منضدة ضخمة، يبدأ الحوار الذي استمر معهم لمدة ساعتين. كان الحوار يدور حول السبل الكفيلة بإنقاذ كوكب الأرض المتخّم بمشاكل البيئة التي تهدد الحياة على سطحه.

وقد توصل حكماء نبع السحاب بالتعاون مع الكائنات العاقلة القادمة من كوكب الشفق، والتي تزور المدينة المتربعة فوق سقف العالم الأرضي إلى لغة مشتركة، أسفرت عن الوصول إلى نتائج هامة على طريق حل مشكلات الكوكب الأرضي.

وتقول بقية الحكاية: إن الناس في كوكب الأرض أفاقوا ذات يوم على مركبات فضائية غريبة تنتشر في الجو حولهم، وهي تطلق موادا تنقي الهواء والمياه الملوثة، وتوقف الصناعات الحربية، وتفسد الأسلحة الذرية، وتسد ثقب الأوزون، وتزرع الخير والحب في النفوس، ومن لم يستجب توقف قلبه عن الخفقان.

وهكذا يضع د. عمران العلم في خدمة السلم والإنسان، ويجعل التواصل بين الكواكب تخاطريا، وهذا أسرع آلاف المرات من رسالة تقنية يبيثها العتل الإلكتروني والذي إذا افترضنا أنها تنطلق بسرعة الضوء فإنها لن تصل قبل عشر سنوات ضوئية، ولن يعود جوابها قبل عشر سنوات أخرى. لهذا كان التخاطر البشري أسرع من كل التقنيات العلمية.

وقد حقق هذا التخاطر هدفه في إنقاذ الحضارة الأرضية من التلوث البيئي الذي يهددها بالدمار، وذلك بفضل تعاون الحضارات الكوكبية في الكون ومساعدتها بعضها بعضا في الملمات.

ويضع الكاتب أصبعه على الجرح حين يشير إلى أسباب هذا التلوث الذي حل بالكوكب الأرضي، فيجعلها في أنانية الإنسان المستغل الماضي في صناعته التي تطلق في كل لحظة ما يلوث الأجواء ويقضي على الأحياء، إضافة إلى النفايات الذرية، وثقب الأوزون... إلخ. وكلها مشكلات بيئية انتقلت إلى داخل النفس البشرية فتلوثت هذه أيضا بالفساد، ومضت في وضاعتها تهدد الجنس البشري بالزوال. ومن هنا كان حلم مدن فاضلة يحكمها أناس ذوو نزعة إنسانية خيرة هو الملجأ والمنقذ. وهذا ما فعله سكان مدينة نبع السحاب الذين يجسدون الخير والعلم، فقد تواصلوا مع كائنات الحضارات الكونية التي استطاعت إنقاذ الحضارة البشرية من دمارها.

3. الاستبصار بالأحلام والتقصص:

كثيرون منا يملكون ميزة الاستبصار عن طريق الأحلام، ولكنهم يهملون هذه القوة، أولا ينتبهون لها. أما تفسيرها، فيشبه اختراق حاجز الزمن، حين يرى المرء في أحلامه، ما سيراه مستقبلا في الواقع. وقد تحدث الدكتور عمران في كتابه 'الحاسة السادسة' عن عدة أحلام رآها في نومه، فتحققت في عالم الواقع في الأيام التالية. ثم رغب في أن يجعل هذا الموضوع واحدا من اهتماماته في القصص الإبداعي، فوضع عددا من القصص العلمي الذي يعالج هذا الموضوع ويرصده كما في قصصه:

هوس الأحلام، وأحلام في ذاكرة مدهشة، ورجيع يتردد كالصدي.. إلخ.

في قصته 'هوس الأحلام'¹³⁵ يؤكد د. عمران هذه الظاهرة الخفية المدهشة في النفس البشرية والتي لم يثبتها العلم فحسب، بل والديانات أيضاً، فقد اعتبرتها نوعاً من 'الكرامة' للرأي.

ويقدم الكاتب لقصته الأصلية هنا بقصة فرعية علمية عن الدكتور 'أنطونيو' الباحث الإسباني الذي رأى في عام (1980)، حلماً مزعجاً عن قنبلة ودمار، فأفاق واستمع إلى المذيع، فإذا ما رآه حلماً قد تحقق يقظة، وأذيع من إحدى المحطات الإذاعية، مما جعله يعتقد أن الحدث المأساوي الذي رآه في الحلم انتقل إلى عقله الباطن، عبر المسافات الشاسعة.

وهذه القصة القصيرة هي مقدمة لتساؤل الكاتب عن إمكانية أن يحلم المرء بأناس ويعايشهم فترة من الزمن، ثم يلتقيهم في الحياة الواقعية، كما حدث مع سامر الشاب الحلبي المهندس الذي كان يرى نفسه يوماً في الأحلام، مع أسرة على شاطئ البحر، أحد أفرادها، حيث كانت أخته ندى، وأبوه وأمه يعيشان في المدينة الساحلية البعيدة عن أسرته التي تعيش في مدينة حلب.

وقد تركزت كل أحلامه على هذه الأسرة الجديدة التي رأى نفسه واحداً من أفرادها، وكان كلما حدث لهذه الأسرة أمر، علم به عن طريق الأحلام، فقد رأى مرة أن أخته ندى قد صدمتها سيارة كسرت كتفها. فغادر إلى المدينة الساحلية التي تبعد (180 كم) عن بلده، ليتحقق من صدق رؤياه، وحالما وصل المنطقة تعرف على بيوتها التي كثيراً ما شاهدها في نومه، واستدل مباشرة على بيت ذويه المطل على البحر، ففرع الباب، وعندما فتحت أمه حكى لها قصته. فقالت: إنه يشبه ابنها ماجد الذي صدمته سيارة منذ عام في حلب، فحزنت أسرته عليه كثيراً. وزارتها سهى خطيبته الحلبية

¹³⁵ طالب عمران، بئر العتمة، دار علا، دمشق، 1990

مواسية، وعندما تخرجت في الجامعة عينت هنا مدرسة علوم. وقد التقاها سامر بعد أن كان قد التقاها في الأحلام؟ و كانت سهى قد رأت الشاحنة التي صدمت ماجد فتعلقت بها لتمسك بالسائق المجرم، لكن هذا دفعها فسقطت أرضاً، وأسرع الناس لإسعافها، وتم إلقاء القبض على السائق.

إن التقمص حالة غريبة يتحدث فيها المرء عن تفاصيل أحداث عاشها في حيوات سابقة. وقد كان 'التقمص' في المعتقدات الوثنية محور الحياة بعد الموت، فالذين يعصون الآلهة ويرتكبون الذنوب يصبحون بعد موتهم حيوانات أو صخوراً أو أشجاراً، وذلك بحسب ذنوبهم، ومن يطع الآلهة ويتبع تعاليم الكهنة يصبح الفردوس مأواه. ثم انتقلت هذه المعتقدات إلى الديانات السماوية، فأمنت بها بعض الطوائف الدينية، ولكن العلم ما يزال عاجزاً عن تفسيرها.

وفي قصته 'رجيع يتردد كالصدي'¹³⁶ يتابع د. عمران جلاء صورة هذه الظاهرة المدهشة في خبايا النفس البشرية، فيجعل أستاذاً جامعياً يرى هذه الأحلام التقمصية هو الدكتور عمار الشاب المتفوق والأستاذ في الجامعة، والذي قضى عامه الدراسي الأول متعباً يائساً، بعد أن كان مندفعاً للعمل في البداية، وقد حمل معه بحوثه وآماله في متابعتها، فاصطدم بمعوقات الروتين والشكليات، ولم يكن يتوقع أن الجامعة على هذا القدر من التخلف.

وفي صيف عام (1989) قضى الدكتور عمار إجازته الصيفية في مدينته الساحلية بعد أشهر من العمل والإرهاق، وقد خصص له أهله غرفة كانوا يستخدمونها للمؤونة، فوضعوا فيها سريراً ومنضدة وكرسيًا، ونصب له والده عدة رفوف لكتبه، وقد عرف ولعه باقتناء الكتب.

غفا عمار قليلاً فأحس طرقاً على الباب، وعندما فتحه وجد 'سارية' التي سار معها إلى البحر، وهما متعانقان لكنه سرعان ما استيقظ.

¹³⁶ طالب عمران، بئر العتمة، دار علا، دمشق، 1990.

ثم غفا ثانية فإذا الأميرة 'سارية' تتدله في حبه، على الرغم من كونها محط أنظار الفرسان والشجعان.

عادل: أنت أجمل لؤلؤة في المملكة، حبك للناس وللعدالة أمر عظيم.

سارية: وأنت أظهر رجل في المملكة، وأشدّهم قوة مع الحق وضد الظلم.

ثم صحا من نومه.

وتكرر الحلم: أعلمته سارية أن والدها قد وضع جائزة لمن يقبض عليه، فصار يختبئ في الجزيرة الصغيرة.

وفي إحدى المرات رأى عادل نفسه مع سارية وقد أحاط بهما الجند من كل جانب، قبضوا عليه وأخذوه إلى الملك.

صحا عمار مرعوباً، ثم استشار الطبيب الذي استغرب حالته قائلاً له: الذي أعرفه أن الاستبصار بالحلم يكون عن أحداث ستقع، أما أن ترى أحلاماً عن حياة ماضية، تفصلنا عنها مئات السنين، فهذا غير مفهوم.

غفا عمار فشاهد الملك يأمر بصلبه إلى عمود حجري، صحا فشاهد العمود نفسه بين الآثار القديمة التي تكتظ بها مدينته، جاء بعمال لتنظيف العمود عما حوله من أتربة وحجارة، وقد اقشعر بدنه وهو يرى داخل العمود الحجري هيكلًا عظيمًا مقيدًا بالسلاسل، أهذا هو عادل الحلم الذي أمر الملك بصلبه؟

أمر عمار بدفن الهيكل العظمي تحت شجرة قريبة.

وفي الحلم زارته سارية وشكرته على دفن حبيبها الذي كان قد تقمص شخصيته لبعض الوقت، ثم اختفت من حياته بعد ذلك تلك الأحلام التي أوشتك أن تودي به إلى الجنون.

وهكذا انتقل الكاتب من الاستبصار بالحلم و مشاهدة ما سوف يقع للمرء مستقبلا قبل وقوعه إلى تنويعات من التقمص حيث يرى المرء نفسه في زمن ماض بعيد، وفي عمل و اسم و حياة غير ما يحياه اليوم، وهذا التداخل ما يزال لغزا من خبايا النفس البشرية و أسرارها التي لم يستطع العلم بعد الكشف عنها أو تفسيرها، كما هو الحال في القصة السابقة، وفي القصة اللاحقة 'أحلام في ذاكرة مدهشة'¹³⁷ حيث يرى في الدماغ البشري جهاز معقد مليئة بالأسرار والخفايا، وفيه خلايا وراثية تحمل صبغيات عليها ذكريات تراثها من الأجداد. وعن طريق الحلم، ينتقل المرء، أحيانا، وهو نائم إلى الماضي البعيد، وهكذا انتقل أحمد في حلمه الغريب الذي عاش تفاصيله، وتعلق بشخصه لدرجة أنه أصبح هاجسه، فيشتاق إلى ميعاد نومه ليراه، حيث يرى نفسه في مدينة غريبة تبدو مذهلة بدقتها وجمالها، في قصر فخم يحيط به الحراس والجند وهو الأمير 'أومان' الفارس الذي يحب 'سولا' ابنة الملك التي خطفها الرومان، فيهرع لإنقاذها على رأس مجموعة من الفرسان المدججين بالسلاح.

استيقظ أحمد من حلمه الجميل، وفكر في أن يستشير طبيبا نفسيا ينقذه من هذه الازدواجية. وفي حلم الليلة التالية رأى نفسه يدخل المدينة القديمة على ظهر حصان أصيل، وخلفه الفرسان، وقد انتظموا في صفوف مترابطة، والملك يرحب به قائلا:

- أهلا بك يا أومان منتصرا مكللا بالغار .

ولا يرى الملك مكافأة له أكبر من تزويجه بابنته سولا بعد أن ربط الحب بين قلوبهما. ثم صحا أحمد من نومه، فذهب إلى صديقه الطبيب النفسي وعرض عليه مشكلته، فقال له الطبيب:

- استرخ جيدا يا أحمد، واحك لي حكايتك دون أن تترك صغيرة أو كبيرة. استرخ كأنك تريد أن تنام وأجب عن أسئلتني.

¹³⁷ طالب عمران، الخروج من الجحيم - مجموعة قصصية، دار الفكر المعاصر دمشق، 2009.

- بدأت القصة قبل عامين وفي ليلة مطرة قرع الباب، وحين فتحته وجدت فتاة وقد بللها المطر، أشعلت لها المدفأة ودخلت لأوقظ أُمِّي لاستقبالها، كي تشعر بالأمان، وحين عدت إلى الصالة كانت الفتاة قد اختفت، والمقعد الذي جلست فوقه مايزال مبل بالماء، فجلست أتذكر وجهها المألوف لدي، إنها سولا التي أراها في أحلامي المتكررة.

طلب منه الطبيب أن يشغل نفسه بشيء ما، وأن يتعب جسمه بالعمل نهاراً، وأن ينام دون عشاء، كنوع من العلاج المبدئي.

لكن الأحلام المتكررة تواصلت باستمرار: إنه يرى نفسه دوماً في مدينة 'انتر دوس' الساحلية، وحوله الفرسان بسيوفهم ودروعهم في القصر الملكي، والملك يبارك زواج قائده الأثير أومان من سولا ابنته، ويتنازل له عن العرش.

وعندما استفاق أحمد هرع إلى الطبيب النفسي الذي طور علاجه، فأخذ ينومه تنويم مغناطيسياً، لينفذ إلى خبايا ذاكرته، ويكشف عن سر هذا العالم العجيب الذي يعيش فيه بأحلامه.

وحين خرج أحمد إلى الشارع لمح فتاة أحلامه سولا فهرع إليها، عارضا عليها ما جرى له في أحلامه معها.

وعند ذلك عرض عليها الطبيب السفر معهما، فانطلق الثلاثة إلى طرطوس وعند مدخل المدينة بدأت ذاكرة أحمد تعمل وتتخيل المرفأ الفينيقي قبل آلاف السنين، رأى شاطئ طرطوس التي كان اسمها 'انتر دوس' في ذلك الزمن الغابر، حيث كانت أحد المرافى الهامة للفينيقيين، وقد أيقظت الفتاة ذاكرة أحمد الوراثة فعرض عليها الطبيب الزواج منه، فمادامت معه في بيت واحد فإن وجودهما معا سيكون أقوى من الصور التي تأتيه في الحلم.

قبلت الفتاة عرضه، وهو يحرق بالقوس الفينيقي الذي كان قائماً حتى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين يتحدى الزمن والأمواج المتكسرة على الشاطئ، وقد

أزيل عندما بدئ ببناء مرفأ طرطوس الجديد. و إذن فإن الحلم ليس هذيانا، وإنما هو خلاصة الأحاسيس والتجارب والذاكرة الوراثية، إذ أن ذاكرتنا تومض أثناء النوم، وأثناء ممارسة الحياة لوجود مورثات تحمل طبيعة الشخص و خلاصة معرفة الأجيال.

وهكذا يتوازي، فنيا، خطان صاعدان في القصة، في زمنين و مكانين مختلفين: خط أحمد في حياته الواقعية التي يعيشها اليوم، وخطه في حياته الماضية، قبل آلاف السنين، حيث كان اسمه تومان وكان فارسا شجاعا، تزوج سولا ابنة الملك وورث الملك. وقد انتهت القستان: الواقعية والحلمية، بالزواج، وهي النهاية السعيدة التي قيضت لأحمد / أومان.

وهذا الاستبصار بالحلم، وهذه التنويعات على التقمص توضح تأثير الذاكرة الجماعية التي تتوارثها الأجيال، فتكون عنصرا في صبغياتها (جيناتها)، ومن ذلك وضع الكاتب عمران لقصته هذه التي يحيي فيها مدينته الأثيرة (طرطوس).

4. التنويم المغناطيسي:

جانبا آخر من خفايا النفس البشرية هو موضوع التنويم المغناطيسي الذي أثبت العلم صحته، واستفاد منه كنوع من العلاج، ولكنه لم يستطع بعد تفسيره أو تحليل آلياته.

ويحدثنا د. عمران في كتابه 'الحاسة السادسة'¹³⁸ عن شخصية 'راجنيش' الذي كان معبود الجماهير في الهند، لإقبالهم عليه من أنحاء العالم، وقد أصبح له أتباع منتشرون في كل مكان من العالم، وهو رجل من جنوب الهند، حصل على الماجستير في الرياضيات أوائل الستينيات من هذا القرن، وكان يتمتع بقدرات خاطرية خارقة، فبدأ يدعو إلى طريقة جديدة في الحياة 'عش كما يحلو لك، شرط ألا تؤذي الآخرين'. وكان يتوجه إلى أتباعه بمثل هذه الأفكار التي يبثها في أحاديثه ومحاضراته.

¹³⁸ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017، ص:

ومن كتبه: حرر جسدك تماما، حاول الخلاص مما حولك، ابتعد عن ماضيك، عش في المركز، أخرج كل السلبيات من جسمك، كن نظيفا من الحقد والكراهة، ركز تفكيرك في الحب والغفران، نحن ضيوف على هذه الحياة، الحياة مسرح فإلعب بجمالية ما استطعت.

وتدفق الناس عليه، وأغلبهم من الشباب الغربي الضائع (الهيبيز)، و من الباحثين عما يملأ حياتهم الفارغة، فكانوا صيدا سهلا لرجل يتمتع بقدرات خارقة، وبدأت الأموال تتدفق عليه، فافتتح مكاتب لدعوته في الهند، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، ثم في معظم الدول الأوربية، وكان حضور محاضرة له يكلف الشخص نحو ستين دولارا، وحين سافر إلى الولايات المتحدة لأول مرة احتشدت الألوف لاستقباله في المطار، وتسابق العلماء لدراسة هذه الظاهرة الفريدة التي شدد انتباه الشباب الغربي، ووصل عدد الذين قدموا في فلسفته، رسائل جامعية عالية (دكتوراه) أكثر من عشرين دار سا.

و حين عادت إنديرا غاندي إلى السلطة عام (1980) أمرت بطرده من البلاد، إذ تبين أن كثيرا من أتباعه يتعاطون المخدرات، والتهريب والتجسس، ولم تكن فلسفته تمنع ذلك فاستقر منذ عام 1981 في الولايات المتحدة، وتزوج أمريكية، وبدأ يتخلى شيئا فشيئا عن شخصيته الساحرة، وصار له أسطول جوي، وقوة بوليس وإطفاء، ودار لنشر كلماته وخطبه في مطبوعات، ومحطة إذاعية لبث محاضراته وأفكاره، ومحطة تلفزيونية خاصة بأحاديثه وخطبه في أمريكا.

5. الروح:

كما التفت د. عمران إلى ظاهرة أخرى من خفايا النفس البشرية كان قد شاهدها في الهند، أثناء دراسته وإقامته الطويلة فيها، هي ظاهرة خروج الروح من الجسد لبضعة أيام ثم عودتها إليه ثانية، ففي أحد الأيام استوقفه شيخ هندي في الطريق وقال له: "أنت شاب، لديك طموحات عديدة، يأتي إليك مال كثير، ولكنك لا تحب الاحتفاظ به، تعذبت في حياتك، لكنك صلب، قهرت صعابا وصمدت، وستزور بلدانا كثيرة".

وعلى الرغم من أن مثل هذا الكلام يمكن أن ينطبق على أي شخص، لعموميته وشموله، وأن الراوي لم يأخذ كلام الشيخ على محمل الجد، لكونه أحبولة أو فحاً يصطاد به في مهنته، إلا أن ما شده إلى الرجل هو قدرته على قراءة أفكار الآخرين، ومعرفته بخبايا النفوس، عن طريق ومضات الذهن.

وقد قاده الرجل إلى بيته، وحكى له عن تمريناته الروحية التي يحاول فيها السيطرة على نفسه، والدخول في حالة من السبات غير الطبيعي، والقدرة على التخشب بلا حراك كالجثة الميتة، ثم بدأ يحاول الانفلات من جسده تماماً، والخروج إلى أي مكان بكامل حواسه، بينما يبقى جسمه هامة بلا حركة. وقد استطاع الخروج من جسمه، والتجول في أماكن عديدة من العالم لمدة تسعة أيام قبل أن يعود إلى جسده، ورأى في هذه الرحلة العجائب: فالمنبوذون ينتشرون على الأرصفة، ويطاردون الناس من أجل لقمة تسد الرمق، وأحدهم ينهال بسوطه على الآخر، ونسر ينقض على أرنب، وباخرة تجنح نحو جزيرة صخرية، وأقمار تجسس وتنصت، وأسلحة دمار.

يرى الكاتب أن بعض الناس يتمتعون بقدرات خارقة، وينظر إليهم كممسوسين بقوى خفية، وهم يولدون متمتعين بهذه القدرات الخارقة، فإذا لم ينتبهوا لملاكاتهم هذه خبت ونسيت. ولكنها تظل كجمرة تحت الرماد. ذلك أن في دماغ الإنسان عشرات البلايين من الخلايا التي لا يستخدم الإنسان منها سوى القليل، ولو أنه استخدم الخلايا أكثر لأصبح متفوقاً وغير عادي، ولتمتع بقدرات خارقة، وإن الذي ينمي قدراته عن طريق ممارسة اليوغا والتمرينات الجسمية والنفسية يمكنه أن يزيد في قدراته هذه، إن اليوغا تعني رياضة الجسم والروح، وتطلب التخلص من أدران الجسم والروح، ومن يرغب التعمق في تجربة اليوغا فإن عليه أن يمتنع عن خمسة أشياء هي: أكل اللحم، وشرب الخمر، والجنس، والتدخين، والحقد، والكره والحسد، وبوساطة اليوغا يستطيع أن يتحكم بعضلاته اللاإرادية، وأن يدخل جسمه في حالة سبات، وأن يخفض نبضات قلبه إلى عشر نبضات في الدقيقة الواحدة، وأن يمتنع عن التنفس عدة ساعات في اليوم.... إلخ.

يروى د. عمران حادثة شهدها في الهند، فنسج حولها قصة 'الخروج من القبر'،¹³⁹ ، حيث قام 'كابيل' أحد ممارسي 'اليوغا' في الهند، في عام (1982) بعمل خارق أمام جمع كبير من الناس، وبحضور جمهور من الصحفيين بينهم أجنب، حيث دفن نفسه في قبر من الإسمنت المسلح لمدة ثمانية أيام ولم يكن يصله فيه هواء أو طعام أو شراب، وقد نصب بعض الصحفيين الأجانب خيامهم قرب القبر للتأكد من عمله. وفي اليوم الثامن بدأت المعاول تكسر الإسمنت بصعوبة، ثم رفعوا الرخام عن الجسد بلا حراك، كأنه ميت. ثم ما لبثت الدماء أن تدفقت في وجهه الشاحب، وحرك رأسه ببطء، وأخذ نفسا عميقا، وفتح عينيه، ثم نهض من القبر ذاهلا، وابتسم. وكانت آلات التصوير تعمل في تصويره في تلك اللحظة التاريخية. اتجه نحو دورة المياه للتخلص من فضلات جسمه المتجمعة منذ ثمانية أيام، وليغسل وجهه ويشرب.

اندفع الصحفيون نحوه بأسئلتهم وكاميراتهم:

-سيد (سنغ) كيف دبت فيك الحياة، وأنت لا تتنفس ولا ينبض قلبك؟ هذا مخالف لقانون الحياة.

- كنت أتنفس ببطء شديد، وكان قلبي ينبض ببطء شديد أيضا، إنه تمرين متطور من تمارين اليوغا للدخول في سبات الجسد.

- أيمكن أن تظل في مرحلة السبات لمدة أطول؟

- مع الممارسة يمكن أن نزيد الزمن عن ثمانية أيام.

- أتعقد أن ما فعلته كان عاديا؟

- قد لا يكون عاديا بالنسبة لكم، ولكنه أقل من عادي لدي.

- هذا مخالف لقوانين الحياة.

¹³⁹ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017

- قوانين الحياة التي اعتدتموها وأجسادكم مليئة بالأدران.
- أكنت تحلم وأنت ممدد في القبر أم أن ذهنك لم يكن يعمل؟
- بالعكس كان ذهني نشيطا أكثر من أي وقت.
- كيف؟ أكنت تفكر وتحلم وتنام وتستيقظ؟
- كنت تلك الفترة خارج القبر، كنت أنتقل في ربوع الهند، بين الهيمالايا ومدراس.
- أرجوك، اشرح لنا ما تقوله.
- قبل مدة رأيت انهيارا في جبل، وقد سقطت الحجارة منه على أحد الباصات السياحية التي كانت تمر في المنطقة، فأهلكت كل من كان فيه، و في مكان آخر رأيت قطارين للشحن يصطدمان، وفي منطقة أخرى رأيت صيادين يجرون سمكة هائلة.
- وكيف كنت ترى ذلك؟
- كأني أخلق بأجنحة غير منظورة فوق الأرض، أنتقل بسرعة من مكان إلى آخر.
- أتعتقد أنك رأيت أحداثا حقيقية، أم أنها كانت أحلاما؟
- بل ما رأيته كان حقيقة واقعة.
- ثم أحضر بعضهم الصحف التي كانت قد كتبت عن الأحداث التي ذكرها .
- ما هي الروح؟ وهل بإمكانها أن تعمل وترى و تشعر دون جسد كما في حالات السبات والنوم والتنويم المغناطيسي؟ أم هي تستطيع العودة بعد الموت، فنتقمص جسد آخر، كما هي الحال في معتقدات دينية كثيرة، وحول هذه التساءلات تجري أحداث قصة 'الزيارة'¹⁴⁰ التي وصف فيها د. عمران عجوزا نصف مشلول، غادره أبناؤه بعد أن توزعوا ميراثه، وتركوه في غرفة صغيرة في حي قديم، يقضي آخر أيامه دون أن

¹⁴⁰ طالب عمران، بئر العتمة، دار علا ، دمشق، 1990

يزوره أحد منهم، أو يعتني به، أو ينظف له غرفته التي عششت فيها العناكب، وقد حاولوا إرساله إلى دار العجزة ليبيعوا الغرفة، لكنه بكى فتر كوه.

وفي أحد الأيام قدمت إلى غرفة العجوز صبية في مقتبل العمر، كانت ترتدي ثوبا أبيض، وقالت له: إنها ابنة جاره الحاج محمود، وإنها ستنظف غرفته وتغسل أوانيه. وهكذا اعتادت هذه الفتاة أن تزوره كل بضعة أيام، لتنظف له غرفته، وتغسل له ثيابه. وعندما علم ابنه قاسم بأن هناك من يعنى بأبيه ثارت ثائرتة، وظن أن جيرانه يفعلون ذلك لكي يكتب لهم الغرفة، فذهب إلى أبيه واعتذر له عن انقطاعه عنه، ثم استجوبه عمّن يزوره، فقال له: إنها زينب بنت جاره الحاج محمود. حذر قاسم أباه من بنات الجيران فطرده أبوه، فذهب إلى الجيران يهددهم كي يمنعوا ابنتهم من الذهاب إلى خدمة أبيه، وقد طرق الباب ففتحت له أم محمود:

- أنا قاسم ابن جار كم الحاج.

- أهلا بك يا بني كيف حال والدك؟ لماذا أهملتّموه؟ هذا حرام، لولا الروماتيزم لذهبت إليه يوميا، إنه عجوز شبه مقعد لا يستطيع الحركة إلا بصعوبة، لكن قيل لي: إن هناك من يعتني به.

- زينب ابنتك هي التي تذهب وتعتني به .

- زينب ابنتي؟ ماذا تقول؟ هل أنت بكامل عقلك؟

وانفجرت باكية وهي تنسج: زينب ابنتي ماتت منذ عامين في حادثة هي وابن عمها، كانا خطيبين.

- أنا آسف.

وفعلا كان طيف زينب يزور العجوز وينظف له غرفته، ويطبخ له، إنها حكاية أشبه بالخيال، وفي حياتنا الكثير من الأسرار التي تبدو أشبه بالخيال، إنها قصة يتناقلها الناس في ذلك الحي الشعبي في العاصمة المزدهمة، عن زينب التي تزور العجوز

الذي أهمله أبناؤه مرتدية كنفها الأبيض، وهي تعلم الإنسان الحس بالعاطفة، في مجتمع سادت فيه المادة، وطغت المصالح الأنانية على كل ما سواها.

فما هي الروح؟ هل هي طاقة محركة كالكهرباء؟ وهل يمكن أن تعيش دون جسم تحركه؟ يتحدث الكاتب الفرنسي الشهير 'أندريه مورا' في روايته 'وازن الأرواح'¹⁴¹ عن صديقه الدكتور جيمس الذي كان يجري تجاربه على الجثث في حالة الاحتضار. وقد خرج بنتيجة مؤداها: إن وزن الجثة يهبط هبوطا مفاجئا بعد الموت مباشرة بمقدار (19 %) ملغ: وبما أن لكل طاقة وزنا، وأنه يمكننا وزن الضوء، من الوجهة النظرية، وحصره في أنبوبة زجاجية، فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للطاقة الحيوية التي ندعوها الروح، على الرغم من أن طنا من الذرات المضغوطة إلى أصلها لا تأخذ حجما أكبر من رأس الدبوس، وبما أن الروح سيال الطاقة المجهولة التي تغادر الجسم بعد موته، فإنه يجري تجاربه على هذه السائلة الحيوية التي تخرج من الجسم بالموت، وتساءل عن إمكانية رؤيتها وتتبعها.

وبالفعل فقد وجد حلقات من الضوء الوردية البنفسجية تغادر الجسم بالموت، وما أن هذه الحلقات البنفسجية لا ترى بالعين المجردة، فقد استخدم الجهاز الذي يجعل المرء يرى في الظلام بوساطة تلك الأشعة، ولدى تعريض الميت لمثل هذه الأشعة ظهرت السائلة التي تغادر جسم الميت، كضوء خافت بحجم البندقة، يرتفع ببطء شديد في الأشعة فوق البنفسجية، وحين يشعل جيمس الضوء تختفي دائرة النور الصغيرة هذه، لأنها لا ترى إلا بوساطة الأشعة فوق البنفسجية.

وفي تجربة تعريض جثة إنسان يحتضر لجهاز الأشعة فوق البنفسجية، تحت ناقوس ضخم من الزجاج، وفي الظلام الشديد، بدأ يرى ضبابا ضاربا إلى الزرقة يخرج من الجثة المحتضرة، ثم ما لبث الضباب أن تركز إلى كتلة لبنية اللون يبلغ طولها نحو (10 سم) واستدار جزؤها الأعلى تبعا لاستدارة الناقوس، ولم تكن تلك الكتلة

¹⁴¹ أندريه مورا، وازن الأرواح، ترجمة عبد الحليم محمود - دار الشعب - القاهرة، ١٩٧١، ص 15

الضوئية جامدة، لا تتحرك، كما لم تكن متجانسة، وإنما فيها تيارات بعضها أنصع من بعض مثل دخان السجائر، يختلف في كثافته ولونه.

وفي فترة تالية بدأ الدكتور جيمس يجمع عدة كرات ضوئية، باعتبار أن كل كرة منها تمثل روحا خرجت من جسد، كما حاول أن يصل السيالة المتجمعة في كرتين اختارهما لشخصين: فتاة منتحرة، وشخص مصاب بالسرطان، فلاحظ أن السيال في كل من الكرتين قد بدأ يخفت، وتجمع كل منهما في كرتيه رافضا التداخل مع الآخر، فاعتبر أن ما يفعله أمر بالغ القسوة، إذ من الممكن أن يكون في كلا الشخصيتين تنافر في الطباع. لذلك كسر الكرتين الزجاجيتين، وترك السيال في كل منهما ينطلق بحرية.

ثم عاد فأجرى تجربة أخرى، حيث وصل بأنبوبة زجاجية بين كرتين في كل منهما سيال لأخين توءم مصابين بحادث، فلاحظ أن السيالة تجمعت في كرة واحدة، و توهجت براقعة، وكأنما تعبر عن سعادة الكائنين في اجتماعهما في حيز واحد محدود.

ويذكر د. عمران في تعليقه على هذه القصة¹⁴² أن كثيرا من الأطباء أكدوا أن ضبابا ينبعث من الجثة لحظة احتضارها ومعاناتها للموت، إذا ما تعرضت للأشعة فوق البنفسجية، وهذا يثبت أن الروح هي طاقة حيوية تخرج من الجسم، بعد موته، فتنتطلق، ولكن إلى أين؟ لا أحد يعلم.

و حين حاول استثمار هذه المعلومات العلمية في قصة فنية، لجأ إلى الحكاية الشعبية التي تعطي الواقع أبعادا أسطورية بعيدة عن الواقع، فوضع قصة 'العودة إلى الحياة'¹⁴³ جعل فيها امرأة تموت، ثم تعود إلى الحياة، فقد رأى حفار القبور أهلها يدفنونها ويدفنون معها الذهب والفضة، فجاء بابنه ليلا، وتعاونوا على حفر القبر لسرقة محتوياته ، فإذا بالجثة تتحرك، فانطلقا هاربين. عند ذلك اقترب 'فارس' الذي كان

¹⁴²طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017 ، ص64
¹⁴³ في مجموعته القصصية: بئر العتمة 1995.

يزور قبر زوجته 'عائدة' المدفونة قريبا، فشق عنها الكفن، وأسعفها، ثم انطلق بها إلى بيته.

لقد سكت قلبها عن الخفقان لعدة ساعات، وعندما عادت إليها الحياة وجدت نفسها داخل القبر، فأنقذها 'فارس' وحملها إلى بيته، فظلت فاقدة الذاكرة عدة أيام، وحين استعادت وعيها حكى له قصتها: إنها 'نورا' المهندسة المدنية التي تزوجت المتعهد عامر الذي خدع والدها فزوجه إياها، ثم خدعها عندما طلب منها أن تكتب له تو كيلا بجميع ثروتها، ففعلت، وعندما استولى على كل شيء طلقها، فأغمي عليها، وعندما علمت أنه تعاون مع عشيقته على إيدائها كانت الصدمة قاسية عليها، فتوقف قلبها عن الخفقان، وظن المتعهد الفاسق أنها ماتت، فمثل أمام ذويها دور الزوج المفجوع، وأظهر الحزن عليها، ثم رش الذهب والفضة المزيفين في قبرها، فخطف أنظار الناس مما دفع بحارس المقبرة إلى الحضور ليلا وحفر القبر ليستولي على الذهب الذي ظنه حقيقيا.

وقد أبلغ 'فارس' الشرطة بالحادث، وقبض على الزوج المجرم الذي كان السبب في موت زوجته، وتزوج فارس بنورا ورزقا فتاة سميها عابدة وهو اسم زوجة فارس المتوفاة .

ومن الواضح أن هذه القصة بعيدة عن معالجة موضوع الروح، وقريبة من الحكايات والقصص الشعبي.

6. العلم في مواجهة الخرافة

ما يزال العقل البشري الحضاري قصيرا بالنسبة إلى وجود الإنسان على هذه الكرة الأرضية، فإذا افترضنا أن الحضارة البشرية الكتابية بدأت منذ ستة آلاف عام، فإن وجود الإنسان قد سبقها بملايين السنين، ولعل طفولة العقل البشري، كطفولة الإنسان قد امتدت طويلا، عرف فيها كثيراً من الأنظمة البدائية، والأمومية، والأبوية، حتى انتهى إلى العصور الحضارية.

ومع كل حضارة صنعها الإنسان كانت تتغير نظم وأساليب حياة. وتغيير أساليب الحياة يتطلب قدراً كبيراً من التكيف له علاقة بالمرض، فكلما ارتفعت درجة التغير كان المرض الذي يعقبها حاداً. والتغير الكثير في الحياة القصيرة يشكل تحدياً خطيراً للجسم البشري، فهناك ارتباط بين قدرة مقاومة الجسم ومتطلبات التغير التي تفرضها البيئة المعاصرة.

في مؤتمر عقد بشأن أمراض البيئة المعاصرة المتغيرة تحدث عالمان روسيان عن قرد عزيز في قومه، وذو كيان بينهم، وعندما عزلوه وتركوه يتفرج على زملائه الذين يسرحون ويمرحون، ويغازلون أنثاه المفضلة، ثار وغضب، وتوترت أعصابه، وارتفع ضغطه، ثم أصيب بأزمة قلبية، فمات.

وقد توصلت عيادات الطب في الدانمارك إلى (65%) من حالات الروماتيزم، وشلل العمود الفقري، والديسك، سببها الإرهاق النفسي، وتوتر الأعصاب الحاد. وقد أكدت التجارب أن أمراض (الروماتيزم) تحدث إثر الأزمات النفسية القوية، حيث يتضاعف إفراز مادة (مولد الضد) السامة، فيتأثر العمود الفقري والعضلات.

ولهذا يؤكد الطب الحديث على ضرورة الربط بين النفس والجسم، والتفاعل بينهما، لأن تدهور الحالة النفسية الناشئة عن الكآبة أو الإرهاق اليومي المتصل كثيراً ما يؤدي بالجسم إلى العلل والأمراض.

وقد وضع د. عمران في مثل هذه المواضيع أكثر من خمس عشرة قصة، فسر فيها هذه الظواهر جميعاً تفسيراً علمياً.

وفي قصته 'وحش البحيرة'¹⁴⁴ تظهر وحوش هائلة غريبة الشكل في منطقة البحيرات في شمالي الصين، فيشبهها بعضهم بالديناصورات، ويشبهها آخرون بالتنانين متعددة الرؤوس.

¹⁴⁴ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

فتوجهت بعثة علمية إلى هذه المنطقة لدراسة هذه الوحوش الأسطورية التي أرعبت السكان، وأغرقت بعض السفن، ومزقت شباك الصيادين.

وقد اكتشفت البعثة العلمية أنها ليست وحوش منقرضة، ولا ديناصورات، وإنما هي نوع ضخمة، ونادر من أسماك السلمون، تغذت على نباتات وأعشاب مائية غنية بالبروتين، والمواد التي تؤثر على هرمون النمو في الغدة النخامية، وهذا ما جعل هذه الأسماك تنمو بشكل خرافي، حتى إن وزن السمكة ليكاد يصل أحيانا إلى أكثر من طن.

وهكذا حل العلم لغز الوحوش المرعبة التي أفلقت الناس طويلا، إذ لم تكن سوى أسماك سلمون عملاقة وغير مؤذية ما دام لا يضايقها أحد.

وفي قصته 'رذاذ جوايرا' ¹⁴⁵ وهي أعظم شلالات في العالم، وتقع في 'البارغواي'، قرب الحدود البرازيلية، حيث أمطار المنطقة دائمة التهطل ليلا ونهارا، وصيفا وشتاء ...

وقد توجهت بعثة علمية لدراسة هذه الظاهرة، ومعرفة سر الأمطار المستمرة التي لا تنتقطع، فوجدت أن الرذاذ المنبعث من هذه الشلالات الهائلة هو الذي يتطاير في الفضاء، ويسقط على المنطقة، فيجعلها دائمة الأمطار، في كل فصول السنة.

وقد صاغ الكاتب هذه المعلومة العلمية بأسلوب قصصي شائق، وجعل شابين يغامران في رحلة بين أدغال المنطقة وغاباتها، فيتعرضان لكثير من الأهوال والمصاعب، حتى انتصرا، وحل (اللغز) الذي كان مجهولا بالنسبة للكثيرين.

وفي قصته 'النوم يقتل أحيانا' ¹⁴⁶ يسافر ياسر إلى غانا لزيارة أقربائه فيها، وحين يتجول في عاصمتها أكرا تلسعه ذبابة تسي تسي التي تصيب المرء بمرض النوم، فيرشح أنفه، وتدمع عيناه، وتتورم أطرافه، ويصاب بخمول ونعاس شديدين، ولا تنفع

¹⁴⁵ نفس المصدر

¹⁴⁶ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

معالجته بمصل مضاد لطفيليات مرض النوم من قبل طبيب عصري، فيستدعى طبيب شعبي يسقيه منقوعا عشبيا يشفيه.

والسر في ذلك هو نوع من البكتريا الدقيقة جدا، بحيث أنها إذا كبرت ألف مرة، فإنها لا تبدو للناظر أكثر من نقطة في صفحة بيضاء، ولا يبلغ حجم الأربعمئة مليون بكتريا حجم حبة صغيرة من حبات السكر الناعم، إنها صغيرة جدا ودقيقة بحيث لا ترى إلا بالمجهر الإلكتروني، ولكن مفعولها كبير جدا، وهي التي تسبب مرض النوم الذي تنتقله ذبابة 'تسي تسي'.

وهناك أنواع أخرى من البكتريا ولكنها غير مؤذية وإنما هي مفيدة للإنسان، من مثل (البكتريا) المشعة التي تنتشر فوق بعض النباتات والأشجار، وفوق رؤوس بعض الأسماك فتجعلها تبدو أشباحا عملاقة تتحرك مشعة، مما يطلق خيال البسطاء فيتصورونها جنا أو عفاريت.

وتبلغ البكتريا من ضالة الحجم ودقة التركيب بحيث يصعب كشفها عن طريق أقوى المجاهر الضوئية العادية ولا يمكن الكشف عنها إلا بالمجهر الإلكتروني.

وقد فسرت هذه البكتريا الضوئية ظاهرة المخلوقات النورانية، ففي قصته 'أشباح الأشجار'¹⁴⁷ تظهر كائنات ليلية خرافية تتجول في المناطق المهجورة ويعتقد أنها جن أو عفاريت، بينما هي نوع من البكتريا المشعة التي علقت بالأشجار، فأشعت ليلا، وتعملقت على البسطاء فظنوها أشباحا.

وكذلك الأمر في قصة 'أبي تامر'¹⁴⁸ عامل التنظيفات الذي كان يجمع القمامة ليلا فوجد كومة يعتليها شخص مضاء، ففر هاربا منه، دون أن يجرؤ على الاقتراب منه.

وفي الليلة التالية شاهد كومة أخرى يعتليها شخص مضاء آخر، فلم يجرؤ أيضا على الدنو منها، حتى أنقذه الحارس الليلي الذي فسر له السر، فما هذه إلا رؤوس مشعة

¹⁴⁷ نفس المصدر

¹⁴⁸ نفس المصدر

من فضلات الطعام، ألقاها الناس خارج منازلهم، فبدأت القمامة وكأنها تشع ضوءاً، وسبب الإشعاع هو أنواع من 'البكتريا' الضوئية المشعة غير الضارة تنتشر أيضاً في البحر وتتوضع على بعض الأسماك التي تظهر وكأنها تشع ضوءاً على ما حولها.

وفي قصة 'برج التحدي'،¹⁴⁹ أعشاب تدعى 'أعشاب الجنة' تستعملها القبائل الهندية لشفاء جميع الأمراض، وليست أعشاب الجنة سوى أعشاب طبية أثبت العلم فاعليتها وجدواها في علاج كثير من الأمراض، حتى أن الصين الحديثة جعلت معظم أدويتها من خلاصات هذه الأعشاب الطبية التي لا تترك آثار جانبية سلبية أخرى في جسم المريض كما تفعل الأدوية الكيماوية.

وقد نسج الكاتب قصة فنية حول هذه المعلومة العلمية / الطبية، فجعل عاصم الشاب الذي يتابع دراسته العالية في الطب في إحدى الجامعات الأمريكية، يرغب في قضاء إجازته السنوية في جزر هاواي حيث يعيش عمه العربي المغترب، فسافر مع ابن عمه سامي إلى جزيرة الميلانيز التي ما يزال سكانها يتمسكون بتقاليدهم القبلية الغربية.

وقد وصلوا في الوقت الذي تحتفل فيه الجزيرة بعيد البطولة، حيث نصب برج خشبي عال يرتفع ثلاثين متراً فوق الأرض، ويصعد عليه الشبان لإلقاء أنفسهم من فوق سطحه إلى الأرض، وقد صعد شاب ربط رجله بحبل طويل، وألقى بنفسه من أعلى البرج إلى الأرض فارتطم جسمه بالبرج، لأن الحبل المربوط برجله كان أقصر من أن يسمح له بالوصول إلى الأرض، فوقع ميتاً.

ثم صعد شاب آخر، فألقى بنفسه من أعلى البرج، فسقط ميتاً أيضاً، لأن الحبل المربوط برجله كان أطول من اللازم، مما أتاح لجسمه الارتطام بالأرض من هذا العلو الشاهق، ويبدو أن تقدير الطول المناسب للحبل هو الذي يقي المرء من الموت، فقد صعد شاب ثالث وألقى بنفسه، فوقع على رجليه، دون ألم، وهذه هي الشجاعة

¹⁴⁹ نفس المصدر

الفريدة لديهم، ولهذا حملوه على الأكتاف، وتوجه زعيم القبيلة بوضع إكليل من الزهور على رأسه، وضمه إلى مجموعة الشبان الشجعان الذين نجحوا في قفزة الموت، فأسندت إليهم مهمة حماية القبيلة، وتدريب الرجال، ولهم وحدهم الحق في تناول أعشاب الجنة التي تشفي جميع الأمراض، وتزيد من مناعة الأجسام، كما يحق لهم الزواج من أية فتاة برغبونها، بل إنها وعائلتها تتباهيان بمكانة هذا الشاب الشجاع بين أفراد القبيلة.

أما قبائل التوغو في أفريقيا، فيقوم ساحر القبيلة، وسط طقوس غريبة، بضرب المرضى من النساء والرجال، لتخليص أجسامهم من الأرواح الشريرة التي استوطنتها، ومن يخرج سليما بعد الضرب يعش معافى طوال حياته، والساحر وحده الذي يقرر عدد الضربات بالعصا، وكثيرا ما يموت المريض تحت الضرب المبرح، وفي عرف الساحر والقبيلة أن الأرواح الشريرة سكنت جسم المريض، وأنها لا تخرج منه إلا بضرب الجسم، فإذا مات المريض تحت الضرب دون أن تخرج الأرواح الشريرة من جسمه، فهو معذب بائس ينتظره المسخ في الأجيال اللاحقة، عبر رحلة التقمص المسندة عبر القرون، ومن يشفي فإنه لن يرى المرض ثانية لأن الساحر يأمر بتدليك جسمه يوميا، ولشهر كامل، بمحلول من الأعشاب التي تزيد في نشاطه وقوته.

و سر هذا المحلول المنشط والمقوي هو في قلب الساحر الذي يختص بمعرفته وحده، ومن البين أنه محلول عصارة بعض الأعشاب الطبية التي يكثر وجودها في الغابات الاستوائية.

وليست معالجة بعض الأمراض بضرب المريض من قبل الساحر لتخرج الأرواح الشريرة من جسده في أفريقيا وحدها، بل هي في كل بيئة متخلفة، ففي قصة 'سوط

الشيخ زكي،¹⁵⁰ يعود سليم من أوربا بعد أن أنهى دراسة الطب ليجد أباه العجوز عاجزا مشلولاً، لأن جنيا شريرا قد تلبسه.

وبالطبع فقد رفض سليم الفكرة ولكنه شهد شيئا لم يكن يخطر بباله أبداً، فقد كان العجوز يتكلم بصوتين مختلفين، أحدهما يقرع الآخر ويتهمه بالجريمة، والآخر يدافع عن نفسه بالبكاء وبالعبارات الغامضة. وقد شهد سليم عملية التعذيب هذه فكأن أحدا يضرب والده، فيختلج جسمه من الألم، وبررت والدته الأمر بأن الروح الشريرة تعذبه، وتوشك أن تقتله ببطء.

وبالطبع لم يقتنع سليم بهذا، فزار أحد أطباء النفس في المدينة، وعرض عليه حالة والده، فأكد له الطبيب أنها حالة نادرة لم يشهد مثلها، ثم عرضه على طبيب ثان، وثالث، ورابع، دون جدوى، حتى يؤس من علاج الطب الحديث، فلجأ إلى الشيخ زكي ذي الباع الطويل في طرد الجن المتلبس.

طلب الشيخ زكي مبلغاً محترماً من المال، كي يقوم بإخراج الجن الشرير من جسد الوالد، وقد أصر على استلامه سلفاً، ثم قام بعمله في جلد الوالد العجوز بالسوط، فبدأ العجوز يطلق الصرخات المؤلمة والأصوات غير المفهومة، بينما كان الشيخ زكي يهدر على الجني أمراً إياه بالخروج من الجسد الناحل.

وتكررت جلسات التعذيب دون جدوى، فالعجوز يزداد ذبولاً وبؤساً، مما دفع بابنه الطبيب أن يأخذه إلى طبيب نفسي في بيروت، وقد نومه هذا الطبيب تنويماً مغناطيسياً، ونفذ إلى ذاكرته، فتعرف على المشكلة التي يعاني منها، وهي أنه كان قد صدم بسيارته ابنة صديقه الطالبة الجامعية ولم يقف لأنه رآها تنهض دون أن تنتبه له، لكن الفتاة ماتت بعد عامين من نزيف داخلي، ومنذ ذلك الحين أصيب العجوز بانفصام الشخصية 'الشيزوفرانيا'، فصار يتكلم بصوتين مختلفين، هما صوت شخصيته التي تتهمه بقتل الفتاة، وصوت النفس المنهارة التي لم تجد أمامها سوى

¹⁵⁰ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

البكاء، وأكد له الطبيب بعد أن نفذ إلى أعماق المشكلة، أن العلاج هو أن يبرهنوا للعجوز بأن الفتاة لم تمت بصدمة السيارة، وإنما بسبب آخر.

فأداروا أمامه حرارة بشكل غير مباشر نضمن أن الفتاة لم تمت بسبب صدمة السيارة، وإنما بسبب مرض السرطان الذي تفشى في جسمها.

وهكذا تخلص المريض بالتدريج من مرضه النفسي بوساطة العلم لا السحر .

وكذلك الأمر في قصة 'مساحات للظلمة'¹⁵¹ التي كان يتبجح فيها فاجر فاسق مغامراته النسائية، وبأملكه و أراضيه. وعندما شاهد فتاة ريفية فقيرة هي ابنة فلاح أجير عنده، اشتهاها، وعندما طلب منها اللحاق به نظرت إليه باستعلاء وتابعت سيرها، فجن جنونه إذ كيف تتحدى أمره، وهو السيد المطاع؟ ونزل عن جواده، فانهال عليها بالسوط ضربا، ولكنها صرخت به: كالبهيمة تمتلك الرغبة، ما الفرق بينك وبين الحيوان الذي لا يتحكم بغرائزه". ثم بصقت في وجهه، ومشت.

احتقر نفسه وطبقته وأملكه، هو الذي تتمنى إشارة منه أجمل نساء التجار والأثرياء وكبار رجال الدولة، تعسر عليه هذه الفتاة الفقيرة؟.

وبدأ يتخلى عن صفاته العنيدة التي عرفوها فيه.

والتقاها بعد تسعة أشهر، فشكرها على أنها غيرت حياته، ثم التقاها مرارا، وحن بها هياما، فتقدم إلى والدها خاطبا، فطاش صواب الوالد فرحا، لكنها رفضت قائلة: إنها لن تتخلى عن طبقته، فقرر هو أن يتخلى عن طبقته، فوزع أملكه وثروته على عماله وفلاحيه، واتهمه الناس بالجنون.

وعندما أصبح فقيرا مثلها خطبها فوافقت، لكنه لا حظ أن بطنها تكبر وتنتفخ، وهما ما يزالان في طور الخطوبة، وظن والدها أنها ارتكبت إثما، فقتلها غسلا للعار، وعندما شرح الطبيب جثتها وجدها حالة نادرة، إذ لم يكن في أحشائها جنين، وإنما

¹⁵¹ طالب عمران، مساحات للظلمة – مجموعة قصصية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1992

هو أخوها التوعم الذي حملته معها، وحين كبرت امتد جسده على حساب جسدها حتى وصل إلى هذه الضخامة.

إنها حالة نادرة، لم يكتشفها العلم إلا مؤخراً وراحت ضحيتها فتاة بريئة، ولعل كثيرات قبلها رحن ضحايا الجهل والخرافة.

إن أمراضا كثيرة لم تكن أسبابها معروفة في الماضي ولذلك كان المريض يقضي فيها دون أن يعرف أحد سبب موته، من ذلك - في رأي عمران - مرض 'الإيدز' أو عدم قدرة الجسم على الاحتفاظ بالمناعة التي يقاوم بها الأمراض، وقد أصبح هذا المرض اليوم مصدر رعب للناس في المجتمعات الاستهلاكية، وهو يزداد يوماً بعد يوم، وينتشر عبر طرق ثلاث: الاتصال الجنسي الطبيعي أو الشاذ، وعن طريق الدم، وعن طريق الأم الحامل لجنينها.

ويوظف الكاتب هذه المعلومات العلمية في قصة 'حقنة دم ملوث'،¹⁵² فيسرد قصة 'زينة' الفتاة الثرية ذات الخمسة والعشرين ربيعاً، وقد عادت إلى البيت متهاككة، فاستدعت أمها الطبيب الذي فحصها وقال: إن لديها ازدياداً في عدد الكريات البيض في الدم، ونصح بمعالجتها في باريس.

وفي باريس تم علاجها بعمليات تغيير دم لها، فتماثلت للشفاء، وعادت مع ذويها إلى الوطن، ولكنها لم تدر أنها حملت مع الدم الجديد الذي نقلوه إلى جسمها جرثومة الإيدز، كما لم يعرف الأطباء سبب مرضها الدائم وضعفها فجربوا عليها أنواعاً عديدة من العلاجات لكنها باءت بالفشل، وأمام ذلك الإخفاق نصح بمعالجتها خارج القطر.

وفي لندن أعيد فحصها فنتبين أنها مصابة بمرض الإيدز الذي قضى عليها بعد يومين من معرفته ولحقت بها ابنتها بعد فترة قصيرة لأن مرض الإيدز ينتقل من الأم الحامل إلى جنينها.

¹⁵² طالب عمران، الذي أربع القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996.

على الرغم من أن معظم الأشخاص المصابين بـ الإيدز يعيشون حياة طبيعية، ولا يظهر عليهم الهزال والشحوب و بروز العظام كما يتخيل الناس، فقد تحلس إلى جانب شخص مصاب بالإيدز في سيارة، أو باص، أو مقهى وهو يمارس حياته الطبيعية، دون أن تعرف بمرضه، وأحياناً دون أن يعرف حتى هو بمرضه، والمهم فيه هوسيطرة الفيروس على المصاب، هذا الفيروس الذي ينتظر حتى يضعف الجسم برشح أو بنزلة شعبية وافدة، فيهاجم الجسم ويدمر جهاز مناعته الطبيعية فيموت المصاب خلال فترة قصيرة.

وفي الدول المتطورة يعيش المصابون بالإيدز في مستشفيات نظيفة يعتني بهم جيداً. وحين يتألمون يعالجون بسرعة، وتخفف عنهم وحدتهم وسائل التسلية. أما في العالم الثالث فيموت مرضي الإيدز نفسياً قبل موتهم سريرياً، ذلك أن عزل المريض ووحشته القاتلة، والتهرب من لقائه واحتقاره أحياناً وكأنه ارتكب جريمة شنيعة على الرغم من أن الإصابات في العالم الثالث غالبيتها بسبب نقل الدم الملوث، أو بسبب الإدمان على المخدرات، أو المعاشرة الجنسية المتكررة مع نساء طليقات.

ويروي الكاتب في قصته 'ولكنها تطحن ناعماً ناعماً'¹⁵³ قصة حدثت في أحد أحياء العاصمة، حيث كانت الأم تلح بأسئلتها على ابنتها العائدة حديثاً من سفر بعيد:

- أريد أن أطمئن عليك يابنيتي، يجب أن أعرف ظروف طلاقك وأسبابها، وهل كانت علاقتك مع زوجك غير متوازنة؟.

كانت في بلد أوربي يعتبر الفتاة التي لا تقيم علاقات مع الشبان فتاة معقدة، الحرية الجنسية فيه مباحة، وكي تهرب من هذه الفكرة قبلت الزواج من شاب تركي، زميل لها، وعاشت معه حتى حان وقت رجوعها إلى الوطن.

وفي الوطن طلب منها ورقة تبرع بالدم، كواحدة من الأوراق المطلوبة للتوظيف وعندما تم فحص دمها تبين أنها مصابة (بالإيدز)، فلم تصدق كيف؟ معقول؟ ربما

¹⁵³ طالب عمران، الذي أربع القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996..

تورطت في أكثر من علاقة جنسية بباريس لإغاطة (يشار) الذي كان يغار عليها كثيراً. لقد كانت حرة في باريس، وكانت تضرب عرض الحائط بكل نصائح الطلاب العرب الذين يتكلمون عن سلوكها وسمعتها، ماذا ستفعل لو عرف أهلها أو معارفها بمرضها؟.

وذات يوم كانت تروح عن نفسها في الحديقة العامة، فالتقت شاباً جلس إلى جانبها، وبادلها الحديث، فعرف أنها مريضة بمرض لا يمكن شفاؤه، وعرفت أنه فقد زوجته وابنته في يوم واحد، فجمعتهم المأساة، وتكررت لقاءاتهما، حتى انتهت بطلبه الزواج منها، فرفضت بشكل قاطع، إذ لا يمكن أن تقوده بيدها إلى حتفه. وحين عرف من طبيبها الذي يشرف على علاجها نوع مرضها، عرف كم كانت حريصة على أن تظل علاقتهما بريئة ولم رفضت الزواج منه.

وفي المشفى تم عزلها في غرفة خاصة تحت المراقبة، ورافق حالتها إصابة بسرطان الجلد، فأخذت تذوي ببطء حتى ماتت. وهكذا دفعت حياتها ثمن حريتها الجنسية التي تمتعت بها في بلاد الغرب، وكان ثمننا باهظاً.

وهناك مرض قاتل اسمه 'الوهم' وهو عدو نفسي خطير تروي الكتب عنه قصصاً كثيرة عن أناس مرضوا بالوهم، فتشبت بهم حتى قتلهم، ويتحدث الكاتب في قصته 'قاتل اسمه الوهم'¹⁵⁴ عن أحد مرضى الوهم، وهم كثيرون في مجتمعنا، هو 'شاهد' الذي عاش مدلاً في أسرة غنية، لكن والده أضاع ثروته في لعب القمار، فوجد شاهد نفسه فقيراً، وهو في العشرين من عمره، بعد أن قضى والده متحسراً على ثروته الضائعة.

وقد حاول شاهد أن يقف على قدميه فلم يستطع، فباع كل شيء، وخسر كل شيء، ولم يبق لديه سوى قطعة أرض كان سيبيعها لولا أن وقفت أمه في وجهه فمنعته من بيعها. وطلبت منه أن يعمل فيها.

¹⁵⁴ طالب عمران، الذي أربع القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996.

ولكنه رُبِّي على غير حب العمل، وكان يحمل أوهاماً عن الفلاحين وعن الأمراض التي يحملونها، مما جعل هذه الأوهام تفتك به وتودي به إلى الموت.

وبالمقابل فإن قوة الإرادة، والصبر والعيش بين أحضان الطبيعة والهواء الطلق، وتناول الأطعمة الطبيعية غير المصنعة، تحقق نتائج باهرة، وتنتصر على المرض والألم، كما في قصة 'الانتصار على الموت'،¹⁵⁵ حيث يجعل الكاتب بطله نعمان المدرس في الجامعة، يشكو من صداع دائم، ولدى مراجعته طبيبه تبين أنه مصاب بورم ينبغي استئصاله، فأجرى العملية الجراحية دون أن يخبر عائلته، كي لا يقلقهم.

ولكن المرض عاوده بعد أربع سنين، فعاد الصداع من جديد، وظهر في الصورة الشعاعية نمو الكتلة الورمية من جديد وهي تحتاج إلى عملية استئصال ثانية، ولأنه لا يريد أن يزج أسرته، فإنه قرر إجراء العملية الثانية دون أن يخبر أحداً أيضاً، ونجحت العملية، ولم تتم الكتلة للمرة الثانية، وما يزال نعمان مرحاً مبتسماً، لا مبالياً. ولعل سبب انتصاره على المرض هو تفاؤله الدائم، ونفسيته المرححة، وعدم اكترائه، فهذه كلها تجعله ينتصر على أقسى الظروف.

إن قوة الإرادة، والرغبة في الحياة، تجعل المرء ينتصر حتى على الموت، كما في قصة 'دائرة الموت'،¹⁵⁶ التي يروي فيها الكاتب قصة 'أولمان' الشاب الفرنسي الذي كان منخرطاً في مقاومة الجيش الألماني الزاحف عام (1943)، فقد أصيبت طائرته في الحرب، فاستطاع أن يصل بها إلى منطقة كثيفة الأشجار، وأن يقفز منها، لكن مظلته لم تنفتح، فسقط فوق الثلج، ورأى طائرته تصطدم بالأرض وتشتعل.

أما هو فقد نجا من الموت بمعجزة، حيث سقط على الثلج صحيحاً معافى، وعثر عليه رجال المقاومة الفرنسية فأسعفوه.

¹⁵⁵ طالب عمران، بئر العتمة، دار علا، دمشق، 1990

¹⁵⁶ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

كذلك تعرض د. عمران لبعض الحوادث الطبيعية التي لا تحدث إلا لمأما، وهي تصيب الإنسان بالدهشة والذهول، من مثل اقتراب أحد المذنبات من الأرض، وكسوف الشمس، وكسوف القمر، وسقوط نيزك أو شهاب ... إلخ.

ففي قصته 'حكاية ليلي و حسن'،¹⁵⁷ يذبح الأخ أخته ليلي لأنها أحببت 'حسن'، وعندما يدافع الأخير عنها يذبحه فوقها، ويذهب الاثنان ضحية الحب الطاهر البريء.

وقد وافقت هذه الجريمة كسوف الشمس، كما ارتبط كسوف الشمس أيضا في عام (1919) بمآسي الحرب العالمية الأولى.

والتفسير العلمي لكسوف الشمس هو أن ظل الأرض يقع على الشمس، وهونادر. وقد لا يرى المرء طوال حياته كسوفاً كلياً تاماً للشمس، بخلاف خسوف القمر الذي يقع فيه القمر في ظل الشمس، وقد يحدث ثلاث مرات في العام.

من هنا ربط بعضهم الأحداث التي تقع في الكواكب بأحداث حياة الإنسان، بل لقد جعلوا للبشر طوابع حسب الأبراج السماوية التي عدتها اثنا عشر، وكل برج منها يقع في كوكب، فبرجا الحمل والعقرب في المريخ، وبرجا الثور والميزان في الزهرة، وبرجا الجوزاء والسنبلة في عطارد، وبرج السرطان في القمر، و برج الأسد في الشمس، و برج القوس في المشتري، و برج الجدي في زحل.

وكما أن لكل من هذه الكواكب السبعة السيارة (المريخ، والزهرة، وعطارد، والقمر، والشمس، والمشتري، وزحل) طبيعتها الخاصة بها، فإن القدماء صنفوا البشر، وجعلوا طوابعهم موافقة لطبائع هذه الكواكب، وقسموا الطبائع إلى أربع هي العناصر التي يتألف منها الكون، وهي: الهواء، والماء، والتراب، والنار، فكل الطوابع محصور فيها، فطبع الحمل ناري، والثور ترابي، والجوزاء هوائي، والسرطان مائي، والأسد ناري، والسنبلة ترابي، والميزان هوائي، والعقرب مائي، والقوس

¹⁵⁷ نفس المصدر

ناري، والجدي ترابي، والدلو هوائي والحوت مائي. ولدى استقراء طالع الإنسان عرفوا حياته وزواجه وأبناءه ومستقبله .

كما سماوا أيام الأسبوع السبعة بأسماء الكواكب السبعة، فالأحد للشمس (Sunday) والاثنين للقمر (Monday)، والثلاثاء للمريخ (Tuesday) والأربعاء للعطارد (Wednesday)، والخميس للمشتري (Thursday)، والجمعة للزهرة (Friday)، والسبت للزحل (Saturday) بل إنهم جعلوا لكل ساعة من ساعات اليوم كوكبها.

وبالطبع فإن هذا كان علم قوم لم يكن لهم علم غيره. ثم تطور العقل البشري والمعرفة الإنسانية فأصبح هذا العلم اليوم خرافة، كما سيصبح علم اليوم خرافة في المستقبل، وهذا دليل على تطور العقل البشري المستمر.

ثم ينتقل الكاتب إلى ظواهر أخرى عامة في الحياة من مثل عدم تأثر بعض الأجسام بالسم، وقوة بعض الأجسام في استنشاق الهواء الخالي من الأوكسجين، ومساعدة الحيوان للإنسان ... إلخ، وكلها معلومات خارقة لكنها مصاغة صياغة فنية بأسلوب سردي مشوق، ففي قصة 'صياد الثعابين'¹⁵⁸ يتعلم الشاب المغربي صناعة صيد الثعابين لبيعها إلى مركز طبي فرنسي، ولم يكن يخشاها، فصار يمسك بالثعابين دون خوف أو وجل، ويضربها بالأرض لتموت، وقد يأكل لحومها نيئة، أو يشويها فلا يؤثر سمها فيه.

وقد أجرى الاختصاصيون في معهد 'باستور الفرنسي' عليه عدة تجارب لمعرفة أثر السم في جسمه، فتوصلوا إلى نتائج مذهلة، فقد سقوه كأساً من السم شربه بهدوء قائلاً: إنه لذيق الطعم. ولم يتأثر جسمه بكمية السم التي تقتل عشرة رجال.

هل يعتبر هذا الشاب المغربي ظاهرة استثنائية من النادر حصولها؟، من المعروف أن 'راسبوتين' الراهب الدجال الذي أوشك أن يحكم روسيا القيصرية كان يتمتع بقدرة

¹⁵⁸ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

كبيرة على مقاومة السم، إضافة إلى قدراته الأخرى في التنويم المغناطيسي، والتخاطر عن بعد ... فهل هذه الميزة في جسم الشاب هي هبة الطبيعة لواحد من مليون من أبنائها على أن يكون مميزاً؟ أم هي بتأثير وراثي أو بيئي؟.

إن جسم الإنسان هش يصاب بسرعة بالمرض. ومع ذلك فإن لديه قدرة كبيرة على التكيف في أية ظروف طبيعية، خلال مدة تطول أو تقصر، حسب استعداده لذلك، وكما أن أفراد القبائل التي تعيش في المناطق العالية عن سطح البحر يملكون رئات تختلف عن رئات قاطني الأودية والصحارى، أو بالأحرى تتحمل أجسامهم الهواء الذي تقل فيه نسبة الأوكسجين، فإن لصيادي الإسفنج رئات تمكنهم من التعود على الظروف الصعبة عند الغوص في الأعماق، ففي قصته 'سقف العالم' ¹⁵⁹ يروي الكاتب بطولة متسلقي الجبال. ومن المعروف أن قمة 'إفرست' في جبال الهيمالايا في الهند هي أعلى قمة في العالم، وهي تشكل أكبر تحد للظروف الطبيعية، لأن الحياة فوقها ليست صعبة فحسب، وإنما يعتبر الوقوف فوقها لدقائق من الأمور غير الطبيعية، إذ يبلغ ارتفاعها نحو تسعة آلاف متر عن سطح البحر، ولذلك فإن المتسلقين الذين ينجحون في الوصول إليها يستخدمون كمادات الأوكسجين، لأن من الصعب تنفس الهواء المخلخل في تلك الارتفاعات، إذ كلما ارتفع الإنسان عن سطح البحر يخف الضغط ويتخلخل الهواء لذلك يحتاج إلى الأوكسجين إضافة إلى أجهزة لقياس الضغط والحرارة والارتفاع عن سطح البحر.

ثم يصف الكاتب رحلة مغامرين إلى قمة 'إفرست' وما لاقياها من صعوبات، حتى نجحوا في الوصول إليها، والوقوف مدة ربع ساعة دون كمادات أوكسجين، متحملين البرد الشديد والرياح العاصفة، ثم عودتهما سالمين إلى المعسكرات التي زرعاها في طريقهما، فقد شارك في حملتهما هذه حوالي مئتي شخص تقريباً.

¹⁵⁹ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

وفي قصة 'ذئب الليل'،¹⁶⁰ يصور الكاتب مناظلاً وطنياً 'طاهر'، ينقل المؤونة والسلاح للثوار الوطنيين في الجبال، وقد قبض عليه الفرنسيون وحبسوه في كهف مظلم، فوجد في الكهف ذئباً، قاده هذا الذئب حتى أوصله إلى المخرج الثاني للكهف، فانطلق إلى قريته فرحاً.

كيف حدث هذا؟ وهل يعقل أن يساعد حيوان إنساناً؟ وعلى الخصوص إذا كان الحيوان من آكلي اللحم، كالإنسان، هذا ما لم يستطع 'طاهر' تفسيره حتى اليوم، على الرغم من أنه قد تجاوز السبعين من عمره.

وفي قصته (حين تجوع الجرذان)¹⁶¹ يثبت الكاتب مهاجمة أسراب جرد الحقول الجائعة لمحصول القمح في قرى الجنوب عام (1959) فيصور تعاون الفلاحين في وضع خطة حراسة جماعية لحقولهم.

لكن جوع الجرذان الشديد دفعها، ليس إلى التهام حقول القمح فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى مهاجمة الأشخاص، وتجريد الإنسان من لحمه لتبقيه هيكلاً عظيماً.

وقد استطاع الفلاحون أيضاً بتعاونهم حفر خندق حول القرية وإشعال النيران فيه، فسقطت أسراب الجرذان الزاحفة إليهم، لتلقى حتفها شويماً بالنار .

وفي قصته 'في مركز بيع العيون'،¹⁶² يصف الكاتب الذي كان قد عاش طويلاً في الهند، الفقر الذي تعاني منه ملايين البائسين، والذين يضطرون فقرهم إلى بيع جثث موتاهم، بمبالغ زهيدة، لأي معهد طبي، بدلاً من عملية حرقها التي تكلف غالباً، ووضع الرماد في قارورة معدنية صغيرة مغلقة بإحكام، وإلقائها في نهر الغانج حيث تندفع مع غيرها في التيار نحو المحيط الهندي.

¹⁶⁰ طالب عمران، الذي أُرعب القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996

¹⁶¹ نفس المصدر

¹⁶² طالب عمران، بئر العتمة، دار علا، دمشق، 1990

كما يصف فقراء الهند الذين يبيعون أعضاء جسمهم، بسبب فقرهم، فيبيعون عيونهم للمشافي التي تتبعها بدورها للأثرياء والمحوظين بالملايين، في عمليات زرع القرنية الناجحة في الهند، وهكذا يصل عدد العميان في الهند إلى عشرة ملايين، وعدد المجذومين تسعة ملايين من عشرة ملايين في العالم، أما المنبوذون الذين ليس لهم مأوى سوى الأرصفة فهم أكثر عدداً من أن تحصى.

المبحث الثالث: البحث عن الخلود والشباب الدائم

إذا كان 'فرنسيس بيكون' قد قال سابقاً: "إن المعرفة هي القوة"¹⁶³ فإننا يمكن أن نقول اليوم: إن المعرفة هي التغيير، فالتحصيل العلمي المتسارع يعني تسارع التغيير، وعندما تتغير الأشياء من حولنا، فإن تغييراً موازياً يحدث في داخلنا، وهذا ما قال به تشرشل¹⁶⁴: "نحن نهندس أبنيتنا، وأبنيتنا تهندسنا".

وبما أن هدف العلم هو تحسين الكائن الإنساني، وهدف الحضارة هو إسعاده، فإن الثورة البيولوجية هي عصب الثورة العلمية، ومنجزاتها العلمية كانت وما زالت مثار الإعجاب والمناقشات الحادة، باعتبارها تهدف إلى صنع مجتمع جديد، لا مجتمع معدل.

وإذا كان القرن العشرون قد توصل إلى أعظم تغيير في تاريخ البشرية عندما اكتشف الأتمتة والسبرنة، فإن القرن الحادي والعشرين ستكون أعظم إنجازاته في هندسة الأحياء والبيولوجيا.

إن طفلة أنبوب الاختبار التي جاءت عن طريق التلقيح بين الخلايا الجنسية لأبها وأبيها، ليس على فراش الزوجية، وإنما في أنبوب اختبار، وبعد عدة أيام تم فيها

¹⁶³ وردت العبارة في كتاب غير معروف ليكون، ويُدعى 'تأملات في المقدس'؛ ولكنها اشتهرت بعد أن اقتبسها توماس هوبز، في كتابه الشهير 'الليفيثان'. ويرى مؤلفا كتاب 'جدل التنوير'؛ وهما هوركهامير وأدورنو، أن يكون بهذه العبارة يؤسس لفكر التنوير أو الحداثة.

¹⁶⁴ ونستون ليونارد سبنسر تشرشل Sir Winston Leonard Spencer-Churchill، رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية من 1940 حتى 1945، ومرة أخرى من 1951 حتى 1955. رجل دولة بارز، خطيب مفوه و مخطط استراتيجي.

انقسام البويضة الملقحة إلى عدة خلايا، ثم نقلت بعد ذلك إلى رحم الأم، ليواصل الجنين نموه وتطوره.

وبعد هذه الثورة البيولوجية الهائلة أصبح في مقدور أية امرأة أن تتباعد جنينا مجمدا وتأخذه إلى طبيبه ليزرعه في رحمها. ومثل هذا الجنين يباع مكفولاً بضمانات، منها أنه سيكون خالياً من العيوب الوراثية، وسيعرف المشتري مسبقاً لون عيني الطفل، ولون شعره، وجنسه، وذكاءه ... إلخ. كما سيصبح في المستطاع الاستغناء عن رحم الأنثى، لأنه يمكنه أن ينشأ في أنبوب اختبار يؤمن له ما كان يؤمنه الرحم من غذاء وأمان.

وهذا كله من العلم، وليس من الخيال العلمي، فمنذ ولادة الطفلة 'لويسي براون' عام (1978) في إنكلترا أصبح أطفال أنابيب الاختبار حقيقة واقعة تجسدها 'لويسي' التي ولدت من تخصيب بويضة والدتها في أنبوب اختبار، ومن ثم زراعة البويضة المخصبة في رحم الأم.

وبناء على هذه المعطيات العلمية وضع الكاتب الإنكليزي 'ألدوس هاكسلي'،¹⁶⁵ روايته 'عالم جديد شجاع' عام (1932) قدم فيها تصوره لعالم المستقبل بعد عشرات القرون، (اختصر العلم هذه القرون إلى عقود)، حيث انتصرت التقنية العلمية والتنظيمات السياسية، فتم تفريخ الأطفال في أنابيب الاختبار تبعاً لحاجة المجتمع إليهم، وأبطال الرواية عشرة أشخاص يحكمون العالم بأجمعه، ويليهم في الأهمية بمجموعة من الإداريين المعروفين باسم (معامل التفريخ والتكييف المركزية)، أما الشعب فينقسم إلى طبقات هي: (ألفا Alpha)، و(بيتا Beta)، و(غاما Gama)، و(سبالون Spalon)، ولكل طبقة زي خاص بها يختلف عن أزياء الطبقات الأخرى، وقد تم تصميم معامل التفريخ لصنع الإنسان، ثم تكييفه جسدياً وعقلياً وعاطفياً وخلقياً، من أجل تحقيق شعار الدولة (الجماعة، التشابه، الاستقرار)، والبويضات تلقح في

¹⁶⁵ ألدوس هكسلي (Aldous Huxley) (1894 - 1963) هو كاتب إنكليزي اشتهر بكتابة الروايات والقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام.

أنابيب الاختبار، ثم توضع في أوان زجاجية يسجل عليها الاسم وتاريخ التلقيح، وهكذا يمكن فرز البويضات الملقحة إلى فئات: المثقفين، والعمال، والجنود، والفلاحين، وبالتالي توليد ما يحتاجه المجتمع من كل فئة من هذه الفئات.

وعلى الرغم من أن كلمات من مثل (الأب) و(الأم) و(الميلاد).. إلخ، سوف تختفي وتغدو كلمات نابية يتحرج المجتمع من ذكرها، فإن الإنسان، في عالم (هاكسلي) المستقبلي، سوف يصبح سعيداً لا يعرف الحزن، صحيحاً لا يعرف المرض ولا تتنابه الشيخوخة، آمناً في نفسه وعمله وطبقته، مسلماً أمره إلى من يتولون أمره ...

وهذا ما جعل بعض علماء الفلك يفكرون بأن من الممكن استعمار كواكب في الكون، لا عن طريق إرسال أشخاص بالغين إلى كوكب المريخ مثلاً، وإنما عن طريق إرسال أجنة دقيقة برعاية بيولوجي ماهر، أو إرسال قدر ما يملأ علبة حذاء من الخلايا، لننشئ منها رجالاً ونساء قدر سكان مدينة كاملة .

إن ما وصلت إليه العلوم البيولوجية من تقدم مذهل في أجهزة المناعة، وزراعة الأعضاء البشرية، وهندسة الوراثة .. إلخ ليعتبر أقرب إلى القصص العلمي، حتى إنهم يفكرون اليوم في إعداد اختصاصيين للعمل في أعماق البحار والمحيطات لهم خيائهم في أجسامهم، يستطيعون معها العيش في بيئة ما تحت الماء، وإن التنبؤات البيولوجية التي تقوم على أبحاث علمية وتجارب مخبرية، هي حقائق أغرب من الخيال: فمن المعلوم أن التكاثر الجنسي أصبح شيئاً قديماً عندما تم اكتشاف التكاثر الجسدي، حيث يستطيع المرء أن ينسخ من ذاته نسخاً عديدة.

وقد تم هذا النسخ في الفئران والضفادع والنعجة (دولي)، وقد يأتي دور الإنسان مستقبلاً. وتقوم عملية الاستنساخ على تفكيك النسخ إلى خلايا، وتزويد هذه الخلايا محاليل غذائية معقمة، فتتكاثر، وتتغذى وتنفس وتخرج فضلاتها في المحلول. وهذا هو 'زرع الأنسجة' وتربيتها في الدوايق والأنابيب. وتكفي خلية جسدية واحدة، تربي في أنبوب معقم، حتى إذا انقسمت الخلية، وتحولت إلى كتلة من الخلايا، أمكن زرعها، بعد ذلك في رحم أنثى جهاز لاستقبالها، وربما تقدم البحث العلمي مستقبلاً

وتوصل إلى تجهيز 'أرحام' صناعية لتصبح 'معامل' تفريخ للنسج البشرية، وبهذا يستغني عن تأجير أرحام طبيعية لكل من أراد أن يعيد نسخة من ذاته، مستخدماً في ذلك خلية من جسده.

إن كل خلية من الجسد تمتلك نواة فيها كروموسومات وعلى الكروموسومات جينات، والجينات هي المورثات التي تورث الكائن كل صفاته، ولدى تطبيق التجارب على الضفادع توصل الدكتور 'جيرودون' في جامعة أكسفورد بإنكلترا، إلى إنتاج ضفادع كاملة التكوين، عن طريق الخلايا الجسدية.

فهل يمكن تطبيق هذه التجربة على الإنسان، ليتكاثر جسدياً لا جنسياً؟

تقضي التجربة أن تؤخذ خلية من أي نسيج جسدي للإنسان وتزرع في أنبوب اختبار، ثم تنتقل إلى رحم الأم، حيث تحل محل البويضة الملقحة التي تحملها لتنتج طفلاً.

وهذا يختلف عن تجارب أنابيب الاختبار حيث التكاثر فيه جنسي، بينما هو هنا جسدي.

ومما سيدفع العلماء في المستقبل إلى إعادة استنساخ الإنسان هو أن بعض البشر لهم صفات ممتازة وعبقريات نادرة في العلم والفن والأدب وقوة الأجسام وجمالها، وهذه وغيرها قد تجذب اهتمامهم لتكرارها عن طريق الاستنساخ الجسدي، لا الجنسي، وهذا ما سوف يتيح انتقاء أحسن ما في البشر من صفات، حيث يمكن إصدار نسخ طبق الأصل من المفكرين والعباقرة الموهوبين في كل فروع العلم، ومن النساء الجميلات والرجال الأقوياء.

وانطلاقاً من هذه المنجزات العلمية انطلق الخيال العلمي يجاري هذه الإنجازات حيناً ويسبقها أحياناً، حيث وضع طالب عمران روايته 'عوامل من الأمساخ'¹⁶⁶ التي عالج فيها موضوع الاستنساخ الخلوي، والوراثة، وسر تجديد الشباب والقضاء على الشيخوخة .. إلخ، من خلال الطبيب طارق الذي يكتشف أثناء معالجته لمرضاه حالات

¹⁶⁶ طالب عمران، عوامل من الأمساخ، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2002

لم يكن يعيرها انتباهاً من قبل، وقد أدلى له مرضاه بشهاداتهم عبر تجاربهم الذاتية ومعاناتهم، وهم:

1- أبو خالد: مدرس العلوم الطبيعية في الثانوية، الذي شاهد حيوانات غريبة أشبه بالكلاب و متشابهة لدرجة يصعب التفريق بينها، كما شاهد كائناً شبيهاً بالبشر، يبدو عليه البله، وهو يطلق أصواتاً تنبئ أنه لا يعرف اللغة البشرية، وقد أوثقه رجال مسلحون وصعدوا به إلى أعلى الجبل، وعندما انتبهوا إلى أن أبا خالد يراقبهم، قبضوا عليه، وساقوه معهم إلى مقرهم الكائن في أعلى الجبل.

وعندما وصلوا المقر المختفي خلف صف من الأشجار الكبيرة بدا سور حجري ضخم يتوسطه باب حديدي، طرقة رئيسهم طرقات معلومة، فانفتح على مصراعيه، فعبّر الرجال مع أسيرهم، وانغلق الباب ثم تحركت الأشجار لتستر ذلك السور الضخم.

دفع بالأسير إلى غرفة مظلمة، قبع فيها دقائق حسبها دهرأ، ثم اقتيد إلى السيد الكبير الذي عرفه بنفسه ويعمله قائلاً: أنت الآن في مركز علمي استغرق بناءه الكثير من الجهد والمال، وقد اخترت هذه البقعة المنعزلة بعيداً عن أعين الفضوليين لإجراء تجاربي دون أن يزعجني أحد، والتجارب هي عمليات التهجين المعروفة في عالم النبات ولكنها هنا في عالم الإنسان، حيث تُجرى الفحوص السريرية والنشاط الخلوي، والجينات الوراثية.

شاهد في المركز نماذج من أناس محتجزين في غرف خاصة، يتألمون ويتعذبون، بعد أن أخذت منهم عينات خلوية ودموية، وبانت آثار التشويه المريع واضحة على أجسامهم، وهم يتمنون الموت ليرتاحوا من عذابهم.

فقد أبو خالد وعيه وهويشاهد هذه المناظر المريعة، وعندما أفاق وجد نفسه ملقى على قارعة الطريق، وقد امتلأ جسمه بالقروح، نتيجة أخذ العينات من جلده، وعضلاته، وورثته، وعظامه، وشعره، بطريقة وحشية، وقد عثر عليه الأهالي، فحملوه إلى منزله.

وبدأت تهاجمه الكوابيس والأحلام المزعجة، حيث الأجهزة التي تنتزع الجلد، وتتغلغل في الجسم، وتسحب الدم والسوائل، وحيث أناس مقنعون يعبثون بالمشارط والملاقط والسكاكين.

٢- الشاهد الثاني: هوسامي، صديق الطبيب طارق، وقد تعرض لمثل ما تعرض له أبو خالد، واطلع على التجارب التي يقوم بها السيد الكبير ومعاونوه في استنساخ القرود والكلاب وخلط هذه النماذج الحيوانية مع الخلايا البشرية، شاهد امرأة زرعو نواة خلية من قرد مخصب في بويضة دون نواة في رحمها، كمشروع استنساخ قائم على الاحتمالات، وشاهد طفلاً في قفص كحيوان حبيس مغلوب على أمره، هو نتاج إخصاب خلية كهلة مع خلية جنينية.

وقد فقد الشاهد وعيه أيضاً ثم وجد ملقى على قارعة الطريق، وقد ملأت جسمه القروح والجروح، وأصبح نومه كوابيس مزعجة عن جثث ودماء وأشكال قبيحة مهجنة .

٣- الشاهد الثالث: هو المرأة التي وجدها الطبيب طارق في وسط الطريق الجبلي، غائبة عن الوعي، فأسعفها، وقصّت عليه قصتها: إنها زوجة السيد الكبير الذي يخلص له أتباعه حتى الموت، والذي اشتراها من نويها بمبلغ كبير (مليون ليرة) كزوجة، وأسكنها مختبراته، وعندما ظهرت عليها علائم الحمل، بدأ يأخذ منها عينات من دم الجنين.

4- الشاهد الرابع: هو المرأة التي استجارت بزوجة السيد الكبير، بعد أن أجرى عليها السيد تجاربه، فزرع من بقايا جنين مجهض خلايا في رحمها، فعاد إليها الحمل من جديد، بعد أيام من إجهاضها، ونمت الخلايا بسرعة مشكلة جنيناً جديداً، ولكنها عندما وضعت طفلها جاء غريب الشكل معتوهاً.

5- تحدث الناس عن اختفاء بعضهم بطريقة غريبة: أحد المتسولين الذين يعيشون على الصدقات، عجوز أرملة هجرها أولادها، فتى في الثانية عشرة قيل: إنه سقط

في بطن وادي جهنم دون أن يعثر أحد على جثته، هكذا كان السيد ينتقي ضحاياه
بذكاء، ممن ليس لهم أحد.

وهكذا تجمعت كل الأدلة لدى الطبيب طارق الذي كان يعالج تشوهات هؤلاء الذين
افترستهم تجارب السيد سائد، وأخذ يفكر في طريقة للوصول إلى ذلك القصر الضائع
في الجبال، و مشاهدة مختبراته العلمية، ولكنه كان يخشى أن يصبح كمرضاه، ضحية
السيد سائد، فاتجه نحو مخفر الناحية الذي جرد حملة تفتيش للمنطقة بحثاً عن القصر
الغامض، دون جدوى.

وذات يوم قرعت شابة باب الطبيب طارق، وطلبت منه أن يسعف ابنها في القرية
المجاورة، وعندما صعد إلى جانبها في السيارة التي تقودها، شعر أنها تقوده إلى
حفته، وعلى الخصوص عندما دخلت به القصر المخفي عن الأنظار، حيث قابله
السيد (سائد) قائلاً:

- أهلاً بك يا دكتور طارق، نأسف لهذه الطريقة التي أحضرنك بها، ولكن كان لا بد
من ذلك، تلبية لرغبتك في التعرف علي، أنا الدكتور سائد تفضل اجلس.

- لا أريد أن أجلس، قل لي ما الذي تريده مني؟ ولماذا أحضرتني إلى هنا؟

- حتى تتعرف علي، كنت ترغب في ذلك يا دكتور طارق، لا تراوغ، أعرف رغبتك
جيداً منذ أن استوقفتك حالة أبي خالد و حالة سامي ثم حالة زوجتي نادية .

- و كيف وصلتك هذه المعلومات؟

- أعرف الكثير مما يجري حولي، حتى عن صديقك النقيب شاهر الذي تطوع بإرسال
دورية للبحث عن أثر يوصل إلى القصر. تعتقد أنني أمارس الجريمة هنا؟ إن الحقيقة
خلاف ذلك، أنا رجل أقمت مختبري هذا منذ أكثر من (20) عاماً، بعد أن أنفقت في
سبيل إقامته ما أورثني أبي من مال.

تعرفت على الهندسة الوراثية قبل مكثفها بسنوات، تخرجت من الجامعة عام (1954)، وسافرت لمتابعة اختصاصي في جامعة (كاليفورنيا) بأمريكا، في العوامل الوراثية والخلية الحية، و عدت عام (1959) لأدرس في الجامعة، ولكن إغراءات البحث عندي دفعتني لأبدأ في تأسيس مختبر حيوي.

ومع بداية السبعينات بدأت أجري التجارب على النبات ثم على الحيوان، وأخيراً على الإنسان، خلطت النماذج ببعضها لأصل إلى صيغ وراثية جديدة، وقد تستغرب أنني زرعت نواة خلية حيوانية في خلية نباتية نزلت نواتها، لأصل إلى نبات متفوق يشعر بالصوت والضوء، واستطعت التوصل إلى توأمة مجموعات حيوانية كبيرة.

هل تنتقل الذاكرة البشرية؟

هذا ما درسته أيضاً، وخرجت بنتيجة هي ابنتي (لينة) التي زرعت فيها خبرتي وذكائتي، عن طريق زرع نواة خلية من خلاياي الجنسية في بويضة زوجتي الخالية من النواة.

- ولم تترك نموذجاً حياً إلا استفدته وأجريت تجاربك عليه.

- إنها ضريبة العلم، أنا أسعى إلى حل مشاكل الإنسان الصعبة. وقد نجحت في تشخيصي الخلل الوراثي قبل الولادة، وشخصت وعالجت التهابات الكبد الوراثية، والسكري، وأنتجت لقاحات أكثر أماناً لأمراض معدية خطيرة، أنا لا أقوم بأعمال تؤذي الجنس البشري، أنا أسعى في سبيل إبعاده .

- ولكنك في سبيل ذلك ترتكب الجرائم، تعذب الناس.

- هذا ما رواه لك أبو خالد وسامي ونادية، ولكن الحقيقة تختلف عن ذلك، كان أبو خالد مهيباً للإصابة بالسرطان، وقد عملت على تغيير العامل الوراثي فيه كي لا يصاب بهذا المرض القاتل، أما سامي فكان مصابة بالسكري إضافة إلى إمكانية إصابته بسرطان الصدر، كنت أعالجهما، ولم أكن أعذبهما، أو أجري عليهما التجارب القاسية.

- والذين في القبو، داخل الزنانات المعتمة؟

- إنهم نماذج لأشخاص مصابين بأمراض نفسية، كنت أحاول معالجتهم، وقد نجحت في علاج بعضهم.

ولكن الدكتور (سائد) بعد هذه الاختبارات المضنية لم يصل إلى ما كان يتمناه من استنساخ البشر المتفوقين، فكل ما كان ينتج لديه أمساخ مشوهة بلهاء، ولعل السبب يعود إلى أن الإنسان مخلوق ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل الذي ربما لا يمكن استنساخه .

وهكذا بيني الدكتور طالب عمران أدبه على قاعدة علمية صلبة من النظريات والتجارب، ثم ينطلق محققاً في الآفاق المستقبلية التي يرغب في تحقيقها. ويبدو أن الدكتور عمران متأثر في روايته هذه برواية 'جزيرة الدكتور مونرو' لويلز، حيث كان الدكتور 'مونرو' يقيم في جزيرة معزولة، يحكمها بقانونه الذاتي الذي يطبقه على مجموعة من المخلوقات المشوهة التي ما عليها إلا أن تطيع أوامرهم، وقد كانت هذه المخلوقات، في الأصل أناساً أصحاء حولهم الدكتور مونرو إلى كائنات ممسوخة تتحرك وتفكر في سلوك حيواني، وإن أنكرت عن نفسها هذه الصفات.

وهكذا كان يعيش الدكتور مونرو في جزيرته المنعزلة كما كان يعيش فرانكشتاين في قصره البعيد، ليمارس فيه إجراء التغييرات على البشر.

ولكن البشر الممسوخين يثرون عليه في النهاية، على وضعهم غير الإنساني، فيقتلون الدكتور مونرو.

وكذلك الأمر لدى الدكتور عمران الذي جعل الدكتور سائد بطل روايته يفرض قوانين سيطرته على البشر الذين يصطادهم ليجري عليهم تجاربه، على الرغم من معارضتهم، مما يجعلهم في النهاية، أيضاً، يكادون يثرون عليه، لمعاملته غير الإنسانية، ومحاولته تغيير الطبيعة الإنسانية بزعم معالجة الأمراض المستعصية.

جانب علمي آخر انتبه له الدكتور طالب عمران، وأهمل ما سواه، ويتمثل في الدعوة إلى وقف إنتاج القنابل الجرثومية التي إذا ما تفجرت فإنها ستقضي على ملايين الناس بالمرض والعجز والموت، وذلك في قصته 'الحدث'،¹⁶⁷ التي صور فيها حياة الشاب عامر الذي أنهى دراسته الجامعية في اختصاص الكيمياء في بلد متطور، وكان متفوقاً في دراسته، مما جعل الجامعة التي درس فيها تتعاقد معه للعمل في مختبراتها بأجر مرتفع، الأمر الذي يحدث لأغلب الباحثين المتفوقين من دول العالم النامي و المتخلف، حيث يتم التعاقد معهم برواتب مغرية فلا يعودون إلى أوطانهم ليعانوا الاضطهاد والحرمان ويجابهاوا بعدم الحاجة إليهم، لأن بلدانهم لا تهتم بالعلم قدر اهتمامها بالبطن والفرج.

وفي صباح أحد الأيام سمع عامر طرقاتاً على الباب، وعندما فتحه وجد رجلاً يقول له: "أنا من جمعية الحفاظ على الحياة، نريدك أن تحضر إلى جمعيتنا هذا المساء، وستجد في الحديقة المجاورة فتاة توصلك إلينا". وعندما أراد أن يستفسر عن الجمعية، ومقرها، وعملها كان الرجل قد اختفى.

في المساء ارتدي عامر ملابسه، واتجه نحو الحديقة المجاورة فوجد فتاة ترتدي ثياباً بلون العشب عرفته بنفسها قائلة:

- اسمي 'سالي'، أنت الدكتور عامر بالطبع.

- آه. نعم، كيف عرفتني؟

- أحمل صورتك، أرجوك تفضل.

- إلى مقر جمعيتكم؟ ولكن لماذا اتصلتم بي أنا بالذات؟

- الكومبيوتر اختارك من بين ألف شخص لمساعدتنا.

¹⁶⁷ طالب عمران، بئر العتمة، دار علا، دمشق، 1990

انطلقت بهما السيارة حتى توقفت فوق مربع اسمنتي، ثم هبطت بهما فإذا مدينة كاملة تحت الأرض، وفي قاعة كبيرة استقبله كهل مرحباً:

- أهلاً بك يا دكتور عامر، نحن آسفون لإزعاجك، ولكن لا بد من هذه الطريقة التي استدعيناك بها، نحن رسل حضارة متطورة، جئنا أرضكم قبل سنوات، واستقرت سفينتنا الفضائية تحت أرض كوكبكم، ما تراه الآن ليس سوى نموذج لتفوقنا التقني.

انتبه على صوت سالي يقول:

- دعوناك يا دكتور عامر للعمل معنا لأنك البشري الوحيد الذي اختارته أجهزتنا، أنت رجل شهم شجاع تكره الضرر للناس، وترفض استخدام العلم في الأذى، على الرغم من أنهم يستغلون أبحاثك بعكس ما ترغب.

- ماذا تقولين؟

- إنهم يطورون جراثيم يضعونها في المخابر لإنتاج قنابل جرثومية تقضي على ملايين الناس بالمرض والعجز والموت.

كان ما اعتقده الدكتور عامر بناء تحت الأرض هو سفينة فضاء من عالم آخر، استقرت في الأعماق لمراقبة ما يجري من تخريب للبيئة، وسحق للإنسان تحت عجلات الحضارة الحديثة: وإلا فمن يوقف التلوث، ويسد ثقب الأوزون، ويغلق المصانع الحربية، ويحقق السلام الشامل في ربوع الكرة الأرضية؟ وهل يأتي الإنقاذ من السماء؟ من عوالم أخرى أكثر حضارة ورقياً؟.

ولكن كيف يمكن للدكتور عامر أن يساعد رسل السلام في وقف تدمير أبناء الكرة الأرضية لعالمهم الجميل؟ لقد رغبوا منه أن يدخل جهازاً صغيراً إلى المختبر، فيقضي على كل الكائنات العضوية الدقيقة التي يحضرونها، وقد فعل، ثم قدم استقالته وعاد إلى وطنه.

والمفاجأة كانت في انتظاره إذ تبين بعد وصوله، أن السلطات التي كان يعمل لديها قد حقنته بحقنة فيروسية، لأنه كان السبب في تدمير مشاريعها الجرثومية، وهكذا مات الدكتور عامر بعد شهرين فقط من وصوله إلى وطنه.

البحث عن الخلود والشباب الدائم:

صراع الإنسان مع الزمن أبدي، فقد بحث عن الخلود، منذ فجر الوجود، وعالج الموت، في الحضارات القديمة، بفكرة الحياة فيما بعد الموت، حيث توقع حياة أخرى ينعم فيها الفقراء بالغننى، والجياع بالشبع، والشيوخ بالشباب.. وقد أكدت الديانات السماوية هذه الفكرة، وعملت على ترسيخها حين قالت بحياة أبدية يجد فيها الإنسان الصالح ما حرم منه في هذه الفانية.

وقد عمل الإنسان على إطالة عمره، فعالج ذلك بالوسائل الصحية والوقائية، وازداد معدل عمره في المئة سنة الأخيرة زيادة كبيرة، ومع ذلك فعندما يصل عمر الإنسان إلى سبعين عاماً مثلاً فإنه لن يتوقع بعد ذلك أن يعيش فترة أطول مما عاش، لأن الجسم الذي لا ينهكه المرض باكراً فيقضي على خلاياه يمتد به العمر، ولكن إلى حد معين، حيث يستهلك بعدها كما تستهلك السيارة، فالعمر يخضع لبرنامج خلوي في كافة الكائنات الحية، فالفأر مثلاً قلما يعيش أكثر من سنتين، والقطة ثلاثين عاماً، والحصان أربعين، والفيل ستين، على الرغم من أن نسبة السرعات الحرارية في الغذاء لها دور في إطالة العمر، كما أن الهرمونات الجنسية تلعب دوراً أيضاً.

وقد أثبتت الدراسات العلمية خطأ 'نظرية الخلود الخلوي' حين زرعت خلايا الإنسان في مزارع اصطناعية، فأظهرت أنها ليست غير خالدة وحسب، وإنما لها عمر محدد أيضاً، وحتى إذا حفظت في مجمدات فإنها تعيش عمرها المحدد لها فقط، وقد جرى تخزين خلايا ذات أعمار مختلفة في سائل 'لنتروجين' بدرجة (196) مئوية للفترات طويلة، وعندما أخرجت من التجمد، وزرعت ثانية، تابعت انقسامها للفترة المتبقية من عمرها، وكان شيئاً لم يكن، مما يدل على صفاء ذاكرتها، كما لو كان عمرها مدوناً في جيناتها.

وقد اعتمد أدباء الخيال العلمي هذه النتيجة العلمية، وانطلق بهم الخيال محلقاً في عوالم المستقبل العلمي، فوضع ويلز روايته 'عندما يستيقظ النائم' التي تقوم على نظرية علمية هي 'السبات الشتوي' الذي أتاح لغراهام أن يستيقظ بعد منتهي عام، فيجد نفسه في عالم آخر غير العالم الذي كان يعرفه.

وفي الأدب العربي المعاصر كان أدباء الخيال العلمي المصريون سباقين إلى معالجة هذا الموضوع البيولوجي، فوضع توفيق الحكيم مسرحيته 'لوعرف الشباب' (1950)، انتهى فيها إلى أن تركيبنا ما دام قائماً على الخلايا الحية، فإنه لا يمكن أن يستهلك، وإنما يتجدد كلما أمكن تجديد الخلايا، ولهذا عمل طبيبه على اكتشاف سر تجديد الخلايا الهرمة، فتوصل، بطريقة الحقن، إلى إعادة الشباب إلى الأرناب الهرمة، ثم البشر، فعاد الباشا الشيخ شاباً. ولكنه عانى من التضاد بين جسمه الشاب وعقله الهرم.

ووضع نهاد شريف قصته 'بالإجماع' التي يصور فيها آخر ما وصلت إليه الحضارة الأرضية من تقدم علمي في المجال البيولوجي، حيث يتم تجميد الأجسام البشرية لفترة محددة، يقف فيها القلب وأعضاء الجسم عن عملها، ثم توقظ لتجد نفسها في عالم آخر يختلف، اجتماعياً ونفسياً وحضارياً.

كما وضع روايته 'قاهر الزمن' التي بناها على نظرية السبات الشتوي الذي سوف يمكن الإنسان من عبور الأزمنة المختلفة، بعد حفظه في أجهزة تجميد الأجسام البشرية.

أما طالب عمران فيذكر في كتابه 'الحاسة السادسة' أن عمال المناجم في جمهورية 'ياقوتيا السوفياتية' التي تقع على ساحل المحيط المتجمد الشمالي عثروا، وهم يبحثون في أعماق الأرض دائمة التجمد هناك، على حيوان برمائي صغير من فصيلة 'السمندل' اسمه 'تريتون'، طوله (7سم)، كان متجمداً، وبعد أن تعرض لأشعة الشمس الدافئة استفاق من سباته الطويل، وأخذ يتحرك ببطء، وأعلن عالم الأحياء عن هذا الحيوان الصغير أن حركته تتباطأ، وكذلك دورته الدموية، ثم تبدأ حالة من السبات

قد تستمر المدة تقارب الألف عام، وحين يجد الظرف الملائم للاستيقاظ من سباته يعود إلى الحياة نشيطاً، كأن لم ينم سوى شتاء واحد.

ولقد أثارت هذه الحيوانات اهتمام علماء الحياة في سيبيريا، فالنوم لألف سنة ليس قليلاً، واكتشاف أسرار ه قد يدفع بالإنسان إلى محاولة إطالة عمره لسنوات أخرى عن طريق التجميد.

ولكن هل ينطبق على الإنسان ما ينطبق على الزواحف التي نشأت حياتها على السبات الشتوي في فصل البرودة؟.

إن قليلاً من البرد قد يؤدي الإنسان ويسبب له الأمراض، ومع ذلك فإن العلماء ظلوا يحلمون بسبات الإنسان لسنوات لا يوقظه سوى الدفع عن طريق الكهرباء أو الماء الساخن.

إن تجميد الإنسان قد ينشط خلايا الجسم حين تعود إلى الحياة، وقد يقضي على أمراض كثيرة من بينها السرطان، كما أن بعض الجراثيم الممرضة تموت في درجة التجمد، وإذا نجح الإنسان في هذا الحلم فإن نتائجه ستكون مذهلة:

لنتصور إنساناً في عقده الرابع يدخل إلى غرفة خاصة و ينام في درجة ٣٠ تحت الصفر حيث يتجمد الجسم تماماً، ويتوقف القلب وبقية الأعضاء عن العمل، وتبدأ مرحلة سباته لخمسين سنة مثلاً، ثم يوقظ بتيار كهربائي أو مغطس ماء ساخن، فتعود الحيوية إلى جسمه، ليرى نفسه في عصر آخر، وقد تقدم من كان يعايشهم في العمر كثيراً، ومات بعضهم، و شاخ آخرون، وتغيرت أجيال واندثرت حكومات ...

وإذا تصورنا إنساناً ينام ألف سنة، ثم يستيقظ، ليس بعد (300 سنة) كأهل الكهف ، وإنما بعد ألف سنة، وكيف ستكون حياة الإنسان بعد ألف سنة، وكيف تصبح علومه وحضارته وأزمته؟.

وقد أسهم الدكتور عمران في هذا الموضوع البيولوجي، في قصته 'السبات الجليدي'¹⁶⁸ فجعل 'أكاديمية البحث العلمي العربية' تجري في عام (2020) أول اختبار من نوعه في العالم لتجميد جسم إنسان حي لمدة أربعين عاماً، ويتطوع الشاب 'نزار' لإجراء التجربة هرباً من قصة حب فاشلة، وقد مر بظروف صعبة خاضها فيها الأصدقاء والأقارب، ودفعته هذه الإحباطات إلى إيثار الهرب من الحياة والدخول في تجربة تجميد جسمه لمدة أربعين عاماً، يستيقظ بعدها، فتكون الدنيا قد تغيرت، وبهذا يتخلص من المعاناة المرة التي يعيشها.

أما محبوبته 'لينا' فقد كانت مصابة بمرض السرطان الذي سيقضي عليها، وقد أخفت عنه مرضها، وزعمت له أن الطبيب الذي يشرف على علاج والدها قد وقع في هواها، وأن زفافها سيكون بعد يومين، فأشعلت بذلك نار الكراهية في قلب نزار ضدها، كي لا يربط حياته بها كإنسانة مريضة ميؤوس من شفائها.

وفي اليوم التالي لتجميده عرضت لينا على الأكاديمية العربية أن تجمد هي أيضاً فلعل هذا التجميد ينشط خلايا جسمها ويقضي على مرضها السرطاني، وعندما يستيقظان، بعد تجميد أربعين عاماً، سيعودان لبعضهما حبيبين مخلصين، وقد وافقت الأكاديمية على طلبها، وتم تجميدها.

وبعد أن انقضت أربعون سنة، بدأت بتجربة إيقاظها من سباتها الجليدي. كانت أعضاؤها سليمة. وقد استردّا وبعيهما، ولكن لم يستردا ذاكرتيهما، إذ أنهما لم يتعرفا على بعضهما بعضاً، فغابت عنهما ذكرياتهما.

وأمام هذه المشكلة الجديدة جرب المركز إحداث صدمة كهربائية محدودة في دماغ كل منهما، فأعطت نتيجة إيجابية. وهكذا عاد الحب من جديد يربط قلبين، بعد أربعين عاماً من الانقطاع.

¹⁶⁸ طالب عمران، السبات الجليدي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1992

وهكذا أثبت 'السبات الجليدي' جدواه في الوقت الذي سدت فيه نظرية 'الخلود الخلوي' منافذ الأمل أمام أدياء الخيال العلمي، حين قالت: إن للخلية البشرية عمراً محدوداً لا يمكنها أن تتجاوزه، فكان السبات نوعاً من الالتفاف على هذه النظرية حيث لا تحسب فترة السبات من عمره، لأن وظائف الجسم كلها تتوقف فيه إلى حين بدء الاستيقاظ من جديد.

ثم يغامر الدكتور طالب عمران في موضوع آخر يُعدّ واحداً من أحلام البشر، هو تحويل المادة أو جسم الإنسان إلى طاقة (كالضوء مثلاً)، ثم إعادته إلى المادة، فيجعل عامر قائد مركبة الفضاء 'الرازي 3' يبدأ رحلته عام (2788)، ومركبته مازالت منطلقة بسرعة الضوء منذ (126) عاماً في هذا الكون الرحيب.

إن القوانين الطبيعية في الكون تختلف عما هي عليه في الأرض، فالزمن يتوقف في السرعات الخيالية، وتتعلم قوانين الجاذبية والوزن، وتخضع الأجسام لقوة نابذة يعرفون معادلتها و كيفية السيطرة عليها، وهم يتمكنون من الطيران والتنقل من مكان إلى آخر بسرعات خيالية، وتقوم بمجمعاتهم على التعاون، وهي قادرة على حماية أفرادها من الأذى الذي تسببه أنانية بعضهم، فالشرير لديهم لا يعيش طويلاً، وحين يشعر بأنه لم يعد يستطيع الاستمرار في العطاء، فإن جسمه يهدم ويموت.

وفي مركز بحوث علم الحياة يتم إجراء التجارب على تحويل المادة إلى طاقة، ومن ثم إرجاع الطاقة إلى مادة. وهكذا يمكن تحويل الإنسان إلى ضوء، ومن ثم إعادته إلى المادة كما كان.

ومثل هذه العملية تفيد كثيراً في غزو الفضاء والكواكب، فعندما يتحول رواد الفضاء إلى طاقات فإنهم يتخلصون بذلك من قوانين الجاذبية، ومن أمراض التلوث، ومن كل المصاعب التي يواجهها رائد الفضاء.

وبالطبع فإن هذا الحلم البشري بعيد المنال في عصرنا، ولكن من يدري فلعله يصبح حقيقة واقعة في المستقبل القريب أو البعيد.

المبحث الرابع: البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض

على الرغم من التقدم العلمي فإن أجزاء من كوكبنا الأرضي ما تزال مجهولة لم تكتشف بعد، وهي حبلى بالكثير من الأسرار، ولعله قد عاش على الأرض قبلنا، أناس كانوا على قدر كبير من الرقي والتقدم الحضاري، ثم انقرضوا فلم نعد نعرف عنهم شيئاً.

بيد أن الرغبة في المعرفة وحب المغامرة قد دفعا بالكثيرين منذ فجر البشرية إلى ركوب المخاطر وتحدي المصاعب، من ذلك ما رواه 'لوسيان' الأديب السوري في كتابه 'التاريخ الصحيح' عن جماعة ركبت البحر تبغي الوصول إلى جزر الخلد أو الجنة، كما كان يسميها اليونانيون، وتقع في أقصى الغرب بعد أعمدة هرقل (جبل طارق حالياً) في مكان ما في المحيط الأطلسي، حيث كانت قارة اطلنطد المشهورة في الأساطير التي تنص على أن الآلهة أغرقتها في مياه المحيط، وأن هذه الجماعة شهدت حرباً كونية غريبة، تقاتلت فيها جماعتان واحدة من الشمس، وأخرى من القمر، وأن سفينتها قد ابتلعها وحش بحري هائل... .

والبحت عن عوالم مفقودة على سطح الأرض يمكن أن ينقسم عند طالب عمران إلى ثلاثة اتجاهات هي: البحث عن القارة المفقودة (اطلانطيس)، والبحث عن آثار الحضارات القديمة، وتنازل القصص الشعبي العربي.

1. البحث عن القارة المفقودة:

أما البحث عن القارة المفقودة (الأطلانطيس) فلعل الكاتب الفرنسي جول فيرن الذي كان أول روائي اشتهر عالمياً بقصص الخيال العلمي، اختص بتصوير غزو الأعماق حيث وضع أشهر رواياته : رحلة إلى باطن الأرض، وعشرون ألف فرسخ تحت الماء، والجزيرة العجيبة.. ثم وضع الكاتب الأمريكي ريموند برنارد كتابه 'جوف الأرض' (1988)، وهو كتاب، وليس رواية أو قصة، وفيه يؤكد وجود عالم في

جوف الأرض، تعيش فيه كائنات أكثر تطوراً من البشر، وتمدهم الشمس المركزية بالدفء والحرارة.

ويروي الكاتب أن أحد ضباط البحرية الأمريكية قام برحلتين إلى عتبة تلك المناطق، ووضع يده على تلك الوثائق والمصورات التي تقدم للناس أعظم اكتشاف في هذا العصر.

كما يروي قصة اثنين من البشر، هما ضابط وابنه، هبطا إلى داخل هذا العالم الأرضي، فسحرا بجماله، وظلا فيه، فلم يعودا. وهو يرى أن في باطن الأرض حضارة تفوق ما على سطحها، وأن فيها آلاف المدن وملايين البشر الذين يعيشون حياة متحضرة أرقى من حياة البشر على سطح الأرض. ويؤكد أن القارات التي غرقت من مثل أطلانطيس التي غرقت منذ أكثر من عشرة آلاف عام، وليموريا التي غرقت منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، إنما هما من القارات المفقودة التي كانت على قدر كبير من الحضارة، وأن هذه الحضارات القديمة استعمرت مصر الفرعونية، وتوصلت إلى اختراع سفن فضائية تطير بسرعات خيالية، وتعرفت على التجويف القطبي بوساطة أطباقها الطائرة، فلبثوا إليه، بعد غرق قاراتهم، مستخدمين محطاتهم الفضائية وسائل انتقال سريعة، مختفين عن العالم الأرضي الذي كان يتطور ببطء، وعندما ألقى الأمريكيون قنبلتهم الذرية الأولى على هيروشيما ارتفعت الأطباق الطائرة من سكان الأطلنطيد، من جوف الأرض لتكتشف سر ذلك الانفجار الهائل، وهذا ما شاهده الناس عياناً.

وقد وضع طالب عمران في هذا الموضوع رواية 'رجل من القارة المفقودة'،¹⁶⁹ صور فيها 'خازن' الكاتب السوري الذي يزور الرباط عاصمة المغرب في عام (1994) ويجلس فوق صخرة عند مصب نهر 'أبي قراق' في المحيط الأطلسي،

¹⁶⁹ طالب عمران، رجل من القارة المفقودة، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2012

يتأمل المحيط الهائل. عندما استخرج الصيادون من البحر صخرة تشبه الصندوق، ولعلمهم أملوا في أن يجدوا فيها كنزاً، ولكنها كانت صماء، فتركوها ومضوا.

وقد تعرف خازن على فتاة تدعى 'دلال' كانت تبحث عن ابن أختها الصغير الضائع، فساعدها خازن في العثور عليه.

وفي اليوم التالي اتصلت دلال بخازن وقصت عليه ما كان يتحدث به محمد ابن أختها الصغير، عن مقابلة عجيبة مع رجل يدعى 'دارم' خرج من تلك الصخرة المستخرجة من أعماق المحيط، ثم عاد إليها، وقد ظن أبوه سعد الخبير بالآثار أن هذه المقابلة لم تكن سوى حلم، ولكنه لم يستطع تفسير بلل ثيابه بماء البحر.

وذهب الجميع إلى الصخرة: خازن، ودلال، وسعد، و محمد، وتفحصوها، وأكد لهم محمد أنها هي التي خرج منها دارم ثم عاد واختفى فيها، فجاؤوا بمعول لتحطيمها ومعرفة ما بداخلها، ولكنهم جوبهوا بمقاومتها للتحطيم، فكأنها مصنوعة من معدن غريب مما اضطرهم إلى حملها بوساطة شاحنة إلى المنزل، وهناك عرضوها للحرارة الشديدة، فتصاعد منها بخار، ثم بدأت الطبقة الخارجية الصلبة تسيل بالتدرج، فتوضحت الفتحات الزجاجية، ليروا صندوقاً زجاجياً مشغولاً بعناية فائقة، ودقة متناهية، وفي داخله لباس رائد فضاء.

دهش الجميع عندما وجدوا داخل البدلة جسماً بشرياً غير متفسخ، ربما بسبب البرودة الشديدة التي وضع فيها، فكأنما هو في سبات جليدي. وعندما أخرجوا جسم الشاب المتلجج من اللباس المعدني سرت الحرارة فيه، ففتح عينيه، ونظر حوله، ثم استعادت أعضاؤه وظائفها، فتحدث إليهم بالعربية:

- دارم يعرف لغات كثيرة.. العربية لغة أبينا آدم، أقدم لغة على الأرض.

قال لهم: إنه كان يعيش مع حبيبته دارينا، وأنه كان طبيباً يرأس فريقاً من أطباء الأطلنطيد، ولكن الحرب نشبت بين الحاكم وأخيه الجنرال، فاستخدم كل منهما السلاح الذري الذي أودى بحضارة قارة الأطلنطيد.

بيد أن العلماء عملوا على إنقاذ أنفسهم عن طريق تبريد الأجسام الحية لمدة من الزمن، ووضعها في صناديق مغلقة بعجينة من اللدائن المكثفة الممزوجة برصاص من نوع خاص، لمنع تسرب الإشعاع الذري إليها. تحيط بها عجينة أخرى تتصلب لتصبح قاسية كالصخر، صعبة التفنت والتأثر بالعوامل البيئية، وتم التحكم بالزمن لايقاظهم بعد خمسين عاماً، وعندما تم الانفجار الذري طارت آلاف الصناديق من شدة الانفجار، وغرق الكثير منها، وغاصت حضارة كاملة في أعماق المحيط.

استغرب الجميع ما يسمعون: أيعقل أن هذا البشري الذي يتحدث إليهم هو واحد من حضارة الأطلانطيد التي اندثرت قبل (12) ألف عام؟ كما ورد في كتب قدماء المصريين والسوريين.

أراد خازن أن يريه معالم حضارة اليوم، ولكنه رغب في أن يساعده في البحث عن توابيت حجرية أخرى في أعماق المحيط، عله يعثر على تابوت حبيبته دارينا فينقذها. وفي صباح اليوم التالي لم يجدوا دارماً ولا محمداً فهرعوا إلى شاطئ المحيط ليجدوا محمداً يبكي وهو يقول لهم: لقد ذهب دارم، ودعني وقبلني وهويقول: دارينا تناديني سأبحث عنها.

2. البحث عن الحضارات القديمة:

نشط البحث عن الحضارات العربية القديمة في العشرين سنة الأخيرة من (القرن العشرين) كنوع من الرد على المركزية الأوروبية التي ترى أن الحضارة الإغريقية هي أم الحضارات في العالم وأقدمها، ولهذا انطلق الباحثون في إظهار الحضارات العربية القديمة، معتمدين على المكتشفات الأثرية التي بدأت في الحفر والتنقيب مع مطلع القرن (العشرين)، فوصلوا إلى نتائج حضارية باهرة أكدت أن الحضارات العربية القديمة التي نشأت قبل الميلاد بآلاف السنين، وازدهرت في بلاد الرافدين (السومرية، والبابلية والأكادية، والآشورية..) وفي الساحل السوري (الفينيقية، والكنعانية، والأوغاريتية..) وفي بلاد الشام (الآلاخ، وماري، وإيبلا، والبتراء..) وفي

جنوبي الجزيرة العربية (السبئية، والمعينية، والحميرية)، وفي مصر القديمة (الفرعونية). هذه الحضارات العربية القديمة قد سبقت الحضارة الإغريقية التي تأثرت هي نفسها بهذه الحضارات العربية البائدة.

وإعادة الحق إلى نصابه أعطت العرب أهمية أكبر عندما أظهرتهم الصناعات الأولون للحضارة الإنسانية، فزادتهم ثقة بأنفسهم في وجه موجات التغريب التي يواجهونها في عالم اليوم.

ومن هنا بدأ بعض الأدباء في استلهاهم هذا الزاد الحضاري التراثي في الأدب، فتم توظيفه في جميع الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية ومسرحية، لأسباب سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، ومن هؤلاء الأدباء طالب عمران الذي نرى أنه وحده بين أدباء الخيال العلمي من التفت إلى هذا التوظيف الحضاري للتليد، وذلك في قصصه: حين تبكي الألواح، والمقبرة القديمة، وبئر العتمة... إلخ. في قصته 'حين تبكي الألواح'،¹⁷⁰ عالم أثري استطاع أن يقرأ قصة مكتوبة بلغة قديمة على ألواح حجرية مهملة، عثر عليها قرب مدينة 'ماري'، تعود للألف الرابعة قبل الميلاد، وكانت بعض أحرفها مفتتة، ومع ذلك تمكن العالم الكهل من فك طلاسمها، بعد جهود استمرت ستة أشهر من العمل الجاد والكاتب لم يرغب في إعطاء قصته مباشرة، كحكاية قديمة، وإنما لجأ إلى توصيلها إلى قارئه على جرعات، من خلال أحلام العالم في نومه: فلقد رأى نفسه مرة في المدينة الأثرية، وفتاة رائعة الجمال 'ليلينا' ترتدي ثيابا بلون الثلج، تقف قرب أحد الأعمدة الضخمة، بانتظار حبيبها 'لأنوس' الذي ما أن رآته حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه.

ويوظف الكاتب بعض الأشعار التي يبدعها هو في كل مناسبة تقتضي ذلك، وهنا في هذا اللقاء وضع صفحة من الشعر الحر، بدأها بقوله:

السحب تجلب الخير للأرض

¹⁷⁰ طالب عمران، تلك الليلة الماطرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1991

والأرض عطشى

عصافير الدوري تبشر بالربيع

وأنا أنتظر ربيع الوصال

لكن الجنود والحراس يحيطون بهما من كل جانب، ويقودونهما إلى ساحة الإعدام. وهكذا يبدأ الكاتب القصة من خاتمتها، ليعود بعد ذلك إلى البداية، حيث يغفو العالم الكهل إغفاءة أخرى فيجد لانوس الشاعر الشعبي الذي يتغنى بحب ابنة الملك التي يحبها، والتي نظم أشعاره في تمجيد الحرية، فيرددّها الآلاف، وقد حكم عليه الملك بالنفي عن المدينة لأنه شهّر بابنة الملك، لكن ليلينا تحبه، وهو يحبها، وقد تواعدا على اللقاء في حديقة القصر ليلاً، ولكن كيف يمكن أن يدخل القصر الملكي، وهو ممنوع من دخول المدينة؟

لقد استطاع أن يقفز إلى إحدى عربات المؤونة الداخلة إلى القصر، ثم تخفى في المدينة نهاره. ودخل حانة لتمضية بعض الوقت، فجلس إلى ساقية شابة غنت له، فاغرورقت عيناه بالدموع، وهو يسمع شعره تتغنى به دون أن تعرف أنه هو قائل هذا الكلام:

الزهر يذبل إذا لم يسق بالماء

وقلبي كسير ينتظر أن يرتوي من نبعك

كل اللحظات الجميلة التي أعيشها

لا معنى لها من دونك

يقفلون على الطير، فيستمر في الغناء

يحلم بالحرية والبراري الشاسعة

ويغني للشجر والسماء الصافية الخالية من الخيانة والغدر.

وعندما حل المساء قفز إلى حديقة القصر ليلتقي بحبيبته ليلينا. وكان عناق. ولكن الحراس كانوا بالمرصاد. فداهما هماً، فارتقى الشجرة واختفى بين أغصانها. وبعد أن غادر الحراس هبط من الشجرة وارتدى ثياب الوصيفة، ورافق الحبيبة إلى غرفتها. ولكن الجنود قطعوا عليهما خلوة الحب، بحثاً عنه، فخبأته في حمامها، وعندما غادروا نقلته إلى غرفة جدتها ووضعته في صندوق ثيابها. ولكن الملك نفسه يحضر ليجد الحبيبين مع الجدة. وهنا يأمر الملك بإلقاء القبض عليهما، على الرغم من استرحام الجدة، وطلبها ألا يهين ابنته التي تعلقت بحبيبها لتموت معه.

وسيق الحبيبان في صباح اليوم التالي، مع العشرات، إلى ساحة المدينة حيث نصبت آلات التعذيب، ووقف الجنود الموكلون بذلك، بعضهم يحمل السهام السامة، وآخرون البلطات لتقطيع الأوصال، وفريق ثالث يشعل النيران لقتل الأعضاء المبتورة إليها. وكانت مجزرة رهيبه تعالت فيها أصوات الصراخ والبكاء والعيول، وتقبل الحبيبان فيها مصيرهما صاغرين.

أما قصة 'المقبرة القديمة'¹⁷¹ فحكاية إنسان تعامل مع الموت فانتمصر عليه، واكتشف حضارة بائدة، فمحمود شاب في الخامسة والعشرين، كثير القراءة والمطالعة، درس التاريخ والحضارات القديمة، وعمل في مديرية الآثار والمتاحف، وتعلق بسلوى طالبة الأدب العربي، فخطبها.

وحدث أن قدمت بعثة فرنسية للتنقيب عن الآثار، فكان على محمود أن يرافقها، لكن خطيبته حاولت منعه من الذهاب، لأنها رأت حتماً مزعجاً كان فيه محمود أسير جنود حضارة بابلية قديمة.

¹⁷¹ طالب عمران، الذي أربع القرية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1996.

وسافرت البعثة، وعلى رأسها الباحثة العجوز 'فرانسواه' إلى منطقة الآثار البابلية يصحبها محمود الذي أحس بقلق غامض، وبينما كان يتجول في منطقة الآثار سقط في فوهة، وانطبقت الأرض فوقه وافتقدته البعثة فلم يعد أحد يدري أين هو؟

تطلع حوله فإذا هياكل عظمية، أخذ يصرخ بأعلى صوته علّ أحداً يسمعه، ولكن دون جدوى، فكأنما سقط في بئر عميقة. تبين ما حوله فإذا صناديق حجرية منحوتة بدقة مما يؤكد أنه وقع في مقبرة قديمة، وقد ظل محبوساً في ظلامها وعفونتها يومين كاملين، في الوقت الذي تجد فيه كل أفراد البعثة للبحث عنه، ثم أعلموا السلطات التي استنفرت أيضاً للبحث عنه، ولكن دون جدوى، ولأنه كان تحت سطح الأرض فإن أحداً لم يخطر له أنه سقط في حفرة قادته إلى مغاور وسرايب ومتاهات خرج منها أخيراً، بعد يومين من اليأس والجوع والعطش، فاقد الوعي.

وقد كان ضياع محمود سبباً في اكتشاف مقبرة حضارة بابلية عرفت العالم بحضارة ازدهرت قبل أكثر من ثلاثة آلاف وخمس مئة عام.

وفي قصته 'بئر العتمة'¹⁷² يتابع عمران البحث عن الحضارات القديمة، فيصور بئر العتمة وقد توارث أهل القرية الحكايات والقصص المخيفة عن الأشباح والجان التي تسكنه، فلم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب منه، لأنه ستكون في ذلك نهايته .

ولكن مغامرين أبوا الانصياع للسائد، ورغبوا في اكتشاف هذا العالم المرعب المخيف، فسقط بعضهم، ومات آخرون وهم في طريقهم إلى اكتشاف السر الذي لم يصل إليه سوى عامر ورفاقه الذين وجدوا أنفسهم، بعد أن هبطوا من فتحة بئر العتمة في مدينة كاملة تحت الأرض، ذات شوارع مرصوفة، وبيوت متلاصقة وكتابات غير مفهومة على الجدران، وتمائيل مرفوعة، وهياكل عظمية..

¹⁷² طالب عمران، بئر العتمة، دار علا ، دمشق، 1990

إنها منطقة أثرية لم يكتشفها أحد بعد، وعمرها أكثر من ثلاثة آلاف عام. وبدأت الخبرات الأثرية بالحفر والتنقيب، وتحولت القرية إلى مقصد للسياح والزوار، وانتهت خرافة بئر العتمة لتبدأ قصة حضارة بائدة كانت قد ازدهرت منذ ثلاثة آلاف عام.

3. تناسل القصص الشعبي:

أطلق الأدب الشعبي العربي العنان للخيال، فانطلق يحلم بالمعجزات والخوارق التي عسر تحقيقها في عالم الواقع، فسهل تحقيقها في عالم الخيال. والواقع أن الأدب الشعبي منجم لا ينضب ينبض بحياة مجتمعاته، ويحكي آمال البشر وآلامهم. إن كتاباً مثل 'سيرة الملك سيف بن ذي يزن' يغص بالكائنات العجيبة والأحداث الغريبة، والخرافات التي قد لا يصدقها عقل إنسان اليوم، وعلم الرمل، وعلم السحر، وعلم الأقلام. ومن هذا كله يصنع الخيال الشعبي: طاقة الإخفاء التي تخفي لابسها، والمشى على الماء وطى الأرض، والطيران بوساطة بساط الريح أو الجني، والمرأة التي يرى فيها ما يريد، والاطلاع على الغيب بوساطة الرمل أو الجن، والسيف السحري، والخاتم العجائبي، والحصان الطائر، والزمردة الخضراء ... ومن الملاحظ أن كثيراً من هذه الأعاجيب التي كان يحلم بها الإنسان قبل ثلاثة آلاف عام قد تحققت في عالم اليوم. وكذلك الحال في كتاب 'ألف ليلة وليلة' المترع أيضاً بالعجائب والخوارق والجن والسحر والعمارة....

وإذا كان القصص الشعبي يتحدث عن 'حوريات' البحر اللواتي نصفهن الأعلى إناث ذوات وجوه، وعيون، وشعور، وأثناء، ونصفهن الأسفل زعانف كالأسماك، فإن الكاتب طالب عمران يتابع هذه الفكرة، فيضع قصة 'حورية البحر' التي يروي فيها حادثة وقعت للقبطان أحمد عام (1930) عندما كان يقود سفينته من عدن إلى جزر المالديف في المحيط الهندي، لإيصال المواد الغذائية. وقد رست السفينة في إحدى الجزر، وذهب (أحمد) يترىض وحده في الجزيرة. فشهد عن بعد مجموعة من النساء منتشرة على الصخور. نصفهن الأسفل على شكل أسماك. إنهن عرائس البحر.

وعندما صعد شجرة ليتمكن من رؤيتهن جيدا انكسر الغصن، فهوى على صخرة،
وفقد الوعي.

الفتاة ذات العينين الزرقاوين شدته إلى أعماق البحر، وهي تقول له: كنت أنتظر
وصولك منذ زمن بعيد، ولأنها ابنة الملك، فقد حضرت العربية الملكية، فامتطياها،
وهبطا إلى مملكتها في أعماق البحر. شاهد متحف الأعماق الذي يجمع الآثار القديمة
للحضارات التي ازدهرت في أعماق البحار منذ آلاف السنين، يحرسه أخطبوط
ضخم.

استقبله أبوها الملك مرحبا:

- أهلاً بك يا بني في مملكتنا المسالمة.

ولكن قانون الحياة في الأعماق يفرض عليه أن تلتصق رجلاه لتشكلا ذبلاً مثل كل
من يعيش في البحر، وقد أفرحها تطوره السريع في التأقلم، حيث تحولت رجلاه إلى
ذيل سمكة، مما سيعجل موعد زواجهما، وسيصبح هو ملك الأعماق بعد والدها الشيخ.

في تلك اللحظة أفاق أحمد من حلمه فإذا هو في المخيم، على الجزيرة، وإذا كل ما مر
به مجرد حلم. ولكن كيف، ومساعدته حسن يؤكد له أن جزيرة في المحيط الهندي
تعيش على شواطئها عرائس البحر، حتى لقد سماها البحارة 'جزيرة عرائس البحر'،
وقيل: إن كثيراً من البحارة قدموا إليها، وحاولوا الوصول إلى إحدى هذه العرائس
فاختفوا، لأن حوريات البحر خطفنهم إلى الأعماق. وفي الليل أمسكت الحورية بيد
أحمد وقادته إلى الأعماق ثانية، ولكنهم أيقظوه في الصباح، فصعد ومعاونه إلى
الجزيرة، واستطاعا إلقاء الشبكة على إحدى حوريات البحر واصطيادها، وتفردا
فيها، فإذا بها، على خلاف ما تذكر القصص والحكايات، وجه قبيح غير متناسق،
وعينان صغيرتان ضيقتان لاتتناسبان مع حجم الوجه، وأنف كبير أفطس، وشفاه
غليظة متدلّية يكسوها شعر غليظ كالشوك، وجلد أسود كثير التجاعيد، أهذه هي

حورية البحر التي فتن الناس بجمالها؟ فك حسن رباط الشبكة وأطلق السمكة حورية البحر التي اندفعت نحو البحر، وغاصت في الأعماق.

وبالمقابل فإن علم اليوم قد حصن الإنسان من المخاطر، وجعل لحواسه استطالات لانهاية لها، مما عمم الرفاهية الجسمية على حساب إجهاد الفكر والعقل، ففي قصته 'تلك الموجة في الأعماق'¹⁷³ يصور عمران رحلة في أعماق المحيط، على بعد عشرة آلاف قدم من سطح البحر، قام بها عالمان خرجا من غواصة الأبحاث، وقد ارتدى كل منهما لباس الغوص، وثبت أسطوانتي أوكسجين على ظهره، وساعة مائية على يده، وربط على ذراعه مسدسه اللايزري الذي يكفيه شر حيوانات الماء.

وفي الأعماق اقترب أحدهما من فوهة كهف عجيب، وبدأ في التقاط الصور، ثم دخل الكهف المظلم، وهو يضغط زر المصباح الكهربائي الذي يشق بنوره ظلام الكهف، فميز فوهة صندوق مفتوح ملقى بين الأعشاب البحرية، وأحس بقوة تجذبه نحو الفوهة، ثم فقد الوعي.

وعندما استفاق وجد نفسه على ظهر سفينة صيد ضخمة إلى جانب حسان رائعة الجمال ترتدي لباس البحر، وتقول له: "نحن آسفون لما حدث، فما رأيته في الكهف ليس سوى فوهة (شفاطة) لجذب الأسماك وأحياء البحر الطرية الصالحة للطعام، و بوساطة موجات كهربائية يتخدر الحيوان البحري فتتقدم قوته الإرادية وينجذب نحو الفوهة التي تنتهي بأنبوب ضخم يمتد حتى السفينة".

¹⁷³ طالب عمران، مساحات للظلمة - مجموعة قصصية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1992

المبحث الخامس: حضارات العوالم الأخرى

1. الاتصال بالحضارات غير الأرضية

هل الكون مأهول بمخلوقات أخرى؟ أم نحن وحدنا في الكون؟ وهل هنالك حضارات أخرى غير أرضية؟ تلك، وغيرها أسئلة تلح على أذهان العلماء وأدباء الخيال العلمي. وإذا كانت هنالك حضارات أخرى غير أرضية، فهل يمكن الاتصال بها؟

إن ذلك يمكن أن يتم عن طريق:-

- اللاسلكي والأمواج الكهرطيسية والنبضات.

- الأطباق الطائرة

- الأقمار الصناعية ومحطات الفضاء

- البث والتلسكوبات الجبارة

إن سرعة بث المعلومات متناسبة طردياً مع عرض مجال التردد، أي أنه كلما صغر طول الموجة الكهرطيسية حيث يزداد التردد، فإن حجم المعلومات التي يمكن بثها يزداد أيضاً ويمكن بث مليار بيت معلومة في الثانية باستخدام الموجات اللاسلكية السنتمترية.

لكن الموجات اللاسلكية لا يمكن استخدامها كقناة بث برامج غنية بالمعلومات بين حضارات بلغت مستويات تطور أعلى من حضارتنا، إذ أن حجم المعارف الكبيرة لهذه الحضارة يستدعي استخدام قنوات إعلامية مكثفة، ويمكن لإشعاع الليزر أن ينجح كقناة إعلامية ممتازة.

وإذا كان المستوى التكنولوجي الحالي للحضارة البشرية لا يسمح لها بالانضمام إلى الحوار الليزري المفترض بين الحضارات الأخرى، فإنه يمكن الإنصات إلى هذا الحوار أو تتبعه بواسطة تلسكوبات ضخمة.

وقد نفذت مجموعة من العلماء السوفييت مرصداً ضخماً فيه تلسكوب بمرآة قطرها ستة أمتار في شمال القفقاس، تابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، بغرض البحث عن إشارات لايزرية في الفضاء الكوني، وهي المرة الأولى التي يجري فيها تتبع مثل هذه الإشارات.

ولكن إلى أي مصدر من مصادر الإشعاع الليزري يتوجه التلسكوب الجديد؟

لقد قرر العلماء السوفييت برئاسة العالم الفلكي سفارتسيان أن المنطقة الملائمة لانبثاق الحضارة الكونية هي المنطقة التي تنتمي نجومها إلى الفئة التي تصدر طيفاً شبيهاً بالذي تصدره الشمس، فاختاروا عشرات من النجوم المشابهة للشمس، ضمن مجال نصف قطره (65) سنة ضوئية، وليكون البحث أجدى يجب أن نفترض أن مستوى الحضارات الأخرى التي نرصد وجودها ليس متقدماً كثيراً علينا.

إن البحث عن حضارات ذكية في الكون يمكن أن يوصلنا إلى نتائج ملموسة عن طريق استخدام مولدات الليزر. ومن المعروف أن طول موجة الكوانتوم المرئي أقل بنحو مليون مرة من طول موج الكوانتوم اللاسلكي، لذلك فمرآة التلسكوب تجمع الأشعة المرئية في حزمة أضيق بمليون مرة من حزمة اللاسلكي.

وإذا وجهت مثل هذه الحزمة الليزرية الدقيقة إلى نجم يبعد نحو (40) سنة ضوئية، فإن المساحة العرضية له حين بلوغه النجم تصل إلى سعة منظومتنا الشمسية، أي أن أي راصد على أي كوكب يدور حول النجم المذكور بمقدوره أن يسجل الإشارات الليزرية الوافدة إذا كانت ذات طاقات قياسية، وليست ضعيفة تضعف في الفضاء قبل أن تلتقطها أجهزة رصد الحضارة المفترضة.

وتشير الحسابات التي قام بها علماء الفلك إلى أن الإرسال الليزري أرخص كلفة، وأغنى بالمعلومات من الإرسال اللاسلكي، حين يكون هذا الإرسال موجهاً نحو ما يقرب من مليون نجم مشابه للشمس. ويقع هذا العدد في مجال كروي يقارب نصف قطره ألف سنة ضوئية.

وبما أن أقرب نجم إلينا يبعد عنا نحو أربع سنوات ضوئية ونصف، وأن هذا النجم ليس من مرتبة الشمس، وبالتالي فإنه ليس من نفس الفئة التي تصدر طيفاً شبيهاً بالذي تصدره الشمس، لذلك فهو لا ينتمي إلى المنطقة الملائمة لانبثاق الحضارة في هذا الكون المزدهم بالنجوم.

فإذا افترضنا أن أقرب نجم إلينا ينتمي إلى المنطقة التي عرفناها بمركز انبثاق الحضارة يبعد عنا نحو (20) سنة ضوئية، فإن الرسالة المحمولة على إشعاع (ليزري) يلزمها (20) سنة ضوئية لتصل إلى الكائنات العاقلة التي نتوقع وجودها. فإذا كان ردهم فورياً فإنه يلزم (20) سنة ضوئية لنحظى برسالة جوابية. وقد تمضي سنوات قبل أن نفك طلاسمها، أو يفكون طلاسم رسالتنا. وقد تمضي قرون قبل أن نصل إلى لغة مشتركة، أو زيارات متبادلة بوساطة محطات فضائية متطورة.¹⁷⁴

ليست حضارة الإنسان هي الوحيدة في هذا الكون. هذه هي نتيجة علمية واضحة توصل إليها الدكتور عمران عن اقتناع، وهو يتأمل عمق الكون واتساعه، وضآلة حضارتنا، وضحالة معارفنا التي نعتر بها أحياناً اعتزازاً مرضياً، غافلين عن عظمة ما نجعل، وتفاهة ما نعلم، وفي نفوسنا كبرياء كاذبة من أننا الأسياد القادرون العارفون... ونحسب أننا سنعيش أبداً، والموت قاب قوسين أو أدنى. دون أن نقبل تلك الحقيقة. منفوخين بغرورنا وأنانيتنا، على الرغم من أننا لا نشغل من هذا الكون الواسع الفسيح الأرجاء سوى حيز صغير مهمل.

2. اللقاء بكائنات الحضارات غير الأرضية:

أما الأطباق الطائرة فيعتقد بعضهم أنها رسائل سكان الكواكب الأخرى إلينا. وزعم كثيرون أنهم شاهدوها، أو شاهدوا كائناتها. ومضى الخيال ببعض أدباء الخيال العلمي إلى أن جعلوا منها غزاة لأرضنا، على الرغم من أن كل معلوماتنا عنها إنما هي معلومات افتراضية، لم يؤيدها العلم الحديث، كما أنه لم ينفها. ولعل علم القرن القادم

¹⁷⁴ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017

يكون أكثر تطوراً فيصل إلى ما لم يصل إليه علمنا الحالي، علماً بأن القرن والألف، وحتى المليون عام ليست شيئاً بالنسبة للزمن الكوني، وأن كرتنا الأرضية التي عمرها ملايين لم تبدأ فيها الحضارة إلا منذ ستة آلاف عام فقط.

والسؤال الذي يلح على الأذهان، ويشغل بال علماء الفلك هو: هل هذه الأطباق الطائرة حقيقة واقعية؟ أم هي نوع من الخيال؟

وقد شغل هذا السؤال علماء الفلك منذ ألقى الأمريكيون قنبلتهم الذرية الأولى على هيروشيما في اليابان، فبدأت تظهر تلك الأجسام الغريبة، فتكتب عنها الصحف، ويروي مشاهدتها شهود عيان، وقد شكلت اللجان العلمية لدراستها.

وقد رويت عدة مشاهدات لها: ففي عام (1947) شاهد الطيار (أرنولد)، وهو يقود طائرته، أجساماً طائرة غريبة في الجو "تطير كأطباق صغيرة قافزة فوق المياه". وقد ارتفاعها ب (3) كم، وسرعتها ب (2800) كم/سا، وبعدها عنه ب (40) كم. ولذلك لم يتبينها جيداً .

وفي العام نفسه شاهد الطيار 'سميث' الذي كان يقود طائرة ركاب، أجساماً مستديرة مفلطحة، فاستدعى المضيفة ليتأكد من أن ما يراه حقيقة. فبهرت الفتاة وهي ترمق الأجسام الطائرة المجهولة. واتصل برج المراقبة ليتأكد من ظهور تلك الأجسام على شاشة الرادار في القاعدة، فأبلغوه أن الرادار لم يكتشف شيئاً. وتبين الأفراد طاقم الطائرة أن الأجسام التحمت مع بعضها في كتلة واحدة ثم اختفت.

و بعد أقل من ثلاثة أشهر من تلك الحادثة أرسل أحد قادة المراكز الجوية تقريراً للقيادة الأمريكية، يؤكد فيه أن كل أقسام المركز تؤكد أن الأجسام الطائرة المجهولة هي حقيقة واقعة، وليست خيالاً.

و بعد ستة أشهر من مشاهدة سميث شوهد في سماء 'لويز فيل' في 'كنتكي'، جسم فضي ذو شكل بيضوي، يقارب قطره المئة متر. يطير وهويشع ضوءاً أحمر. فاتصل بعض مشاهديه بمطار 'غودمان فييلد' حيث رصده برج المراقبة هناك، وأصدر قائد

القاعدة أمراً بإقلاع سرب من الطائرات لكشفه. وقاد السرب 'مانتيل' وهو طيار ماهر، اشترك في الحرب العالمية الثانية، ومنح عدة أوسمة لشجاعته. فتابع الجسم الطائر ، وقال: إنه قرص ضخم، في أعلاه قبة تدور. ويدور حول نفسه بسرعة عظيمة. وهو مصنوع من معدن خاص، ويتغير لون إضاءته البراقة من الأصفر إلى الأحمر بالتدرج، وأنه بدأ يطير بسرعة خارقة. ثم اختفت طائرة 'مانتيل' وعثروا عليها، بعد بحث طويل، محطمة.

وفي عام (1948) شاهد بعض العلماء جسماً طائراً مجهولاً فوق قاعدة (الرمال البيضاء) المخصصة للتجارب على الأسلحة الصاروخية. وبوساطة قياس الزوايا قدرت سرعة الجسم الطائر بـ (27) ألف كم في الساعة، و قدرت سرعة صعوده في الجوب 4 كم في الثانية.

وفي العام نفسه شوهد طبق طائر يصدر ضوءاً أحمر، ويكاد يصطدم بالطائرة (دي - سي 3) التابعة للخطوط الجوية الشرقية. وقد انحرف في اللحظة الأخيرة، بحركة جنونية، وارتفع مختفياً بين الغيوم. وقد استطاعت موجات حركته هز الطائرة.

ووصف الجسم بأنه بشكل سيجار طوله (30م)، وقطره ضعف قطر الطائرة، وليست له أية أجنحة، وفي مقدمته شيء يشبه هوائي الرادار . وقال مساعد الطيار : إن له نوافذ و به أنوار ساطعة.

وفي العام (1948) شاهد عمال الرادار التابع للطيران الياباني على شاشاتهم لمدة ساعة مناورة بين جسمين مجهولي الهوية. ولدى التدقيق تأكد أنه ليست هناك أية طائرات في الجو تابعة لأي سلاح جوي آخر. وتبين أن تلك الأجسام على شكل أطباق، وهي تطير بشكل فوري وعكسي، وكأن لها أنظمة دفع معقدة. وخرج العلماء والفنيون وضباط الدفاع العسكري بنتيجة مفادها أن تلك الأجسام هي من خارج الكرة الأرضية.

وفي الاتحاد السوفييتي بدأت مشاهدات الأطباق الطائرة في عام (1946)، وأن مشاهدات كثيرة لها قد حدثت، ولكن لم يُعلم عنها حتى لا تصبح عرضة لاختراع القصص التي كثيراً ما تكون مزعجة للسلطات. وتبين أن تلك الأجسام لها مواصفات الأجسام التي شوهدت في بقية بلدان العالم، وعلى الرغم من عدم فتح المجال أمام الناس ليرووا مشاهداتهم عنها، فإن الاعتقاد بأنها من خارج الأرض كان مؤكداً.

وفي عام (1967) كتب الدكتور 'زيغل' وهو أخصائي في معهد الملاحاة الجوية بموسكو إن الرادارات التقطت، في الاتحاد السوفييتي، خلال العشرين سنة الماضية، صوراً عديدة لأجسام طائرة مجهولة الهوية، وأن هناك رواد فضاء سوفييت شاهدوا من محطاتهم المدارية حول الأرض أجساماً غريبة تقترب منهم، وتراقبهم، ثم تبتعد وتختفي.

يتخيل بعض أدباء الخيال العلمي أن هذه الأجسام المجهولة التي تطير في جوا الأرض هي موجهة من قبل كائنات عاقلة قادمة من الفضاء الخارجي في رحلة استكشاف لكوكب الأرض، حيث ظلت هذه الكائنات تراقب الناس بحذر، دون أن تتصل بهم مباشرة، إلا فيما ندر. ولا بد أن يكون تطور تلك الكائنات مذهلاً لدرجة أنهم رأوا في البشر مخلوقات بدائية متخلفة.

ثم لم يعد الأمر مقتصرًا على اللقاء من النوع الأول، والذي ترى فيه الأطباق الطائرة عن بعد، فقد أصبح اللقاء من النوع الثاني الذي يميز الكائنات العاقلة داخل الطبقة، و من النوع الثالث الذي يتم فيه اللقاء بين البشر وكائنات الطبقة. وهذا ما أكدته أيضاً الحوادث الموثقة.

من ذلك ما رواه المواطن البرازيلي بواس الذي مر بتجربة اللقاء من النوع الثالث، في عام (1957)، فقد كان يقود الجرار الزراعي، فرأى نجماً يهبط من السماء ويقترب منه حتى حط على الأرض أمامه. كان جسماً بيضويًا، بهوائيات معدنية عريضة.

وفوقه جهاز يدور بسرعة فائقة، ويرسل ضوءاً أحمر. وقد استند قسم من أسفله على ثلاثة أرجل أصاب 'بواس' رعب شديد، فحاول تشغيل محرك الجرار للهرب، لكنه تعطل. فقفز منه، وحاول الهرب، فأمسكه كائن ضئيل الحجم، دفعه بواس فوق على الأرض. لكن ثلاثة آخرين رفعوه وهم في دهشة من حركاته، وأصعدوه درجاً صغيراً إلى داخل الطبق، فرأى غرفة يصدر من سقفها ضوء شديد. ثم أدخلوه غرفة أخرى، وخلعوا ملابسه وسط صراخه، وتأكيدهم له بأنه لن يتعرض للأذى. ذلك أحدهم جسمه باسفنجة مبللة بسائل شفاف، وأجروا عليه اختبارات عديدة دامت نصف ساعة. استخدموا فيها أجهزة غريبة. ثم تركوه متعباً منهكاً. وكانوا جميعاً يرتدون ألبسة من قطعة واحدة كالعمال، تلتصق تماماً على أجسامهم الضئيلة. وكانت وجوههم مغطاة بالأجهزة. ثم دخلت امرأة قصيرة جميلة دون ملابس فأثارت فيه شعوراً غريباً دفعه إلى مغازلتها. وحين خروجها أشارت إلى بطنها. وكأنها تقول له إنه "أدى المهمة المطلوبة". وقد خطر له أن يسرق أداة من عندهم، فمنعوه بقسوة، وفهم أنه ما دام عاقلاً فلن يُصاب بأذى. ثم جعلوه يقوم بزيارة أقسام المركبة والتعرف عليها. ثم أنزلوه منها، بعد أن ظل بينهم مدة أربع ساعات وربع.

وقد أرسل رسالة بالحادث إلى صديقه الصحفي الذي حضر مع طبيب لمعاينته، وقدم الطبيب تقريراً مطولاً عن حالة بواس، حيث لم يعد يستطيع النوم، ولم يعد يستطيع تركيز أفكاره. وكان يحس بالصداع والغثيان الدائمين، ويشعر بالنعاس الشديد حتى في النهار. ولوحظ أثر جرح صغير في ذراعه بعد ثمانية أيام من الحادث. كان متقيحاً متورماً. وحين اندمل ترك مكانه أثراً أحمر اللون. ثم ظهرت في جسمه بقع ملأى بالقح، لم تشف إلا بعد ثلاثة أسابيع، وتركت مكانها أثراً حمراء.

وقد أكد الطبيب أن حالته العامة طبيعية، وأنه ليس مصاباً بأية أعراض نفسية. وقد أكد هذا طبيب آخر. وتم فحص مكان الجسم الطائر فوجدت آثار إشعاعية واضحة.

ويؤكد الدكتور طالب عمران في كتابه الحاسة السادسة¹⁷⁵ أن أطرف حادثة عن الأطلاق الطائرة حدثت عام (1950) حيث كلفت المؤسسة العامة للطائرات النفاثة المهندس فراي بتأسيس نظام المناورات للأسلحة الموجهة عن بعد، في قاعدة الصواريخ الرمال البيضاء بولاية نيومكسيكو في جنوبي الولايات المتحدة.

وحين كان يتجول في حقل تجارب الصواريخ، رأى جسمًا يهبط فجأة أمامه. فدار حوله، وقرر ارتفاعه بثمانية أمتار، وقطره بتسعة أمتار. ولم تكن به فتحات. وكان ينبعث منه وهج بلون بنفسجي لا يكاد يُرى. وكان ناعم الملمس. وحرارته تزيد عن حرارة الجو العادي. وقد ضرب بأصابعه على سطحه الصقيل، فسمع صوتاً يقول له:

"لا تلمسه. لا يزال حاراً".

فارتعب، وتراجع إلى الخلف. ثم عاد الصوت يقول:

"لست أمريكياً". وكأنه جواب لفكرته. وتابع الصوت: "ظنك أنني أمريكي يدل على أنني نجحت في تعلم لغتكم خلال عامين. لم آت إلى كوكبكم قبل الآن. وربما تمضي أربع سنوات قبل أن أتمكن من التلاؤم مع جو كوكبكم وجاذبيته. غاية رحلتنا هي دراسة قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة. نرغب في دراسة إمكانية تهيئة طاقته العقلية لتفهم أفكار بعيدة عن تفكيره التقليدي الحالي. إن أجدادنا قاموا برحلات عديدة إلى الأرض خلال القرون الماضية. وقد فشلوا في تحقيق غاياتهم. ونأمل أن نستطيع الآن اللقاء مع أناس متعقلين متزنين يفسحون المجال لتقديم المساعدة إلى أهل الأرض في مسيرة التطور". ثم تابع الصوت: "لا شك أنه يصعب عليك سماع صوتي. فأنت على الرمل. ومن الأفضل القيام برحلة صغيرة. انظر إلى هذه اللعبة أمامك. إنها

¹⁷⁵ طالب عمران، الحاسة السادسة: الإنسان وقواه الخفية، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 2017، ص:

موجهة عن بعد. صممت لتكون محطة للشحن بمقاعد. أنا أتكلم معك من مركز القيادة في السفينة الكبيرة الأم على ارتفاع (1450) كم¹⁷⁶.

وفجأة انفتح باب المركبة، فرأى فراي حجرة. دخلها، فسمع الصوت يقول له: "أترغب في القيام برحلة إلى نيويورك خلال نصف ساعة؟". كانت نيويورك بعيدة. لكن فراي رأى نفسه يطير بالمحطة، بسرعة كبيرة، ولم يشعر بأي تأثير لهذه السرعة ولهذا الارتفاع الكبير (3 كم) عليه. فاستغرب، وهو المهندس، عدم إحساسه بالسرعة والارتفاع. وقد وصلت المركبة خلال ثوان إلى ارتفاع كبير، وانخفضت فوق نيويورك، ثم ارتفعت من جديد، بعد أن حامت فوق نيويورك، وازداد ارتفاعها وتساوعها حتى وصلت إلى قاعدة الرمال البيضاء، فخرج منها فراي شبه متجمد، وارتفعت المركبة بخط عمودي إلى الفضاء، وهي تتوهج بلون برتقالي، واختفت، بعد أن خلفت فراغاً من سرعتها الجنوبية كاد يفقده توازنه ويسقط على الأرض.

وقد قدم فراي تقريراً كاملاً عن تجربته، شرح فيه كل ما رأي، ولم ينشر تقريره إلا في عام (1962) باعتباره سرية عن منطقة عسكرية.

في قصته 'جسم طائر مجهول الهوية'¹⁷⁷ يسرد د. عمران حادثة وقعت في عام (1961) لـ 'بارني' وزوجته اللذين كانا يقطعان الطريق بسيارتهما، ففوجئاً بنجمة مضيئة حطت أمامهما، فإذا هي طبق طائر. فأوقف 'بارني' سيارته. وشاهد سلماً صغيراً ينزل من الطبق الطائر. وحين حاول بارني تشغيل محرك سيارته للهرب، لم يستجب له المحرك. وأحس وزوجته برعشة كهربائية، وبصوت أزيز، ثم فقدا الوعي. وبعد مدة عادت إليهما ذاكرتهما، ووجدا نفسيهما في سيارتهما، في مكان يبعد عن المكان الذي فقدا فيه وبعيهما ساعتين ونصف.

¹⁷⁶ نفس المصدر

¹⁷⁷ طالب عمران، خفايا النفس البشرية، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1994

أما كيف حصل لهما ذلك وماذا جرى لهما خلال تلك المدة، فظل عندهما لغزاً، حتى عام (1964) حيث ظهرت عند بارني قرحة معدية، فلجأ إلى طبيب نفسي، عالجه بالتنويم المغناطيسي، فسمع منه عجباً، عن لقاء بكائنات من عوالم أخرى ترتدي ألبسة غريبة. وكأنها أقزام شرسة، من جنس مغولي. ذات وجوه عريضة مسطحة، وعيون كبيرة مائلة بنهايات حادة و ممتدة على جانبي الوجه، وأنوف صغيرة فطساء. ورؤوس كبيرة. وقد أدخلوهما المحطة الغربية، ووضعوا كلا منهما في غرفة. وجردهما من ملبسهما. ووضعوهما تحت أجهزة غريبة، كَشَطَّت عِينَات من جلدهما، واقتلعت نماذج من شعرهما وأظفارهما. ثم أطلقوهما، وغادر الطباق الأرض.

وعندما أخضعت الزوجة للتنويم المغناطيسي أكدت القصة والمعلومات التي أفصى بها زوجها، وهو تحت التنويم المغناطيسي.

وقد هزت هذه القصة الرأي العام الأمريكي، عندما أعلنها الطبيب النفسي الذي نومهما مغناطيسياً. وأكدت عالمة الفلكية الأمريكية 'فيش' أن الخارطة التي كان الزوجان قد رأياها مرسومة على الجدار الداخلي للمركبة واتفقا على رسمها، تشير إلى النجمة 'سيتا' التي تبعد عنا نحو (36) سنة ضوئية. ويُعتقد أن الطباق الطائر جاء منها.

والواقع أنه على الرغم من أن التنويم المغناطيسي أصبح علماً قائماً بذاته، فإن استخدامه لا يزال محصوراً في عيادات الأطباء النفسيين، على الرغم من أنه نجح في الكشف عن كثير من الحوادث الكاذبة التي رواها الناس عن الأطباق الطائرة، كما أنه أكد بعض هذه الحوادث، مثبتاً إياها، وكاشفاً عن اللاشعور الذي كثيراً ما يخفيه الشعور.

وفي قصته 'كائنات من كوكب أوريانا' يروي د. عمران أنه في 'إسبانيا'، وفي إحدى ضواحي 'غرناطة'، وفي عام (1982) لجأ المحبان 'ميغيل' و'فلورندا' إلى خلوة في بناء قديم. وعندما شاهدها سلما حجريا، هبطاه، من باب حب الاستطلاع والفضول، فإذا صفان من الزنزانات التي لا ينفذ إليها الضوء، دخلا واحدة، فانغلق بابها الحديدي عليهما. وانقطعا عن العالم.

وعندها بدأ الشاب يبحث عن منفذ دون جدوى، بينما انخرطت الفتاة بالبكاء. قرأ الشاب على الجدران أن السجن كان تابعاً لمحاكم التفتيش، قبل أربعمئة عام. طرق الباب بيديه وبالحجارة علّ أحداً يسمعه. ولكن دون جدوى. حاولا الصراخ مراراً. ولكن لا مجيب، فهما في زنزانة سجن قديم تحت الأرض. ففقدوا الوعي.

وعندما استيقظا كانا في حالة يرثى لها من اليأس والبؤس، وقد بدأت الصراصير والجرذان تتسلق جسميهما. في تلك اللحظة هدر صوت آلية، وحطت قريباً من المكان مركبة فضائية، هبط منها رون و'ريدا' وسلطا كاميراتهما اللايزرية يستطلعان وجود نوع من الحياة على الأرض. وقد وجدا الشابين فحملهما العقل الإلكتروني 'روبي' إلى المركبة مغمى عليهما. وحين استيقظا وجدا نفسيهما في الفضاء. حدثتهما 'ريدا' بلغتهما.

أما على الأرض فقد أعلم أهلها بفقدتهما، فانطلقت الشرطة والمباحث والكشافة والكلاب البوليسية تبحث عنهما.

وأما في المركبة الفضائية فقد دار الحوار التالي :

- تصور يا 'رون' أعطتنا محطة جمع المعلومات كل شيء عن الكائنات العاقلة التي تستوطن هذا الكوكب.

- إنه كوكب مضطرب يا 'ريدا' لونحت كائناته منحى الخير لكانت حضارتها متفوقة - هذان الشبان يتمتعان بصفات رائعة. فالحب يغلف قلوبهما، وهما مستعدان للتضحية كلاً في سبيل الآخر.

- اسمعي ما يقوله العقل المركزي عن ميغيل: إنه ابن عائلة ثرية. يحب المطالعة وقراءة الشعر و الرياضة، ولا يحب الصخب والاختلاط بالناس دون تمييز.

وتحلم الفتاة بأنها تطير فوق مروج خضراء، والناس يبتسمونها، وهي ترقص. ثم تصعد مع فتاة أوريانا في الفضاء، وتدور حول كوكب أخضر اللون، وتدخل في غيوم ملونة.

- لم تكونا تحلمان. نقلناكما لكوكبنا لتتعرفا عليه عن كئب.

- ماذا؟

- عن طريق الحلم. إنه سهل بالنسبة لنا. كوكبنا 'أوريانا' في مركز المجرة. جئنا إليكم في زيارة عابرة. كوكبنا يدور حول نجم حجمه يقارب حجم شمسكم.

يعرفّ أنهما على الحياة في كوكب 'أوريانا': حياة متحضرة راقية، وصناعات متطورة نفية من التلوث والنفايات والإشعاع، ليس لها مخلفات، خالية من الرواسب. لكل عمله ووظيفته الاجتماعية. ومع اطراد التقدم العلمي أصبحت الولادات هي الغالبة، لأن العلم حاصر أسباب الإصابة بالأمراض، وقدم الكثير من الإنجازات لإطالة العمر .

- ما متوسط العمر عندكم ؟

- يمكننا أن نعيش آلاف السنوات، قد لا يُصيب الموت أحدا إلا بحادث عارض. وهذا نادر الحدوث. نحن نؤمن بالمحبة والسلام والحوار الخلاق بين الحضارات.

وعندما يدعوانهما للذهاب معهما إلى الكوكب 'أوريانا' لأنهما خلاقان ومبدعان وجديران بالأمانة، يعتذران قائلين: "لو هرب كل من لديه القدرة على مقاومة الظلم لعمّ البلاء الكوكب".

استيقظ الشابان بعد مدة، فوجدا نفسيهما في وسط منطقة صخرية. ظنا أنهما كانا يحلمان بأناس من كوكب آخر في المجرة يدعى 'أوريانا'. وكان حلمهما مشتركاً. وعندما عثرت عليهما الشرطة وفرق الكشافة، بعد ثلاثة أيام من البحث، وجدوهما بصحة جيدة، لكنهما لم يستطيعا تفسير الزمن المفقود.

وبعد مدة ظهرت بثور على يد ميعيل، وعلى بطن فلوراندا، وحين راجعا الطبيب شاهد ثقوبا كثيرة في جسديهما نتيجة تناول حقن لم يدريا بها، ثم صارا يعانيان من كوابيس وأحلام غريبة عن مخلوقات لطيفة من كوكب آخر، وعندما استشارا طبيبا

نفسياً فنومهما مغناطيسياً، عرف السبب، إنها كائنات كوكب آخر، اتصلت بهما، وهذه الآثار تدل على ذلك الاتصال.

هذه اللقاءات التي هي من النوع الثالث الذي تتواصل فيه كائنات الكواكب الأخرى بالبشر على الأرض، وتترك هذه الكائنات غير الأرضية آثارها على أجساد البشر الذين اتصلت بهم، جعلت العلماء في حيرة: فهم يرفضون وجود حياة عاقلة على أحد كواكب مجموعتنا الشمسية عدا الأرض، ويستبعدون وصول هذه الكائنات من كواكب أخرى في المجرة، لبعدها الهائل عنا. فإذا تم هذا التواصل، فإنه يعني أن هذه الكائنات الأخرى قد بلغت من التقدم الحضاري مستوى لم يصل إليه بشر الأرض بعد، ونحن نقيس الأمور على مستوى علمنا. وعلماً لم يصل بعد إلى مستوى توظيف مركبات فضائية تخترق المسافات الهائلة بسرعات عالية، أكبر من سرعة الضوء، إلا في أدب الخيال العلمي. وبما أن التنويم المغناطيسي علم محايد، يكشف ما في خفايا النفس البشرية ويفضح الكذب، فإنه يثبت حالات هذا التواصل بين كائنات الحضارات الأخرى والبشر.

وفي قصته 'لقاء من النوع الثالث'¹⁷⁸ يسرد لنا د. عمران قصة عالم رياضيات متفوق في حقل اختصاصه، ولكنه مهمل في وطنه، شأنه في ذلك شأن كل المتفوقين في العلوم، فهم يرفضون العمل في مخابر الغرب المتقدم الذي يغريهم بالرواتب العالية والحياة المرفهة، ويؤثرون العمل في بلدانهم برواتب لا تكاد تسد رمقهم، وبيئات متخلفة، وهم معرضون يومياً للقمع والاضطهاد من قبل سلطات بلدانهم التي لا تقيم للعلم وزناً، ولا للثقافة أي اعتبار، بل إنها تعمل على كبت العلم والثقافة، لأنها ليست بحاجة إلى علماء ومتقنين عارفين يناقشونها الحساب، وإنما هي بحاجة إلى جهلة وأميين يحنون الرقاب في حظيرة القطيع.

¹⁷⁸ طالب عمران، السبات الجليدي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1992

أما كائنات العوالم الحضارية فهي تبحث عن أمثال هؤلاء العلماء المهملين في أوطانهم، والمنسيين في بلدانهم لتستفيد من علمهم، وتفيدهم في أن.

وقد تعرض الدكتور هذه الحالة، إذ ظلت سيارة تلاحقه عدة أيام، ثم توقفت ونزل منها ثلاثة رجال و امرأة، كانوا يرتدون لباساً موحداً، وجوههم حمراء مشعة، ويضعون نظارات شمسية على عيونهم، طمأنوه بأنهم أصدقاء، وبأنهم يتبعونه ليروا رد فعله، وذكرت له الفتاة تفاصيل عن حياته إنهم يعرفون أنه مبدع مكافح وأن في داخله إحباطاً مستمراً يمنع عنه توهج الإبداع، ويعرفون أنه مضطهد في وطنه، فقد شاهدوا بساطير القوم تدوسه في الشارع، ولم ينقذه منها سوى تلامذته الذين رجوا ذوي الوجوه العابسة أن يتركوه لأنه أستاذ في الجامعة، قالت له الفتاة: إنهم جاؤوا إليه من مكان بعيد، وقبل ذلك حاولوا الاتصال مع بشر الأرض، فكان رد هؤلاء عدوانياً، مما جعلهم يسدلون النسيان على ذاكرة البشر ليدرؤوا عن أنفسهم خطر الملاحقة، وقد التقط جهاز الذاكرة في محطتهم نذببات دماغ الدكتور بالغة الشدة، فلاحقوه ليعرفوا المزيد عنه.

ثم رغبوا منه في أن يقوم بجولة معهم ليتعرف إلى حضارتهم، رافقهم بسرور، فانطلقت محطتهم الفضائية المتطورة تمخر عباب الفضاء السحيق، لتحط على كوكب مزدان بالخضرة، تحيط به غيوم شفافة ملونة، شاهد وجوهاً لطيفة مشعة بالحياة والمحبة، كانت المدينة خالية من الشرطة والوجوه العابسة والسحنات المقلوبة. بدت له الكائنات أشبه بالبشر، لكنهم يعملون في بناء صرح مجتمعهم دون كلل، بهرته التقنية المتطورة، والحضارة المتقدمة.

قالت له الفتاة: "ليتكم تتعلمون أن تحكموا العقل، وتحترموا الإبداع والتوهج والنبوغ العلمي، لو فعلتم ذلك لكان إنجازكم مدهشاً".

استفاق من غفوته، فإذا هو وراء مقود سيارته، على طريق يبعد عن المدينة، وكان كل ما مر به كان مجرد حلم أو رؤيا، فلجأ إلى صديقه الطبيب النفسي، فنومه هذا مغناطيسياً، وبعد أن استيقظ من التنويم المغناطيسي أسمعته شريط التسجيل الذي سجل

به صوته وهو منوم مغناطيسياً: كاد يردد عبارات غير مفهومة من مثل: لماذا أخذتموني، لست أربح الذهاب إلى عالمكم.. إلخ.

هكذا يكرر د. عمران موضوعه في أكثر من قصة: عالم متفوق لكنه مهمل في بلده، تلتقيه كائنات الكواكب الأخرى، فتريه حضارتها المتفوقة، وحبها للعلم والسلم، لكن قومه لا يؤمنون بهاتين القيمتين، ولذا فهو على غير وفاق معهم، لأنهم يريدونه أن يكون مثلهم، ونسخة طبق الأصل عنهم: تافهاً، جاهلاً، منافقاً متزلفاً، متسلقاً، لا يهتم بعلم أو خلق، وإنما كل همه ملء بطنه وتفريغ فرجه، ولهذا كثرت في البلدان المتخلفة المطاعم والملاهي، حتى إن بين المطعم والمطعم ملهى، وكثيراً ما دمج أصحاب المشاريع الاستثمارية الخدمية الذين يتوخون الربح السريع العاجل، كثيراً ما دمحو الأمرين، فجعلوا المطعم ملهى، والملهى مطعماً، حيث يأكل المرء وهو ينزف شهوة، أو ينزف شهوة وفمه يتحرك بالتعويض.

وهكذا تحطم بلدان العالم الثالث أبنائها المتفوقين بإهمالها لهم، وعدم توفير المناخ الملائم لإبداعهم، فتهتمشهم قبل أن تهشمهم، ويحيدون أنفسهم قبل أن يحيدهم الآخرون الذين لا يريدون رؤية من هو أفضل منهم علماً أو استقامة، لذلك فهم يضعون العصي في عجلة سير حياته، من أجل تحطيم امتيازه، وجعله مثيلاً منخرطاً في القطيع.

وفي قصته 'الطبق الطائر'¹⁷⁹ يتابع د. عمران اهتمامه بالتواصل بين كائنات الكواكب الأخرى ذات الحضارات المتقدمة، وبشر الأرض، فيصور اندفاع شهاب من السماء، ما يلبث أن يقترب ويتضخم بسرعة، فإذا هو طبق طائر يحط أمام العالم الفلكي عاصم الذي كان يقود سيارته في الطريق الصحراوي، وإلى جانبه زوجته مريم. وقد توقفت السيارة، على الرغم من محاولته تشغيلها دون جدوى. وخرج كائن عملاق من بطن الطبق الطائر، وكان رأسه يناطح السحاب، فمد يده إلى السيارة وحملها بإصبعيه، ثم وضعها على راحة كفه، وكأنها لعبة أطفال بالنسبة له، وبعد قليل وصلهما صوت

¹⁷⁹ طالب عمران، السبات الجليدي، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1992

يقول بالعربية: "السلام لغة العقل، نحن أصدقاء جننا في زيارة لكوكبكم من كوكب المتألق الكائن في مركز المجرة".

تعرف عاصم ومريم على تارا العملاق اللطيف، على الرغم من ضخامته الهائلة، وبينما هم كذلك إذ داهمتهم الطائرات الحوامة والشاحنات الكثيرة التي تحمل جنودا تنطق عيونهم بالشر والشرر، ومذيع السيارة بيت: "هبطت مساء اليوم سفينة فضائية مجهولة، ونزل منها كائن عملاق، يبدو أنه سيثس عدواناً ظالماً على كوكبنا بقصد استعباد أبنائه، وقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة لمحاصرته والقضاء عليه. ويقول مراسلنا: إن العملاق سحق سيارة صغيرة تقل زوجين، أبلغ أهلها عن اختفائهما في ساعة متأخرة".

صرخت مريم وهي تركض صوب المهاجمين، وتشير إليهم بالتوقف:

- ماذا تفعلون؟ توقفوا.

قال أمر الهجوم المساعده:

- من هذه المرأة التي تندفع صوبنا تريد إيقاف رتل المدرعات من التقدم؟ إنها مجنونة

- إنها تلوح بمنديل أبيض يا سيدي..

لاشك أن لها علاقة بهذا الجاسوس الفضائي الغريب.

-هل نطلق عليها النار ياسيدي؟

هكذا يميز الكاتب بين عقليتين: إحداهما مسالمة تؤثر الصداقة والسلام والتعاون بين حضارات الكون من أجل انتصارات علمية أكبر، وهي تتمثل في موقف العملاق تارا والعالم عاصم وزوجته، وثانيتها نظرة الجنود الذين ظنوا أن هذا الوافد الغريب جاء ليستعبدهم، ولهذا فهم يحاولون القبض عليه أو تدميره دون اهتمام بالعلم أو السلام أو بالصلوات الكونية.

بيد أن العملاق سعد والآلي إلى المركبة الفضائية، فانهالت عليها القذائف والصواريخ كالمطر، فلم تتأثر، وانطلقت إلى الفضاء الخارجي.

قال عاصم: ما أكثر شرور الإنسان يا مريم، لم يرتكب هذا الكائن اللطيف جرماً، أتى يستكشف ويكون صداقات مع الناس هنا.

لكن أمر الهجوم اعتبر الرجل والمرأة سبب فشل الهجوم فاتهمهما بالتعاون مع جواسيس العالم الخارجي، بغية السيطرة على الأرض، فأمر بإلقاء القبض عليهما لتقديمهما إلى المحاكمة. وفي المدينة اتهمهما قاضي التحقيق بأنهما متعاونان مع جاسوس، فحكم عليهما بالإعدام. ثم دفعوا بهما إلى زنزانة معتمة رطبة في انتظار بزوغ الفجر لتنفيذ حكم الإعدام بهما.

وعند الفجر أيقظهما السجان بغلظة، وجرهما إلى منصة الإعدام، والمتفرجون يهدرون فرحين.

في تلك اللحظة طغى هدير على الأصوات الأخرى، وخيّم سحب دخانية بيضاء تكاثفت حتى لم يعد أحد يرى شيئاً أمامه، وامتدت يد عملاقة تتلقف عاصماً ومريماً اللذين أحسا بخدر يسري في جسميهما، وفقدوا الوعي.

وعندما استيقظا من غيبوبتهما و جدا نفسيهما في قاعة واسعة. دخل 'تارا' بجسمه العملاق قائلاً:

- أنا آسف، تأخرت عليكما، كنت أنتظر لأرى نوع العقاب الذي هياه لكما أولئك الناس، لأنكما ساعدتماني. إن كائناتكم ظالمة.

وعلى شاشة عريضة أراهما كوكبه 'المتألق' الذي يدور حول نجم حجمه ثلاث مرات حجم الشمس، أزرق اللون يشبه الكرة الأرضية، ذوسحب شفافة، ويدور حوله قمران، أقربهما بحجم القمر التابع لكوكب الأرض، وعليهما محطات ومراكز بحوث لدراسة طبيعة جو الكوكب.

ثم التفت إليهما قائلاً: في مجتمعنا لكل منا عمله وتوجهه ووظيفته الاجتماعية، ومع اطراد التقدم أصبحت الولادات هي الغالبة، إن العلم حاصر أسباب الإصابة بالأمراض، وقدم الكثير من الإنجازات لإطالة العمر، فأحدنا يمكن أن يعيش آلاف السنين، وقد لا يصيبه الموت إلا بحادث عارض، وهذا نادر جداً.

عرض عليهما العملاق 'تارا' أن يذهبا معه إلى كوكبه، ليعيشا هناك لأن مجتمعهما ظالم، لكنهما رفضا مغادرة أرضهما التي إذا كانت تغص بالأشجار، وتدين للطغاة، فإن فيها أيضاً من يتمتعون بصفات الوداعة والفكر الخلاق المبدع، على الرغم من قتلهم أمام الغالبية المستسلمة، ولأنه لو هرب كل من لديه القدرة على المقاومة لعم البلاء الكوكب، وعلى الرغم من أن المقاومة غير مجدية، فإنهما لم يكونا يائسين من المستقبل.

وتبدو خاتمة القصة قبلة تنفجر بين يدي القارئ، حين يجعل الكاتب هذا كله مجرد حلم. ولكن كيف يفسران وجود المجسم إلى جانب سريرهما، وعليه مجموعة كواكب لا تشبه المجموعة الشمسية، وهذا دليل على أنهما لم يكونا في حلم، بل هما في يقظة. وهذه القفلة المفاجئة هي التي تعطي القصة واقعيته، وتبتعد بها عن الفانتازيا. وبهذا يبدو الكاتب بارعاً في هذا اللعب أو الإبداع الفني بأدواته التي يجيد توظيفها.

المبحث السادس: كائنات العوالم الأخرى

تبدو كائنات العوالم الأخرى، لدى أدباء الخيال العلمي الغربي ذات مظهر فيزيائي منفر، فهم في 'حرب العوالم' لويلز، ذوو فم غريب وشفة عليا مدببة، دون شفة سفلى وذقن، ودون حواجب. وهم في رواية 'أوائل الرجال على سطح القمر' لويلز أيضاً: "بشعون، ذوو منظر منفر منفوش بالأشواك، يشبه حشرة معقدة جداً، مجهز بمجسات بشكل أسواط، وبذراع كبيرة ذات مظهر معدني تخرج من جسم أسطواني لماع، وخوذة هائلة مصفحة برؤوس تخفي شكل الوجه، وعينان خضراوان متباعدتان، كثيرتا البروز".

وأما عند هال كليمنت في قصته 'الإبرة' فهي كائنات هلامية، دقيقة جداً، لاتعيش إلا باحتلال أجسام الكائنات الأخرى الأكثر صلابة، وقد دخل أحدها في جسم شاب آدمي، عن طريق مسامه، فأحدث فيه تغييرات بيولوجية مروعة.

كما جعلتها 'كاترين ماكلين' في قصتها 'الصور لا تكذب' ذات أحجام ميكروسكوبية، ولهذا لم تظهر في الصور التي التقطت لها، ومن ثم فإنه لم يكن هنالك دليل على قدومها إلى كوكب الأرض.

وهذا بخلاف ما يراه جون واينام في قصته يوم النباتات الذي يصف فيه كائنات العوالم الأخرى على أنها عبارة عن نباتات ذكية، يبلغ طولها حوالي مترين، وتسير على ثلاثة نتوءات كالجذور المقطوعة، وتطلق من سيفانها سما مميتا للبشر.

وهكذا تتراوح أشكال كائنات العوالم الأخرى، عند أدباء الخيال العلمي الغربي بين أشكال شبيهة بالبشر إلا أنها منفرة وعلى فروق فرعية، أو على شكل أشجار متحركة، أو هي كائنات دقيقة جداً لا ترى إلا بالمجهر.

وأما قدرات هذه الكائنات غير الأرضية فمذهلة، حيث لا تقتصر قدراتها على الأسلحة التدميرية التي تملكها فحسب، وإنما أيضاً على القوى النفسية المشحونة بها، فهي تهدد كرتنا الأرضية بالدمار، وهي تقرأ أفكار الآخرين قبل أن ينطقوا بها..

وعلاقتها ببشر الأرض تتراوح بين الحرب والحب: فالمجابهة معلنة منذ التماس المباشر الأول، والعدوان هو طريقة التماس العادي، وبالمقابل فهناك علاقات حب جنسي بين الطرفين، فرواية العشاق الأجانب تشير إلى الحد الأقصى من التسامح في العلاقات الجنسية بين البشر والكائنات غير الأرضية، وفي رواية 'المتشرد' يصف 'ليبر' علاقة جنسية مع قطة كبيرة. وفي رواية 'غروب المريخ' (1923) يجعل ألكسي تولستوي رائد الفضاء الأرضي يحب أميرة المريخ أيليتا ابنة حاكم المريخ، فتبادله الحب بدورها.

وأما أشكال كائنات الكواكب الأخرى في أدب الخيال العلمي العربي فنتراوح أيضاً بين الأشكال القريبة من أشكال البشر مع اختلافات طفيفة، والأحجام الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة، ففي قصة 'غزاة من الفضاء' للكاتب المصري رؤوف وصفي وصف هذه الكائنات بأنها كتل هلامية شرهة إلى بروتوبلازما الإنسان الحي. وفي قصته 'عالم آخر' يصف كائنات العوالم الأخرى بأنها مخلوقات دقيقة جداً لا ترى إلا بالمجهر، لكنها تتسم بالذكاء الشديد، وهي تقرأ ما يدور في ذهن الإنسان قبل أن ينطق به، وتحتل أجساد البشر.

ولعل الكاتب المصري نهاد شريف من أكثر أدباء الخيال العلمي العربي الذين وصفوا كائنات العوالم الأخرى، ففي قصته 'المزرعة الكونية' يصف كائنات الكوكب 'هوتيمينا' بأنها أكثر رقيماً وتطوراً من البشر، وأنها تغزو الكرة الأرضية لتتصادق بني البشر، فتتخذ من أعضاء أجسادهم قطع غيار لها، ولتجعل من أمخاخمهم قوة تستخدمها في إنتاج الطاقة الفكرية التي تدير محطات الكهرباء لديها، بعد أن ضعفت شمسها المركزية، وأوشكت أن تخدم.

أما الكائنات الهوتيمينية فتشبه البشر، ولكن ما يغطي أجسادها ليس جلدًا ولا أردية، وإنما هو طلاء سميك، وهي ترى وتسمع وتتحدث من خلال مسام فيه. كما أنها ليست خلايا من لحم وعظام كالإنسان، وإنما هي مخلوقات تطورت عبر نصف مليار عام من التقدم العلمي والتفوق التقني، فأصبحت كائنات نصف مصنعة، أي أنها استعاضت عن أجزاء من أجسامها بأخرى مصنعة غير قابلة للتلف، ومن ثم فإنها تستطيع قراءة أفكار المرء قبل أن يتفوه بها.

وفي قصته 'وجهان لحقيقة واحدة' يظهر نهاد شريف وصول العلماء المصريين إلى كوكب المشتري عام (1999) في سفينة متطورة، لكنها تقع في أسر كائنات هلامية غامضة تجري تجاربها على الإنسان القادم من كوكب الأرض.

أما العلاقة بين هذه الكائنات وبين البشر، فهي علاقات استغلال للبشر من قبل كائنات العوالم الأخرى، بخلاف البشر الذين لا يتطلعون إلى الوصول إلى هذا التقدم العلمي

الذي وصلت إليه الحضارات الكونية الأخرى، وإنما هم يكتفون بإقامة العلاقات الجنسية مع نساء هذه الكائنات.

وأما طالب عمران فتتراوح أشكال كائنات العوالم الأخرى لديه بين الأشكال القريبة من أشكال البشر، مع بعض التنوعات المختلفة، والأزهار الجميلة ذات العطر الشجي، ففي قصته 'ذلك الثقب الأسود'¹⁸⁰ يصور عمران كائنات الكوكب 'زيتا' كما يلي: رأس مفلطح كبير، وعينان واسعتان، وأذنان كبيرتان منتصبتان، ورأس خال من الشعر، ورقبة طويلة، وجسم نحيل، وأيد كثيرة. بينما يصور كائنات 'كوكب الأحلام'¹⁸¹ بأنها أزهار جميلة تغني فتصيب المرء بغيوبة تفقده عقله إذا ما استمع إليها أو نظر إلى جمالها.

وفي قصته 'الأشباح'¹⁸² يصور عمران كائنات عاقلة ذات أشكال شبيهة بأشكال البشر، لكنها لا تعرف الكذب والنفاق والخداع والحقد والأنانية، وتؤمن بالعلم والعقل وسيلة اتصال سلمي بين عوالم الكون، وعندما تساءل إبراهيم في سرّه عن الموت والشيخوخة لديهم أجابه مباشرة، لأنهم يقرؤون أفكاره: "قد يعيش أحدنا مئة عام، أو ألف عام، وذلك تبعاً لقدرة الكائن على العطاء، فما دام قادراً على العطاء فإنه يعيش، وحين تخف قدرته على العطاء، فإنه يبدأ بالذبول".

ومن الملاحظ أن كائنات العوالم الأخرى في أدب عمران هي كائنات عاقلة، وعلى مستوى حضاري متطور جداً أكثر من بشر الأرض بكثير، ولهذا فهي تؤمن بالعقل الذي يبدي العلم، وبالعلم الذي يبدي الحضارة، وبالسلام الضروري للحضارة كي تعيش مدة أطول، وتؤمن لأفرادها الرفاهية والهناء.

¹⁸⁰ طالب عمران، شحنة الدماغ – مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996

¹⁸¹ طالب عمران، كوكب الأحلام – مجموعة قصصية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1970

¹⁸² نفس المصدر

الفصل الرابع

خصائص أدب الخيال العلمي عند طالب عمران

الباحث في تحليله للنص الأدبي عند عمران لن يلجأ إلى تحليل نص معين، لتعدد النصوص وكثرتها، ما بين قصة قصيرة، ورواية، وإنما سيبدأ من العام إلى الخاص، من الخصائص العامة لأدب الخيال العلمي، إلى الخصائص الذاتية لإبداع د. طالب عمران.

1. التنبؤ العلمي:

التنبؤ العلمي هو أحد خصائص قصة الخيال العلمي، إذ أن البشرية تحلم بتحقيق ما تعجز عنه، وتضع هذا الحلم هدفاً أمام الأجيال التي ستسعى حتماً إلى تحقيقه. هكذا كان الإنسان العربي، في تراثنا الشعبي، يحلم بالطيران، فأوجد خياله البساط السحري قبل أن يصبح حقيقة واقعة في الطائرة، وكان يحلم بالمرآة السحرية التي تريه العوالم البعيدة والقريبة، فجاء اختراع التلفزيون ملبياً هذه الرغبة. وظل يحلم بالمصباح السحري حتى اخترع الكهرباء. وتصور أجدادنا المارد المحبوس في قمقم والذي يطير في السحاب، ويحطم الحصون، ويفعل المعجزات، وقد تحقق هذا الحلم بتحويل المادة إلى طاقة، فإذا القنابل الذرية والهيدروجينية تزرع الرعب والدمار في العالم كله، ذلك أن كيلوغرام من المادة، عندما يتحول إلى طاقة، يعطي (20) ألف كيلواط ساعة، وهو كاف لتزويد سيارة بالوقود اللازم لسيرها لمدة (16) ألف عام دون توقف. الحلم إذن- أولاً- ثم يأتي العلم ليحقق ذلك الحلم، ومن هنا صدق مقولة (بودلير): (الخيال هو الطريق إلى الحقيقة).

وفي مجال الفضاء تنبأ الفلكي الانكليزي جون أدامز في عام (1845) بوجود كوكب آخر وراء أورانوس نتيجة انحراف أورانوس وتأرجحه في مداره، وقد حدد مكانه بالمعادلات الرياضية والحسابات الدقيقة، وكانت الكواكب المعروفة حتى زمنه سبعة فقط هي: عطارد، و الزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري، وزحل، و أورانوس،

ثم أكد هذا التنبؤ في العام التالي الفلكي الفرنسي ليفربيه الذي توصل إلى اكتشاف الكوكب الثامن في المجموعة الشمسية، وحددت حساباته حجم الكوكب والمكان المفترض وجوده، وأطلق عليه اسم نبتون. وكتلته أكبر من كتلة الأرض ب (18) مرة، ويقدر قطره بنحو (25) ألف ميل، وجوه مليء بالغيوم، ولا يصله من نور الشمس وحرارتها إلا جزء من (1900) جزء مما يصل إلى الأرض، ويتم دورته حول الشمس كل (165) سنة.

وفي بداية القرن العشرين تنبأ العالم الكبير 'لوول' بوجود كوكب تاسع في المجموعة الشمسية، عن طريق الحسابات الدقيقة، وقد مات قبل أن تتمكن المراصد الفلكية من رؤية اكتشافه، حتى كان عام (1930) حيث تمكن عالم فلكي شاب من رصد الكوكب المجهول، في نفس المكان الذي افترضه لوول فأطلق عليه اسم بلوتو.

وكان هذا الاكتشاف ضجة كبيرة في الأوساط العلمية، إذ تضاعفت الثقة في نفوس الباحثين، وأثبتوا أن علم الفلك ليس علماً مبنياً على الحدس والتخمين، وإنما هو علم قائم على أسس رياضية متينة.

كذلك أثبت العلم صحة تنبؤات أدباء الخيال العلمي، لأنها مبنية على افتراضات العلماء أو على الحقائق العلمية، من ذلك أن جول فيرن رائد أدب الخيال العلمي الفرنسي كان قد تنبأ باختراع الغواصة، والطائرة، والهبوط على القمر، وأشياء أخرى تحققت كلها. كما تنبأ ويلز رائد أدب الخيال العلمي الانكليزي في روايته 'الغذاء السحري' بأنواع ضخمة من الحيوانات عن طريق التهجين، يتم تدجينها، ووضعها غذاء في خدمة الإنسان. وهنا نحن نشهد النتائج تلعب وترسل إلى كافة أنحاء العالم، وهو ما يفعله اليوم الاختصاصيون في مجالات الزراعة والصناعة وغيرها.

ومن طريف ما يروى في مجال التنبؤ العلمي أن قصة من الخيال العلمي نشرت في عام (1944) في أمريكا، وصفت القنبلة الذرية وعملها بدقة متناهية، فأحدثت رد فعل قوي في الأوساط العسكرية الأمريكية التي أجرت تحقيقاً لمعرفة كيفية تسرب أسرار علمية مطلوب كتمانها، متعلقة بالسلاح الذي لم يكن قد أنجز بعد. ولم يكن في الأمر

إفشاء أسرار معلومات علمية أو عسكرية، وإنما هو الخيال العلمي المبني على أسس علمية وبعد عشرة أشهر تم تفجير أول قنبلة ذرية في العالم.

كذلك تنبأ الدكتور طالب عمران في روايته 'العابرون خلف الشمس'،¹⁸³ بسحب من الدخان المتراكم لشهور طويلة بعد الحرب النووية، وكأنما هو يصف الشتاء النووي قبل نشر هذه النظرية من قبل علماء دول متطورة.

2. نسبية الزمان والمكان:

على الرغم من أن أدباء الخيال العلمي يلتزمون الحقيقة العلمية، فإن هذه الحقيقة تصبح نسبية بين الكواكب والنجوم، ذلك أن المسافات المكانية الهائلة، والأزمان المختلفة، قد حطمت الوحدات الزمانية والمكانية الأرضية التي اعتبرت المقياس الوحيد في العالم، وجعلت أدباء الخيال العلمي يتحررون من سلطتي الزمان والمكان: فعندما تنطلق المركبة الفضائية إلى كوكب آخر لاستكشاف أجوائه و كائناته وحضارته، وتقضي في رحلتها شهراً، ثم تعود إلى الأرض فتجد أنها قضت ثلاثمئة عام. وعندما تنطلق مركبة أخرى في غزو الفضاء بسرعات خيالية تقارب سرعة الضوء، ثم تعود إلى الأرض فتجد العالم قد تغير وسكان الأرض قد أصبحوا على خلاف ما عهدهم الراحلون، خلقاً وخلقاً. فمثل هذه الفوارق الزمنية الهائلة مرعبة حقاً.

وعندما نعلم أن يوم الشمس يعادل (27) يوماً من أيام كوكبنا الأرضي، وأن نهار القمر يعادل (14) يوماً أرضياً، وأن يوم المشتري يعادل عشر ساعات أرضية، وأن يوم عطارد (179) يوماً أرضياً، وأن سنة الزهرة (225) يوماً أرضياً، وأن سنة المريخ (287) يوماً أرضياً، وسنة المشتري (11) سنة أرضية، وسنة زحل (29) سنة أرضية، ويومه (10) ساعات أرضية، وسنة أورانوس (89) سنة أرضية، ويومه (11) ساعة أرضية، وسنة نبتون (165) سنة أرضية، ويومه 16 ساعة أرضية وسنة بلوتو (258) سنة أرضية، ويومه ستة أيام وتسع ساعات أرضية، وأن

¹⁸³ طالب عمران، العابرون خلف الشمس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1979

سنة الأرض (365) يوماً، ويومها (24) ساعة، أدركنا كم هو الفارق الهائل بين الأزمنة في الكواكب، فضلاً عن الفارق الرهيب أيضاً بينها في الأمكنة، فإذا كانت سرعة الضوء (300) ألف كيلومتر في الثانية فإن المسافات هائلة جداً بين الكواكب والنجوم: فالدب الأكبر مثلاً يبعد عنا (80) سنة ضوئية (و السنة الضوئية = 300 ألف كم/ثا * 60 د * 60 سا * 24 يو * 365 سنة).

ويمكننا تصور حجم مجموعتنا الشمسية بالنسبة للفضاء بتمثيل الشمس بحبة الحمص، وكواكبها التسعة بذرات من الرمل والغبار، في ميدان كبير في مدينة ضخمة. وإذا افترضنا أن مركبة انطلقت من الأرض باتجاه الشمس بسرعة (400) ميل في الساعة فإنها تصل إلى الشمس بعد (27) سنة، ويبعد عطارد عن الأرض (57) مليون ميل حين يكون في أقرب نقطة إليها، وتبعد الزهرة (26) مليون ميل في أقرب نقطة منها، ويبعد القمر عن الأرض 240 ألف ميل. فإذا انطلقت مركبة من الأرض باتجاه القمر بسرعة (400) ميل في الساعة فإنها تصل بعد (25) يوماً، ويبعد المريخ (48) مليون ميل عن الأرض، ويبعد المشتري (369) مليون ميل عن الأرض، ويبعد زحل (744) مليون ميل عن الأرض، ويبعد أورانوس (1700) مليون ميل عن الأرض، ويبعد نبتون (2700) مليون ميل عن الأرض.

هذه المسافات الهائلة والأزمنة الفلكية هي خيالية في تصور البشر وفي واقعهم.

وقد أخذ الدكتور عمران هذه المسافات الزمانية والأبعاد المكانية الهائلة بعين الاعتبار في قصصه ورواياته العلمية. ففي روايته 'فضاء واسع كالحلم' يعود ماجد من رحلته الفضائية التي استغرقت شهراً أرضياً، فإذا أقرانه قد كبروا ثلاثين عاماً.

وقد أوقعه هذا الفارق في مفارقات: فلم تعرفه زوجته التي أصبحت جدة، وأصبحت ابنته أكبر من أبيها. ولهذا قرر مجلس المدينة عدم عودة ماجد إلى أسرته كي لا يفكك وئامها، مما جعله يغادر الأرض عائداً إلى الكوكب اللامع الذي كان قد اختار اكتشافه، لتتحل فيه مادة جسمه، فتصبح طاقة خالدة.

وإذا كان الدكتور عمران، في موضوع غزو الكواكب، قد التزم بالحقائق العلمية، في مسألتها الزمان والمكان، على الرغم من أن هذه الحقائق العلمية هي أشبه بالخيالية بالنسبة لنا كبشر نحيا على كوكب الأرض. فإن هذا ما يجعل الحقيقة نسبية، وخاضعة لظروف عديدة.

3. خيال بلا حدود:

يتداخل الخيال العلمي بالفانتازيا حيث ينطلق الخيال بلا حدود: فعندما يجعل توفيق الحكيم، في 'لو عرف الشباب' طبيباً مصرياً يتوصل إلى تحديد خلايا أحد الباشوات الشيوخ، فيعيده شاباً، تحدث له مفارقات مضحكة، تجعله يطلب من الطبيب أن يعيده شيخاً لأن 'عقل الشيخ في جسد الشاب' أمر غير عادي، وغير مألوف. وفي قصة 'في سنة مليون'، يصور الحكيم عالماً يوتوبياً لا موت فيه ولا ماض ولا ليل ولا نهار، وإنما ضوء صناعي أغنى عن ضوء الشمس، وأغذية كيماوية أغنته عن النوم.

ولذلك اختفت المعد والأمعاء والغرائز والشهوات. كذلك توضح مسرحية 'رحلة إلى الغد' عودة سفينة الفضاء الأرضية بروادها إلى الأرض، بعد أن استغرقت رحلتهم (300) سنة أرضية، ففوجئوا بأن الأرض قد تغيرت كثيراً عما ألفوها فقد أصبحت يوتوبيا خيالية اتجه فيها انتباه البشر، بعد أن دمرت الحرب الذرية أنانيتهم وجشعهم، إلى استخدام الطاقة النووية للسلام لا للحرب، وللخير والإعمار لا للشرب والجريمة. فتوافرت الأغذية والرفاهية، وأصبحت أسطح المنازل محطات للطائرات الجوية. ولم تعد تستغرق الرحلة بين الأرض والقمر أكثر من ست ساعات.

كذلك يجعل د. مصطفى محمود في روايته 'العنكبوت'، عالماً يخترع 'إكسير الحياة' الذي يُحقن في الجسم الصنوبري في الدماغ ليدخل المرء في غيبوبة كاملة، وكأنها نوم عميق. فيتكلم باسم الشخصية التي عاشت في زمن سابق، وفي بلد آخر. وبلغه لا يعرفها صاحبها في يقظته. وهذا قريب من ظاهرة 'التقمص'. أما في روايته 'رجل تحت الصفر' التي تدور أحداثها في النصف الثاني من القرن 'الحادي والعشرين'

فإن الدكتور 'شاهين' يخترع جهازاً يحول الأجسام المادية إلى أثيرية لا تمكن رؤيتها إلا من خلال شاشات الأجهزة التلفزيونية.

وأما رؤوف وصفي فيتحدث في قصته 'عالم آخر' عن مخلوقات دقيقة لا ترى إلا بالمجهر. لكنها تتسم بالذكاء الشديد، وتستطيع أن تقرأ ما يدور في ذهن محدثها قبل أن ينطق به.

وهذا كله إنما يدل على أن الخيال العلمي عند هؤلاء الأدباء إنما ينطلق حراً بلا حدود، عبر الأزمنة الفلكية والأمكنة الفضائية.

4. الاتجاهات المضمونية:

تتعدد الاتجاهات المضمونية في أدب الخيال العلمي، فمن غزو الفضاء، إلى البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض أو في أعماق المحيطات، إلى البحث عن الخلود وإعادة الشباب إلى الخلايا الهرمة، إلى الظواهر الخارقة المدهشة التي تعطل تارة بالحاسة السادسة، وأخرى بالروح... إلخ.

ويشكل غزو الفضاء الاتجاه الأوسع في موضوعات أدب الخيال العلمي كماً ونوعاً. وقد عالج طالب عمران فيه غزو الفضاء من قبل سكان الأرض، كما عالج في قسم آخر غزو الأرض من قبل كائنات الكواكب الأخرى، وذكر أسماء الكواكب التي زارها أبطاله (القمر، والمريخ... إلخ) كما ذكر أسماء الكواكب التي اخترعها خياله (ميماس، أوريوس، المارد، ريموس، الكوكب الفوسفوري، الثقب الأسود... إلخ) وأحياناً لم يكن يذكر أسماء الكواكب المنشودة مكتفياً بتصوير كائناتها وحضاراتها، ومصاعب الرحلة إليها. ورائده في هذا الاتصال الكوكبي الحضاري هو التعاون مع حضارات الكواكب الأخرى في سبيل اكتشاف الفضاء، وعقد صداقات مع كائنات العوالم الأخرى، رغبة في نشر قيم الحق والخير والعدل، ليس بين البشر فحسب بل وبين سكان العوالم الأخرى، مما يجعل أدبه ذا رسالة حضارية سامية.

والاتجاه الثاني الذي عالجه طالب عمران في أدب الخيال العلمي هو الظواهر الخارقة المدهشة حيث غاص إلى أعماق خفايا النفس البشرية، واكتشف حالات كثيرة من الطاقات الروحية المخزونة والتي يعبر عنها العلم أحياناً باسم الحاسة السادسة، وذلك في قصصه التي تروي القدرات الخارقة، والتنبؤ والاستبصار، وقراءة أفكار الآخرين، والتخاطر، والأحلام، والتقمص، والتنويم المغناطيسي، والأسرار الخفية للروح... إلخ.

كذلك عالج عمران في أدبه التكاثر الخلوي، والاستنساخ، والبحث عن الخلود عن طريق السبات الشتوي، حيث يجمد الجسم عشرات السنين، ثم يوقظ ثانية، لبدأ حياته من جديد، في عصر آخر، أو الخلود عن طريق تحويل مادة الجسم إلى طاقة خالدة. أما في البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض، فقد عالج عمران القارة المفقودة أطلنطيد، والحضارات العربية القديمة في قصصه ورواياته العلمية.

5. البناء الفني:

غالباً ما كانت الرواية هي الجنس الأدبي الذي كتب به أدباء الخيال العلمي أدبهم، لأن صدرها يتسع للوصف والأحداث وبناء الشخصيات، بخلاف القصة القصيرة التي هي في الأصل ومضة أو إضاءة لموقف شعوري، وعلى الرغم من ذلك فقد لجأ أدباء الخيال العلمي أحياناً إلى القصة القصيرة يعبرون من خلالها، عن حدث يركزون عليه جل اهتمامهم، أو عن شخصية في موقف فعل يريدون إظهار أهميته.

وقد وضع طالب عمران في مجال الرواية خمس روايات علمية، وفي حال القصة القصيرة خمس عشرة مجموعة قصصية لاتقل قصص المجموعة الواحدة عن خمس قصص وهذا يعني أنه وضع أكثر من ثمانين قصة في مدى عشرين عاماً (بين 1978 – 1998)، وهذا بالطبع إنتاج كثيف وغزير. فإذا أضفنا إليه الكتب العلمية والدراسات التي أنتجها لأصبح لديه 28 كتاباً أصدره خلال هذه الفترة المذكورة، أي بمعدل كتاب ونصف في العام الواحد. بالإضافة إلى برامجه في التلفزيون السوري والإذاعة

السورية، وليس من كبير فرق بين قصصه القصيرة و رواياته، فقد تصبح القصة رواية صغيرة إذا ما زيد فيها الوصف، وقد تصبح روايته قصة قصيرة إذا ما حذف منها بعض الوصف والمشاعر، وهذا لا يقلل من أهميتها ولا يعني أن روايته تحوي حشوا زائداً، وإنما هو رجل علمي يكتب بدقة ويعرف للكلمة حقها، ومن هنا جاءت رواياته قليلة الكم، لأنها أصلاً مختزلة، لا زوائد فيها.

وعلى الرغم من أن عمران يضع السرد القصصي في خدمة الأفكار العلمية، إلا أن هذا لم يجعل روايته أو قصته تنسم بالجفاف العلمي، لأنه استطاع بمهارة الفنان أن يحقق المعادلة المستحيلة : المضمون العلمي في الشكل الفني. ويحفظ التوازن بين هذين الاتجاهين المتعارضين، فيلتحمان في وحدة كاملة ينصهر فيها الشكل بالمضمون. .

وقد توزعت مضامين أدبه على محاور: غزو الفضاء، والبحث عن الخلود، والحاسة السادسة، والبحث عن مناطق مجهولة على سطح الأرض. ودعا في هذه المحاور جميعاً إلى السلام ليس على مستوى العالم الأرضي فحسب، بل وعلى مستوى الكون كله.

فإذا كان رواد أدب الخيال العلمي الغربيون قد جعلوا البشر يغزون الكواكب الأخرى، أو تغزوهم كائنات تلك الكواكب، فإن عمران جعل هذه العلاقة بين سكان الأرض وكائنات الكواكب الأخرى علاقة محبة وسلام وتعاون من أجل التغلب على المشكلات الكونية.

وإذا كان عمران قد وقف إلى جانب العلم وأظهر ضرورته وإيجابياته فإنه بالمقابل قد حذر من خطورته وبين سلبياته : فهو سلاح ذو حدين، يستعمل في الخير لصالح البشرية، في التقدم العلمي، وتغيير البيئة، والقضاء على الأمراض، وعلى التلوث، وعلى التصحر. كما يستعمل في الشر ضد البشرية كما في الحروب والقنابل الذرية والهيدروجينية التي شجبتها ورفض الديكتاتورية والقمع والكبت والاستبداد.

من هنا يمكن القول: إن طالب عمران هورائد أدب الخيال العلمي في الأدب السوري المعاصر. وعلى الرغم من أن هذا الأدب لم يلتفت إليه إلا مؤخراً، بسبب طغيان القصص الاجتماعي: الرومانسي، والواقعي، فإنه عوض بفضيلة عالية في القصة والرواية، وبإخلاص شديد لهذا النوع الأدبي. فلم يوزع اهتماماته في مجالات شتى أدبية أو ثقافية، وإنما حصر كل اهتمامه في هذا المجال وحده، فأنتج الرواية والقصة القصيرة والدراسة العلمية، والمسلسلات التلفزيونية والأحاديث الإذاعية. مصورا كائنات العوالم الأخرى، ومجتمعاتها، والتطور العلمي المذهل الذي وصلت إليه، وداعياً إلى قيم الخير والمحبة والسلام.

مجموعة قصصية واحدة من خمس عشرة مجموعة قصصية في نتاجه خرجت على 'أدب الخيال العلمي' فكانت قصصها الست غير علمية، هي 'تلك الليلة الماطرة'، إلا إذا استثنينا منها قصة 'حين تبكي الألواح' التي يمكن أن تعد من أدب الحضارات القديمة التي اكتشفت حديثاً. وظل الراوي ستة أشهر حتى استطاع فك طلاسمها، ومع ذلك فإنه كان يرى في نومه، وخلال أيام عديدة، ما يتصل بالقصة القديمة التي توضح كبت الملوك القدماء للحريات، وإقامة دولهم على الظلم والتجسس، ومحاربة الحب ومنعه من التداول بين الناس.

أما القصص غير العلمية الأخرى فهي: 'الرعب والجرأة' التي تصور كيف تدمر الحروب كل ما بنته البشرية خلال رحلتها الطويلة من الغابة إلى المدينة. وقصة 'رجل الكهف' التي تصور كيف كان يعيش الإنسان البدائي في الغابة، مع زوجته وأطفاله، وضد غيره من البشر والحيوانات الأخرى، حتى اهتدى مصادفة إلى الكهف الذي يقبئ شر الأعداء. لكنه هوجم أيضاً فيه، فاضطر إلى الهرب إلى البحر 'غابة المياه الكبيرة' حيث استطاع من بعد أن يبني على سواحله أولى الحضارات الإنسانية وأقدمها.

والجميل في القصة أنها تصور بداية ميل الرجل الوحشي للمرأة، وارتياحها إليه، وبداية معرفته صنع السلاح الذي يدافع به عن نفسه، ويقتنص به فرائسه من

الحيوانات 'عصا ينتهي طرفها بحجر مسنن مربوط'. وبداية معرفته للرحمة التي جعلته يعطف على زوجته وأولاده، فيكون الأسرة، ومن ثم يكون المجتمعات البشرية. وبداية معرفته للطب حيث يسقي أطفاله المرضى شراب الأعشاب .

وقصة العملاق التي تصور ظلم الإقطاعيين للفلاحين، فإذا وقف أحدهم في وجه سيده، مطالباً بحريته، نال العقاب الأقسى. وهكذا قطع البغي لسان فارس العملاق الذي سيظل عملاقاً، حاضراً ومستقبلاً، لأنه لم يصبر على الضيم والذل، وسيظل يقاتل بإمكانياته المحدودة.

وأما قصة 'تلك الليلة الماطرة' التي سميت المجموعة باسمها، فتصف حياة كاتب ينهي الفصل الأخير من روايته، بعد منتصف الليل، فإذا بجرس الباب يقرع، ولما كان يعيش وحده، فقد فتح الباب، فإذا سيدة مبتلة بالمطر تنتظر إذنه بالدخول. قالت له: إنها قادمة من مدينة ساحلية، وأن السيارة قد تعطلت، فلجأت إلى هذا البيت. وقال لها: إنه يعيش وحيداً بعد أن هجرته زوجته الأجنبية التي تعرف عليها أثناء دراسته، ولكنها لم تستطع الحياة هنا، فعادت إلى وطنها. صنع لها شايًا، فقالت له: إنها كانت متزوجة، وهنا قطع حديثهما صوت جرس الباب الخارجي. فتحه فإذا وجوه بعض أفراد الشرطة: أعلموه أنهم يبحثون عن سجينه هاربة من المشفى المركزي، وأنها قد قتلت زوجها، وقد أبلغهم السائق أنه أنزلها في هذه المنطقة، فإذا علم شيئاً عنها عليه إبلاغ المخفر.

سمعت حديثهم من خلف الباب. فطمأنها إلى أنهم قد مضوا. قالت: إنها قد قرأت كل كتبه، وأنها درست الحقوق، وكانت البنت الوحيدة المدللة عند أبيها. وقد زوجها رغماً عنها لرجل في الستين من عمره، لكنه غني. وأنها لم تقتل زوجها، بل كرهته منذ الليلة الأولى التي هجم فيها عليها كالوحش. وعندما دفعته عنها اصطدم رأسه بحافة السرير فانفجرت الدماء منه. لم تقتله، وإنما كانت السبب في قتله. فحكمت عليها المحكمة بالسجن خمسة عشر عاماً قضت منها خمسة، ثم عندما علمت بوفاة والدها، ومرض والدتها بالسرطان وهي تعالج في مشفى الطب النووي بالعاصمة. هربت

لترى أمها، فصعدت السيارة الذاهبة إلى العاصمة، ولكن السائق أنزلها لأنها لا تحمل نقوداً. طمأنها الكاتب، ووعدها أن يصحبها غداً لزيارة والدتها في مشفى العاصمة.

6. الخصائص الذاتية:

في معرفة الخصائص الذاتية للكاتب طالب عمران لن يلجأ الباحث إلى السيرة الذاتية، وإنما سيلجأ إلى عكس ذلك، إلى أعماله الأدبية لتفسير حياته وشخصيته ومعرفة خصائصه النفسية. وستكون قصة 'الممر' منطلقاً إلى ذلك. وفيها يروي عمران سفر قافلة تقصد مدينة دويري التي تعني بلغة أهلها نبع السحاب، لأنها مرتفعة تعانق السحب. كانت القافلة المكونة من الجمال والبغال تحمل المؤن التي فشلت وسائل النقل الحديثة في الوصول إليها. وكان أمجد راغباً في التعرف على عادات أهلها وتقاليدهم، ودراسة الآثار الغريبة. وكانت المدينة حافلة بما يبحث عنه من آثار قديمة، ومخطوطات، وملائكة تستوطن المدينة العالية التي لا يعيش فيها إلا الناس الطيبون الذين يؤمنون بالله، ويحترمون القوانين العادلة التي سنها أجدادهم. والأم الكبيرة هي التي تدير شؤون المدينة. وهي ملجأ حقيقي لكل معذب أو مفقود.

رأى أمجد نفسه في الحلم مع ليلي يسيران في طريق مشجر ويداها متشابكتان. وبينما هما كذلك إذ لاح فارس على جواده، فاندفعت إليه، وألقت برأسها على صدره. فرفعها بين ذراعيه، وانطلق بها بعيداً دون أن يأبه بصراخ أمجد المتكرر.

جلس أمجد على طرف صخرة، فإذا بيد حانية توضع على كتفه. كانت أم ليلي تبتسم في وجهه وهي تقول: لا عليك يا ولدي. سوف تعود عن طيشها. كان يبكي على صدرها كطفل صغير وهي تربت على ظهره. وفجأة رأى نفسه على قمة جبل شاهق، ووجه ليلي وفارسها على صخرة. تدرجت الصخرة مندفعة إلى الوادي وليلي فوقها، بينما قفز فارسها ناجياً بنفسه.

كان من الممكن أن يكونا زوجين سعيدين، لولا أن ماضيها أتعبه. لقد تصرف بطيش في علاقاتها مع الشبان. ولم تكن والدتها تكبح جماحها. وهي التي كرهت الرجال بعد

زواجها الفاشل، واستخدمتهم للتسلية واللهو، منتقمة منهم حين تراهم يتعذبون في حبها.

بدت دويري المدينة / الحلم خرافية وسط السحب التي تحيط بها. قال الشيخ: إنهم سيعبرون ممرات الموت قبل وصولهم المدينة. وهي ممرات ضيقة بين الصخور، يقال: إن كائنات مجهولة تستوطنها، وتسبب الأذى والمرض والجنون لمن كان شريراً، فتعوق وصوله إلى المدينة. أما الأخيار فيعبرونها بيسر وسهولة. وصلت القافلة الممرات الضيقة المغطاة بالصخور، فاستقبله شيخ بلحية بيضاء مرحباً به في أرض الأحلام، وقائلاً له: أنت رجل مبارك بفكره الوقاد وعقله. نريدك أن تتعرف على أحلامك في أماكن انطلاقها.

وحين اختفى الشيخ فجأة، ظهرت فتاة صغيرة تشبه أخته الصغيرة سناء التي ماتت. تقدمت منه وبيدها باقة من الورد قائلة:

- مرحباً بك يا أخي.

- سناء؟

- نعم.

- وماذا تفعلين هنا؟

- أعيش مع أصحابي في أرض الأحلام. ما تريده تراه هنا. من تحبه يعيش هنا. سواء كان ميتاً أم حياً. هنا أرض الأحلام. عالم يختلف عن عالمكم. الحب والسلام والسعادة هي القوانين التي تحكمنا.

أفاق من نعاسه على يد تمتد شعره. كانت (ليلي) تجلس قربها وتداعب شعره. انتفض مذهولاً وهو يقول:

- ما الذي جاء بك؟

- كنت تحلم بي، فجئت إليك.

قالت له: إن حمامات حملتها إلى هنا، ثم تحولن كالسحر إلى فتيات صغيرات كانت أخته إحداهن. وقالت له: إن الموتى هنا لهم قدرات كبيرة. بينما الأحياء مقيدون بأجسامهم الخاملة. وأن عليه أن يضحى من أجل الآخرين، لينضم إليهم.

تجول مع ليلي في سهول فسيحة خضراء. وشربا مياهاً مذاقها كالعسل، وطارا فوق المروج والبساتين. استقبله شيخ كبير السن ذو لحية بيضاء، مرحباً وقائلاً: "أنت نقي العاطفة أيها الشاب. حلمك بخلاص العالم من سجانیه وجلاديه، جعلك تتفوق في بحثك عن الحكمة وسر المعرفة".

قصة الممر هذه تشبه قصة أخرى لعمران هي 'نبع السحاب' وقد سماها الكاتب بهذا الإسم لأن المدينة المقصودة عالية بين السحاب. والقصتان تتشابهان في المثل العليا التي تدعوان إليها، وفي اسم البطل أمجد فيهما، وفي 'الأم الكبيرة' التي تحكم المدينة الفاضلة. وفي 'الممرات الضيقة' التي ينبغي اجتيازها قبل أن يصل المرء إليها. فمن كان خيراً اجتازها بسهولة، ومن كان شريراً تعرض للأذى والجنون. وقد اجتازها 'أمجد' في القصتين بسهولة. وعلى حين استقبله شيخ في القصة الأولى مرحباً ومثنياً على أعماله الخيرة، فإن 'الأم الكبيرة' هي التي استقبلته في القصة الثانية مرحبة أيضاً ومثنية على نقاء قلبه وعاطفته. ثم تفرق القصتان بعد ذلك فتكتفي الأولى بلقاء الأحبة الذين غادروا الحياة، في حين يتصل أمجد في القصة الثانية بكائنات الكواكب الأخرى عن طريق التخاطر، ليصفوا له عوالمهم الخالية من البغضاء والأحقاد، والتي تعيش بأمان وسلام. ويعرض علماءهم عليه التعاون من أجل تخليص الكرة الأرضية من تلوث البيئة الذي سوف يدمرها، ومن ثقب 'الأوزون' الذي سوف يحرق الأشجار والنبات والحيوان والإنسان، ومن النفايات الذرية التي تستقبلها الدول الفقيرة، عن طريق أبناء مسؤوليها، لتدفن في صحاريها وبحارها فترة، ما تلبث بعدها أن تتسرب إشعاعاتها فتكون الكارثة التي تدمر الزرع والضرع والإنسان.

وقد انتهت القصة الأولى بقاء أمجد بحبيبه ليلي ولكن ليس عن طريق الحلم، وإنما عن طريق التخاطر. حيث اعتذرت له عن المظاهر الفارغة التي غرتها، وعن الفرسان الذين يختالون ببذلاتهم المذهبة والذين انشغلت بهم عنه. وأما تقول لها: "فقدت أظهر رجل على وجه الأرض. رجل يعطي ولا يفكر بالأخذ".

وهكذا يضع عمران إصبعه على الجرح في قصتيه اللتين تدعوان إلى الخير والسلم والحرية: "يمكنك أن تكون شريراً لو تركت لنفسك ولطموحاتك ولأمانيك مجالاً للحركة دون أن تلقي بالألمن حولك. ويمكنك أيضاً أن تكون مثلاً للخير فيما لو كبتت رغباتك عن الانفلات بلا قيود، والافتناع بأنك لست المخول بالحياة وحدك على هذه الأرض، تفعل ما تريد، ويخضع لك الجميع، فأنت جزء من كل". ويشير إلى أسباب التلوث الذي حل بالكوكب الأرضي فيجعله في أنانية الإنسان المستغل الماضي في صناعته التي تطلق في كل لحظة ما يلوث الأجواء، ويقضي على الأحياء. ولم يعد التلوث في المحيط البيئي نفسه، بل انتقل إلى النفوس، فتلوثت بالفساد والأنانية والطمع والجشع. ومن هنا اقتتالها الدائم وصراعها المستمر مع بعضها بعضاً، مما يهدد الجنس البشري بالزوال. ومن هنا - أيضاً - الحلم بمدن فاضلة يحكمها أناس ذوو نزعة خيرة، ويقطنها بشر يجسدون الخير والعدل والإنسانية والتقدم العلمي في سلوكهم الحضاري.

يمكن الباحث الاستنتاج من هاتين القصتين حب الكاتب للخير، وتخصيصه أذبه في سبيل المحبة والتعاون والسلام. وإنما تنبع هذه القيم من نفس الكاتب الفاضلة وشخصيته النبيلة.

في قصة 'تلك الليلة الماطرة' كان بإمكان الكاتب الذي يعيش وحيداً أن يستغل لجوء امرأة إلى بيته، بعد منتصف الليل، فيمضي على عادة الأدباء الاجتماعيين في وصف محاسن وجهها، ونهديها، وردفيها، ثم يغويها، ويجرها إلى سريره كنعجة للذبح. ولكنه ليس من هؤلاء الذين يزينون الزنا أو يفرغون مكبوتاتهم الجنسية في أذبه: "أقترب من الصورة المعلقة في الصالة، والتي تمثله مع زوجته التي هجرته. فهاجمته

الذكريات: ترى أين هي الآن؟ وماذا فعل بها أولئك الأندال؟ أظلوا على سيطرتهم التامة عليها لدرجة جعلتها لا ترى إلا من خلال عيونهم؟".

هذه الجملة ترد أيضاً بمعناها في قصة 'الممر'. وهي تؤكد حادثة انغرس في شعور الكاتب فلم يستطع فكاً عنها، فأوردها في أكثر من قصة، وفي أكثر من موقف ومن مناسبة. وهي تؤكد أيضاً سماحته حتى مع هاجرته. واتساع قلبه الكبير حتى مع الأندال الذين أغروها وغرروا بها.

وفي قصته 'مساحات للظلمة' يتابع عمران تثبيت القيم التي نذر نفسه وقلمه من أجلها: قيم الحق والخير والعدل. فيجعل شعار بطل القصة: "الرابطة الإنسانية هي الأساس في فرز الجيد من الرديء". ويجعل بطله متفوقاً في شد اهتمام الناس. في حديثه متعة، وفي صوته نغمة. وقد عاش جميع الطبقات والأجناس، فلم يحظ من يسر إليه بالحقيقة. كانوا جميعاً مزيفين، يظهرون خلاف ما يبطنون، حكماً، ووزراء، وأمراء، ورؤساء، ولصوصاً، وقطاع طرق، وسيدات مجتمع، ومتفقين، وكتاباً... الكل ينافق في سبيل الوصول إلى هدف أناني بعيد عن النبل.. حتى أولئك البسطاء الذين بدوا له في البداية نموذجاً فريداً للثورة والعدل. كانوا مندفعين نحو المركز والوظيفة والمال. وما أن استلموا مراكزهم حتى بدؤوا يتخلون عن المبادئ التي ناضلوا من أجلها، وارتفعوا من خلالها على أكتاف آلاف البسطاء الطيبين الذين رأوا فيهم خلاصهم.

وبعد أن وصل اشمئزازه من الناس إلى الذروة بحث عن حل لخلص نفسه وعدم تلوثها بمستنقع الناس، فلم يجد غير العزلة. ومن عزلته تلك بدأ يكتب ممجداً القيم الإنسانية الباقية على مر العصور: قيم العدل والحق والحرية، فلامه الكثيرون على أنه لم يتسلق كغيره صهوات الشعارات، ولم يتزلف إلى المسؤولين، ولم يكتب ضد قناعات ضميره ونفسه. ولكن القلة النادرة أيدته وطالبته بالمزيد من الإبداع. فهذا العالم الثالث منجم غني لمن يريد أن يكتب، فما عليه سوى أن يصف ما يرى، ويسجل ما يسمع، حتى ينتهي إلى العجب العجيب، وإلى الواقع الذي هو أشد قسوة من الخيال.

وهكذا يتماهى الكاتب ببطله، ويجعله لسانه في التعبير عن حالته النفسية، وعن مطامحه وآماله. ومن هنا كانت أسماء شخصياته واحدة، تتكرر في أكثر من قصة مثل: (أمجد)، و(نادر)، و(أحمد) ... إلخ. وكلها يعبر لفظاً ومعنى عن النبل والخير الذي تختزنه في أعماقها. فالدكتور نادر مثلاً هو مدير الملجأ الموصد ضد الإشعاعات النووية، والذي يدير شؤون اللاجئين، في قصته 'الخروج' وهو رائد الفضاء الذي يغامر بروحه من أجل اكتشاف علمي بين الكواكب.

ولأن قصصه علمية فإن معظم شخصياته من العلماء الذين يحملون شهادة الدكتوراه، أو من المختصين في مجالات عملهم، كالهندسة، أو الطب، أو التقنية... إلخ وما يجمعهم ويوحد بينهم هو رغبتهم في التقدم العلمي الإيجابي لخير البشرية، وسعيهم من أجل مستقبل إنساني يعم فيه الخير والعدل والسلام.

وإذا كانت ظاهرة توظيف الأشعار التراثية والأغاني الشعبية مشروعة في أدبنا المعاصر، وقد لجأ إليها كثير من الأدباء لإغناء مضامينهم. فإن عمران لجأ إليها أيضاً ولكن ليس كغيره ممن يوظفون أشعار غيرهم. فقد جاء بأغان وأشعار هي من إبداعاته أيضاً. وليست تضميناً، على الرغم من أنها تأكيد على الموقف الذي يعالجه في موضوعه، واختار لها قالب شعر التفعيلة لكونه أيسر في تسجيل نبضات الشاعر، ولعدم تقييده الشاعر في قالب مفروض عليه مسبقاً لكي يصب فيه انفعالاته.

ففي قصة 'حين تبكي الألواح'¹⁸⁴ يضع البطل أشعاراً، وهو شاعر يحب ابنة الملك وتحبه، ولكن الملك أمر بنفيه من المدينة لأنه شهر بظلمه، فكانت أشعاره متنفس الشعب المقهور، ومنها ما وضعه الكاتب على لسان بطله، مخاطباً حبيبته :

أراك في عيني غزال وديع

وفي زقزقة العصافير والعنادل

¹⁸⁴ طالب عمران، تلك الليلة الماطرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1991

وفي نسائم الصباح العليلة

وحين أنام أحلم بك

الحراس المدججون بالسلاح والبساطير الصلبة

وبالعيون الوقحة والضحكات المستهترة

أصبحت كوابيسي

قال لي شيخ مسن: ارحم نفسك يا بني

إن العمر يضيع، والأسى يقتل الجسد

أكره الظلم مذ تفتحت عيناى على النور

ولكن الظلم يطاردني في كل مكان

ولن أقف عن الدفاع عن إنسانيتي

أحمل هموم الحزانى والمقهورين

وقلبي يستوعب العالم

كم هو ضئيل الفرق بين الشاعر والمحب والكاتب، لقد تماهى الكاتب في بطله، فجعله صورة عنه، أولسان حاله، يعبر من خلاله عن معاناته، وعن آلامه وآماله، وعن مطامحه في عالم حر نظيف.

وعندما يُلقى القبض على الحبيبين ويحكم عليهما بالحرق، وكل جريمتها الحب، وأنهما يعملان وفقاً لأحد قوانين الطبيعة، يتأوه الشاعر / الكاتب، وتخرج الزفرات من أعماق نفسه، ممتزجة بالكلمات الشاعرة:

ما أكثر الأقرام في هذا العالم البأس

العمالقة بإنسانيتهم بدؤوا يختفون

وأتى عصر الفئران المذعورة
كل الناس حولي يئنون من العذاب
والجلادون يتشفون
وينسون أن يومهم الموعود قادم
لماذا ينسى الإنسان أنه ميت لا محالة؟
ويقتل كأنه يعيش أبداً؟¹⁸⁵

ظاهرة أخيرة نجدها في أدب طالب عمران العلمي هي أن أبطال قصصه بالإضافة إلى كونهم يعبرون عن قيم الحق والخير والعدل التي يتبناها الكاتب، والتي تعبر عن نفسيته المحبة لهذه القيم النبيلة، فإن تسمية أبطاله أيضاً تشترك في هذه السمات و تعبر عنها، فأسماءهم جميعاً (سامر، جواد، أمجد، ماجد، سائد، نادر) وكلها يدل على القيم السامية التي تحملها، كما أن بناء الأسماء من حيث التركيب النحوي هي أسماء فاعلين. واسم الفاعل يدل على معناه: ف (سامر) بطل قصة (شحنة الدماغ)، وبطل قصة (ليس في القمر فقراء)، و (أمجد) بطل قصة (نبع السحاب)، و(سائد) و(طارق) بطلا رواية (عوالم من الأمساخ)، و(ماجد) و(نادر) و(يمان) هم أبطال رواية (فضاء واسع كالحلم) ... إلخ. بالإضافة إلى أن كل أبطاله علماء وأن معظمهم دكاترة في مجالات اختصاصهم.

¹⁸⁵ نفس المصدر

الخاتمة

خلاصة البحث

قصة الخيال العلمي هي القصة او الرواية التي تعالج بكيفية خيالية أحداث أو مواقف أو مجتمعات علمية محتملة الوقوع انطلاقا من حقائق أو فرضيات علمية معروفة. وهي تقوم بمعالجة استجابة الإنسان لكافة ما يحيطه من تقدم وتطور في العلوم وتقنياتها.

قصة الخيال العلمي أدب وليست علما، هذه طبيعتها الرئيسية . ذلك أن كاتب هذه القصص لا يقدم لقرائه كتابا علميا بغية تغذيتهم بما يضمه من معارف علمية نظرية أو تطبيقية، بل يقدم لهم قصة أو رواية بغية إمتاعهم. ومن خلال هذا الإمتاع يزودهم بالمعارف العلمية. فعلى الكاتب أن يقوم بإعلاء الجانب الفني والتمسك به بما يعنيه من قدرة على رسم حوادث ومجتمعات تنفع القارئ وتمتعه وتأثر فيه. فإذا خسر فيه الكاتب تجافت كتاباته عن طبيعتها الفنية، وهذا التجافي يجعلها خطابا تقريريا أو وعظيا أو شيئا آخر يعوق تحقيق وظيفتها. أن توفر هذه الطبيعة تحتاج الى الموهبة القصصية وإلى الخبرة في الصوغ القصصي والمران عليه.

بيد أن الطبيعة الأدبية ليست خالصة في قصص الخيال العلمي بل هي مقيدة بالمضمون العلمي الذي يضمه الخطاب الأدبي . ومن ثم يحتاج القاص الموهوب ذو الخبرة و المران الى معرفة علمية غزيرة متماسكة دقيقة. ذلك أنه يتنبؤ بالمكتشفات والمخترعات العلمية التي يبدها خياله. ولا بد من أن تستند نبوءاته الى الإنجازات العلمية في الحاضر لتبدو منطقية في التفكير العلمي ولتبتعد عن الخرافة. وهذا يعني أن موهبة القاص وحدها لا تنفع في هذا اللون القصصي ، كما أن المعرفة العلمية لا تكفي وحدها فيه، بل يجب اجتماع الموهبة الأدبية والمعرفة العلمية في كاتب قصص الخيال العلمي ليتمكن من تقديم نصوص تجسد دلالات المصطلح دون أي خلل فيها.

والتوقع والاحتمال او مانطلق عليه "الحلم العلمي" هو جوهر الكتابة في مجالات هذا الأدب الذي يتنبأ بما هو آت ليحذرنا منه او ليزيد جرعة الأمل في مستقبل مشرق نقضي فيه على مشاكلنا وعرثاتنا ونحل فيه معضلات حياتنا او ليسخر من عجزنا وضعفنا وحيرتنا أمام عناصر الكون اللامتناهية وأسراره المتراكمة.

ومن أهداف قصص الخيال العلمي :

- التنبأ عن أخطار التقدم العلمي و التقني في مجالات القتل و الدمار و الإبادة، و مشكلات تلوث البيئة و انتشار الآلة و ازدياد البطالة و انتشار الأمراض .
- و مناقشة موضوعات حيوية مثلا لجديد في الطب و العلاج و تعمیر الصحارى الرملية و الجليدية و استغلال ثروات البحار والمحيطات ، ومشكلة الطاقة ومشكلة الطعام وما مدى إمكانية استعمار الكواكب القريبة ومن ثم استغلالها لفائدة البشر.
- أن تثير القضايا بالغة الطرافة مثل ("هل توجد مخلوقات غيرنا بأنحاء الكون؟ ؛ وهل سيسيطر الانسان الآلي على صانعه البشري؟ ؛ وهل ستكون سينما المستقبل في قلب ذاكرة الانسان؟")
- و لعل من أهم أهدافه دفع الشعب العامي الى الاهتمام بالعلم والتقنية والأخذ بمنجزاتها وفهم أسرارها و بث الوعي العلمي فيما بينهم.

يبدو أنّ الخيال العلمي سبق العلم في ميادين عديدة. وإنّ أفكار وتصورات وتنبؤات كتاب الخيال العلمي ، قد أدّت فيما بعد الى توجيه العلماء الى كشوفات نجني ثمارها اليوم. هكذا أن الخيال العلمي يفتح أبواب الاستكشاف بينما هو حلم اليوم وما يكون واقعا غدا.

بذور هذا الجنس الأدبي كانت موجودة في الآداب القديمة، تمثلها الحكايات و الأساطير و الملامح.

والكاتب الفرنسي: جول فيرن، والكاتب الإنكليزي هـ. ج. ويلز، هما يُعدان مؤسسي قصة الخيال العلمي كجنس أدبي بمفهومه الحديث.

توفيق الحكيم هو أول من اهتم بأدب الخيال العلمي في الأدب العربي الحديث. ومن الكتاب العرب الذين ولجوا هذا الجنس الأدبي: مصطفى محمود صاحب رواية 'العنكبوت'، ويوسف السباعي صاحب رواية 'لست وحدك'، ونهاد شريف المصري صاحب رواية رقم 4 يأمركم وهؤلاء من مصر. وكذلك من سوريا الدكتور طالب عمران - وهو من الذي خصصوا اهتمامهم لأدب الخيال العلمي، ودياب عيد، ومن المغرب أحمد عبد السلام البقالي صاحب رواية 'لطوفان الأزرق'.

إنّ الكاتب السوري طالب عمران الحائز على الدكتوراة في الهندسة التفاضلية والفلك من جامعة عليكرة بالهند، هو من القلائل الذين ركزوا اهتمامهم لتأليف قصص وروايات الخيال العلمي والدراسات حوله. فهو يكتب في الرواية والقصة القصيرة والمسرح وله كثير من المؤلفات مطبوعة وبعضها بعدة طبعات وعدد كبير من الأعمال التي هي قيد الطباعة.

ومن أهم الموضوعات التي تتمحور حولها أحداث قصص طالب عمران: غزو الفضاء، الظواهر الخارقة المدهشة، البحث عن الخلود والشباب الدائم، البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض، حضارات العوالم الأخرى، كائنات العوالم الأخرى.

نتائج البحث

والنتائج المهمة التي اهتدى إليها الباحث بعد الدراسة هي كما تلي:

- إنّه من الممكن إعتبار قصة الخيال العلمي العربية جنسا أدبيا إبداعيا، إلا أنها تفتقر إلى مزيد من الإهتمام والعناية من قبل القراء والنقاد.
- قلة إنتاج أدب الخيال العلمي وكذلك قلة رواجه /عدم انتشاره لدى العرب عندما نقارنهما مع إنتشار قصص الخيال العلمي الغربي، يرجع سببه إلى ما يعاني العرب من فاقة الوعي العلمي وضعف الثقافة العلمية، وكذلك إلى

طغيان القصص الاجتماعي: الرومانسي، والواقعي. بيد أن هناك محاولات جادة للتغلب على هذه التحديات.

● يمكن القول: إن طالب عمران هوراند أدب الخيال العلمي في الأدب العربي المعاصر. فإنه قدّم فنية عالية في قصصه ورواياته، إخلاصاً شديداً لهذا الجنس الأدبي.

● وقد توزعت مضامين أدبه على محاور: غزو الفضاء، والبحث عن الخلود، والحاسة السادسة، والبحث عن مناطق مجهولة على سطح الأرض. ودعا في هذه المحاور جميعاً إلى السلام ليس على مستوى العالم الأرضي فحسب، بل وعلى مستوى الكون كله.

● وقد اتجه غزو الفضاء في قصص الخيال العلمي عند طالب عمران اتجاهين رئيسيين: الأول غزو الإنسان الفضاء (من الأرض إلى الكون) والثاني قدوم كائنات خارج الأرض إلى الأرض (من الكون إلى الأرض).

● يختلف خيال الدكتور طالب عمران، وبالتالي فكره، عن خيال وفكر من سبقه من أدباء الخيال العلمي ممن كتب في الوصول إلى القمر، فإذا كان رائد أدب الخيال العلمي الإنكليزي ه. ج. ويلز قد جعل الكائنات القمرية تبدو ذات شكل منفر منفوش كالأسماك، وقد اشتبكت مع رواد الفضاء الأرضيين في قتال عنيف، استطاع فيه رواد الفضاء الأرضيون قتل العديد من سكان القمر، فإن خيال الدكتور طالب عمران يبدو أكثر واقعية ومعقولة حين لا يجعل القمر أهلاً بالسكان، لمعرفته العلمية بواقعه، وحين يجعله غير صالح للحياة البشرية، ولهذا اضطر البشر الذين هاجروا إليه من العيش داخل كابينات زجاجية واسعة يتوافر فيها كل ما تتطلبه حياة الكائن البشري من أكسجين ونور وغذاء، إضافة إلى أن خيال الدكتور عمران لم يذهب إلى الحرب والقتال بين الأرضيين والقمريين كما ذهب خيال الأدباء الغربيين الذين كانوا ينطلقون من واقعهم الاستعماري، ورغبتهم حتى في استعمار الكواكب الأخرى.

- إن عمران يرغب في أن تعم الكون لا العالم فحسب، قيمتان أساسيتان هما: العلم والسلام، وهو يرى أنه لن يكون هنالك سلام دون توجيه العلم الوجهة الإيجابية التي ينبغي أن يوجه إليها. وهي الارتقاء بمستوى البشر، والتعمق في الأبحاث العلمية والفلكية التي تجعلهم يطلعون على حضارات كواكب أخرى، ويتواصلون معها، بما يخدم البشرية. ومن هنا جاء تأكيده على تثبيت قيم المحبة والخير والعدل، ورغبته في أن تعم هذه القيم الكون بأسره.
- إن حلم الاتصال بحضارات الكواكب الأخرى، والتعاون معها في سبيل اكتشاف الفضاء، وعقد صداقات مع كائنات العوالم الأخرى هو ما يؤكد الدكتور عمران في معظم قصصه العلمية، فهو يرغب في نشر قيم الحق والخير والعدل ليس بين البشر فحسب، بل وبين سكان العوالم الأخرى، مما يجعل أدبه العلمي ذا رسالة حضارية سامية. وعلى الخصوص عندما يجعل العلم والعقل والسلام محاور أساسية في أدبه.
- ويشكل غزو الفضاء الاتجاه الأوسع في موضوعات أدب الخيال العلمي كماً ونوعاً. وقد عالج طالب عمران فيه غزو الفضاء من قبل سكان الأرض، كما عالج في قسم آخر غزو الأرض من قبل كائنات الكواكب الأخرى، وذكر أسماء الكواكب التي زارها أبطاله (القمر، والمريخ ... الخ) كما ذكر أسماء الكواكب التي اخترعها خياله (ميماس، أوريوس، المارد، ريموس، الكوكب الفوسفوري، الثقب الأسود ... إلخ) وأحياناً لم يكن يذكر أسماء الكواكب المنشودة مكتفياً بتصوير كائناتها وحضاراتها، ومصاعب الرحلة إليها. ورائده في هذا الاتصال الكوكبي الحضاري هو التعاون مع حضارات الكواكب الأخرى في سبيل اكتشاف الفضاء، وعقد صداقات مع كائنات العوالم الأخرى، رغبة في نشر قيم الحق والخير والعدل، ليس بين البشر فحسب بل وبين سكان العوالم الأخرى، مما يجعل أدبه ذا رسالة حضارية سامية .
- والاتجاه الثاني الذي عالجه طالب عمران في أدب الخيال العلمي هو الظواهر الخارقة المدهشة حيث غاص إلى أعماق خفايا النفس البشرية، واكتشف

حالات كثيرة من الطاقات الروحية المخزونة والتي يعبر عنها العلم أحياناً باسم 'الحاسة السادسة'، وذلك في قصصه التي تروي القدرات الخارقة، والتنبؤ والاستبصار، وقراءة أفكار الآخرين، والتخاطر، والأحلام، والتقمص، والتنويم المغناطيسي، والأسرار الخفية للروح... إلخ.

● كذلك عالج عمران في أدبه التكاثر الخلوي، والاستنساخ، والبحث عن الخلود عن طريق السبات الشتوي، حيث يجمد الجسم عشرات السنين، ثم يوقظ ثانية، ليبدأ حياته من جديد، في عصر آخر، أو الخلود عن طريق تحويل 'مادة' الجسم إلى 'طاقة' خالدة

● أما في البحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض، فقد عالج عمران القارة المفقودة أطلنطيد، والحضارات العربية القديمة في قصصه ورواياته العلمية. هناك كثير من الظواهر الخارقة المدهشة لا يعلم الإنسان العادي بل وحتى العلماء الكبار عن حقيقتها، فيفسرها البعض تفسيراً خرافياً. وقد وضع د. عمران في مثل هذه الظواهر أكثر من خمس عشرة قصة، فسر فيها هذه الظواهر جميعاً تفسيراً علمياً.

● كذلك تعرض د. عمران لبعض الحوادث الطبيعية التي لا تحدث إلا لمأماً، وهي تصيب الإنسان بالدهشة والذهول، من مثل اقتراب أحد المذنبات من الأرض، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، وسقوط نيزك أو شهاب.

● يصور الكاتب في بعض رواياته ظواهر أخرى عامة في الحياة من مثل عدم تأثر بعض الأجسام بالسم، وقوة بعض الأجسام في استنشاق الهواء الخالي من الأوكسجين، ومساعدة الحيوان للإنسان... إلخ، وكلها معلومات خارقة لكنها مصاغة صياغة فنية بأسلوب سردي مشوق.

● والبحث عن عوالم مفقودة على سطح الأرض يمكن أن ينقسم عند عمران إلى ثلاثة اتجاهات هي: البحث عن القارة المفقودة اطلانطيس، والبحث عن آثار الحضارات القديمة، وتنازل القصص الشعبي العربي.

- نشط البحث عن الحضارات العربية القديمة في العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين كنوع من الرد على المركزية الأوروبية التي ترى أن الحضارة الإغريقية هي أم الحضارات في العالم وأقدمها، ولهذا انطلق الباحثون في إظهار الحضارات العربية القديمة، معتمدين على المكتشفات الأثرية التي بدأت في الحفر والتنقيب مع مطلع القرن العشرين، فوصلوا إلى نتائج حضارية باهرة أكدت أن الحضارات العربية القديمة التي نشأت قبل الميلاد بآلاف السنين. ومن هنا بدأ بعض الأدباء في استلهاهم هذا الزاد الحضاري التراثي في الأدب. ومن هؤلاء الأدباء طالب عمران الذي هو الوحيد بين أدباء الخيال العلمي من التفت إلى هذا التوظيف الحضاري للتليد.
- كائنات العوالم الأخرى في أدب عمران هي كائنات عاقلة، وعلى مستوى حضاري متطور جداً أكثر من بشر الأرض بكثير، ولهذا فهي تؤمن بالعقل الذي يبذل العلم، وبالعلم الذي يبذل الحضارة، وبالسلام الضروري للحضارة كي تعيش مدة أطول، وتؤمن لأفرادها الرفاهية والهناء.
- تنبأ الدكتور طالب عمران في روايته 'العابرون خلف الشمس' بسحب من الدخان المتراكم لشهور طويلة بعد الحرب النووية، وكأنما هو يصف الشتاء النووي قبل نشر هذه النظرية من قبل علماء دول متطورة.
- وقد أخذ الدكتور عمران المسافات الزمانية والأبعاد المكانية الهائلة بين أجزاء الكون بعين الاعتبار في قصصه ورواياته العلمية.
- بالنسبة لأعمال طالب عمران، إنه ليس هناك من كبير فرق بين قصصه القصيرة و رواياته، فقد تصبح القصة رواية صغيرة إذا ما زيد فيها الوصف، وقد تصبح روايته قصة قصيرة إذا ما حذف منها بعض الوصف والمشاعر، وهذا لا يقلل من أهميتها ولا يعني أن روايته تحوي حشوا زائداً، وإنما هو رجل علمي يكتب بدقة ويعرف للكلمة حقها، ومن هنا جاءت رواياته قليلة الكم، لأنها أصلاً مختزلة، لا زوائد فيها.

- وعلى الرغم من أن عمران يضع السرد القصصي في خدمة الأفكار العلمية، إلا أن هذا لم يجعل روايته أو قصته تتسم بالجفاف العلمي، لأنه استطاع بمهارة الفنان أن يحقق المعادلة المستحيلة : المضمون العلمي في الشكل الفني. ويحفظ التوازن بين هذين الاتجاهين المتعارضين، فيلتحمان في وحدة كاملة ينصهر فيها الشكل بالمضمون. .
- وإذا كان عمران قد وقف إلى جانب العلم وأظهر ضرورته وإيجابياته فإنه بالمقابل قد حذر من خطورته وبين سلبياته : فهو سلاح ذو حدين، يستعمل في الخير لصالح البشرية، في التقدم العلمي، وتغيير البيئة، والقضاء على الأمراض، وعلى التلوث، وعلى التصحر. كما يستعمل في الشر ضد البشرية كما في الحروب والقنابل الذرية والهيدروجينية وفرض الديكتاتورية والقمع والكبت والاستبداد.
- ومن الملاحظ أن أسماء شخصيات قصص طالب عمران تتكرر في أكثر من قصة مثل: (أمجد)، و(نادر)، و(أحمد) ... إلخ. وكلها يعبر لفظاً و معنى عن النبيل والخير الذي تختزنه في أعماقها.
- ولأن قصصه علمي فإن معظم شخصياته من العلماء الذين يحملون شهادة (الدكتوراه)، أو من المختصين في مجالات عملهم، كالهندسة، أو الطب، أو التقنية ... إلخ وما يجمعهم ويوحد بينهم هورغبتهم في التقدم العلمي الإيجابي لخير البشرية، وسعيهم من أجل مستقبل إنساني يعم فيه الخير والعدل والسلام.
- وإذا كانت ظاهرة توظيف الأشعار التراثية والأغاني الشعبية مشروعة في أدبنا المعاصر، وقد لجأ إليها كثير من الأدباء لإغناء مضامينهم. فإن عمران لجأ إليها أيضاً ولكن ليس كغيره ممن يوظفون أشعار غيرهم. فقد جاء بأغان وأشعار هي من إبداعاته أيضاً.
- إن أبطال قصصه بالإضافة إلى كونهم يعبرون عن قيم الحق والخير والعدل التي يتبناها الكاتب، والتي تعبر عن نفسيته المحبة لهذه القيم النبيلة، فإن تسمية أبطاله أيضاً تشترك في هذه السمات و تعبر عنها، فأسماءهم جميعاً (سامر،

جواد، أمجد، ماجد، سائد، نادر) وكلها يدل على القيم السامية التي تحملها، كما أن بناء الأسماء من حيث التركيب النحوي هي (أسماء فاعلين): ف (سامر) بطل قصة (شحنة الدماغ)، وبطل قصة (ليس في القمر فقراء)، و (أمجد) بطل قصة (نبع السحاب)، و(سائد) و(طارق) بطلا رواية (عوالم من الأمساخ)، و(ماجد) و(نادر) و(يمان) هم أبطال رواية (فضاء واسع كالحلم) ... إلخ. بالإضافة إلى أن كل أبطاله علماء وأن معظمهم دكاترة في مجالات اختصاصهم.

- ولأن طالب عمران عاش سنين طويلة في الهند طالبا باحثا في جامعة عليكرة، تظهر تأثير مظاهر الحياة الهندية وثقافتها في بعض أعماله وتدور أحداث بعض قصصه في الهند.

الاقتراحات للدراسات المزيدة

يقترح الباحث للراغبين في موضوع الخيال العلمي العربي الجوانب التالية للقيام بدراسة بحثية مزيدة:

- التنبؤات العلمية واستشراف المستقبل في قصص الخيال العلمي لطالب عمران
- تطورات علمية والقيم الإنسانية كما تنعكس في قصص الخيال العلمي لطالب عمران
- بيئة وثقافة الهند كما تنعكس في قصص الخيال العلمي لطالب عمران

قائمة المصادر والمراجع

قصص وروايات طالب عمران

1. ضوء في الدائرة المعتمة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980
2. أسرار من مدينة الحكمة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط 1، 1988
3. تلك الليلة الماطرة ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1991
4. مساحات للظلمة، وزارة الثقافة، دمشق، 1992
5. السبات الجليدي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1992
6. ثقب في جدار الزمن، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1992
7. خفايا النفس البشريّة، دار الكاتب العربي، دمشق، 1994
8. الخروج من الجحيم ، وزارة الثقافة ، دمشق، 1995
9. بئر العتمة ، دار علا دمشق 1996
10. الذي أرب القريّة الأمانة ، وزارة الثقافة، دمشق، 1996
11. شحنة الدماغ ، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1997
12. النفق، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2000
13. ابن الغابة، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006
14. بوابة خان الخليلي، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006
15. زمن القبعات المنتفخة والألسن الطويلة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 4، 2006
16. شفافية أشبه بالصدى، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006
17. التحول الكبير، دار الفكر، دمشق، ط 3، 2006
18. الأصابع السحريّة، دار الفكر، دمشق، ط 3، 2006
19. الظلال الأخرى، دار الفكر، دمشق، ط 3، 2006
20. امرأة من عالم مختلف، دار الفكر، دمشق، ط 3، 2006

21. طيور وسط النيران، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ط 3، 2006
22. البحث عن عوالم أخرى، دار الفكر، دمشق ط 3، 2006
23. أمومة لا تعرف اليأس، دار الفكر، دمشق ط 2، 2006
24. طيور الليل، دار الفكر، دمشق ط 2، 2006
25. جزيرة الموت ، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق، 2007
26. أسرار الكائنات المضيئة ، دار الفكر، دمشق، 2009
27. العابرون خلف الشمس، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1979
28. ليس في القمر فقراء، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ط 5، 2006
29. خلف حاجز الزمن، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1985
30. مدينة خارج الزمن، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1996
31. عوالم من الأمساخ ، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006
32. رجل من القارّة المفقودة، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2006
33. فضاء واسع كالطم ، دار الفكر، دمشق ، ط 4، 2006
34. البعد الخامس، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق، 1998
35. الزمن الصعب، دار الفكر دمشق ، 2006
36. رواد الكوكب الأحمر ، دار الفكر ، 2006
37. أحزان السندباد ، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق، 2002
38. الأزمان المظلمة، دار الفكر ط 4، 2010
39. في كوكب شبيه بالأرض ، دار الفكر – دمشق ط 2، 2006
40. مثلث الأسرار، دار الفكر، دمشق، ط 2، 2006
41. البدائل المذهلة، دار الفكر ، دمشق، ط 2، 2006
42. الفتية الأغرار وأسفار الكشف، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2005
43. مزون، دار الفكر، دمشق ط 2، 2007
44. دوامات الخوف، دار الفكر، دمشق، 2009
45. أهل الكهف، دار الكهف، دمشق، 200

أعمال الخيال العلمي للكتاب الآخرين

1. مصطفى محمود، العنكبوت ، دار المعارف ، مصر، 1964
2. مصطفى محمود، رجل تحت الصفر، دار المعارف ، مصر ، 1967
3. مصطفى محمود، الخروج من التابوت ، دار المعارف ، مصر ،
1965
4. مصطفى محمود ، الأفيون ، دار المعارف ، مصر، 1970
5. أحمد عبد السلام البقالي، الطوفان الأزرق، اتحاد الكتاب العرب، 1997
6. نهاد شريف، رقم 4 يأمركم ، أخبار اليوم، 1974
7. صبري موسى ، السيد من حقل السبانخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
1997
8. مصطفى الكيلاني، مرايا الساعات الميتة ، دار الميزان للنشر ،
2004
9. توفيق الحكيم، أرني الله، دار الشروق، القاهرة، 2008
10. توفيق الحكيم، رحلة إلى الغد، دار المعارف، القاهرة، 2001
11. هربرت جورج ويلز، آلة الزمن (الترجمة العربية)، مكتبة
الأسرة، 2014
12. هربرت جورج ويلز، حرب العوالم (الترجمة العربية)، هنداوي
للطباعة والتوزيع، 2013

المراجع

1. محمد عزام، الخيال العلمي في الأدب، دار طلاس، دمشق، 1994
2. محمد عزام، خيال بلا حدود، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2000
3. طالب عمران ، في العلم و الخيال العلمي ، وزارة الثقافة السورية،
1998
4. يوسف الشاروني، الخيال العلمي في الأدب العربي، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، 2002

5. جان غاتينو، الخيال العلمي ، (ترجمة ميشيل الخوري)، دار الطلاس ، دمشق 1990
6. طالب عمران، العالم من حولنا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1976
7. طالب عمران، نافذة على كوكب الحياة – دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980
8. طالب عمران، الحاسة السادسة – دراسة، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق، 1990
9. طالب عمران، الكون يكشف أسرار ه – دراسة، دار عقل للدراسات والنشر، دمشق 1991
10. طالب عمران، بوابة الأسطورة – استكشاف الهند، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2016
11. لويس معلوف، المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 2009
12. محمد المجذوب ، علماء و مفكرون عرفتهم ، دار الشواف ، 1992
13. مجلدات 'مجلة الخيال العلمي' – وزارة الثقافة السورية
14. Aldiss, Brian. *Billion Year Spree: The True History of Science Fiction*, 1973.
15. Barron, Neil, ed. *Anatomy of Wonder: A Critical Guide to Science Fiction* (5th ed.). Westport, Conn.: Libraries Unlimited, 2004.
16. Clute, John *Science Fiction: The Illustrated Encyclopedia*. London: Dorling Kindersley, 1995.
17. Dr. Archana A.K. , 'Shastra Novel Malayalathil – Charithram, Vikasam Parinamam', Kerala Bhasha Institute
18. Peter Nicholls, John Clute *Encyclopedia of Science Fiction*, 1979 (online copy)

المواقع الإلكترونية

1. Ministry of culture | Syrian Arabic Republic (moc.gov.sy)
2. mlzamty.com
3. Arab science fiction | Arab News
4. Arabic Science Fiction | SpringerLink
5. Wikipedia
6. مكتبة نور اكبر مكتبة إلكترونية عربية مفتوحة للكتب. (noor-book.com)

CERTIFICATE

This is to certify that this thesis titled “**Modern Arabic Science Fiction as a Creative Literary Genre – A Critical Approach with a Special Reference to the Works of Syrian Writer Talib Imran**” submitted to the University of Calicut, in partial fulfillment of the requirements for the award of Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature, is a bona fide record of research work carried out by **Aslam K** under my supervision and no part of the thesis has formed for the award of any degree earlier.

University of Calicut

Date:

Prof. (Dr.) Moideenkutty A.B.

Professor

Department of Arabic

University of Calicut

DECLARATION

I, Aslam K, hereby declare that this thesis titled “**Modern Arabic Science Fiction as a Creative Literary Genre – A Critical Approach with a Special Reference to the Works of Syrian Writer Talib Imran**” submitted to the University of Calicut, in partial fulfillment of the requirements for the award of Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature, is a bona fide record of research work carried out by me under the supervision of **Prof. (Dr.). Moideenkutty A.B.** I also declare that this study has not been placed by anybody in any other university.

CU Campus

Date:

Aslam K.

(Research Scholar)

**MODERN ARABIC SCIENCE FICTION AS A
CREATIVE LITERARY GENRE – A CRITICAL
APPROACH WITH A SPECIAL REFERENCE TO THE
WORKS OF SYRIAN WRITER TALIB IMRAN**

*Thesis submitted for the degree of Ph.D. in Arabic Language
and Literature*

By:

ASLAM K.

Under the Supervision of

Prof. (Dr.) MOIDEENKUTTY A.B.

Professor

Department of Arabic

University of Calicut



University Of Calicut

Kerala – India

2022